
محرم ١٤١١



الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث (راجع المقالة ص ٣)

السنة الثانية
العدد الرابع عشر
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٩
محرّم ١٤١١هـ



تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت ، لبنان
بناية أبو هليل - شقة ١١
شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

الإعلانات
تمام : الشركة العربية لإنماء الإعلانات
ص.ب : ١١/٦٨٨ - بيروت ، لبنان

الإنتاج :
مطبعة المتوسط ش.م.ل.

التوزيع :
الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
Tel.800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. 11
No. 14. Dec. 1979
PRICE : 4 L.L.
ANNUAL SUBSCRIPTION :
75 $ IN NON-ARABIC
SPEAKING COUNTRIES

في هـــذا العـــدد

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

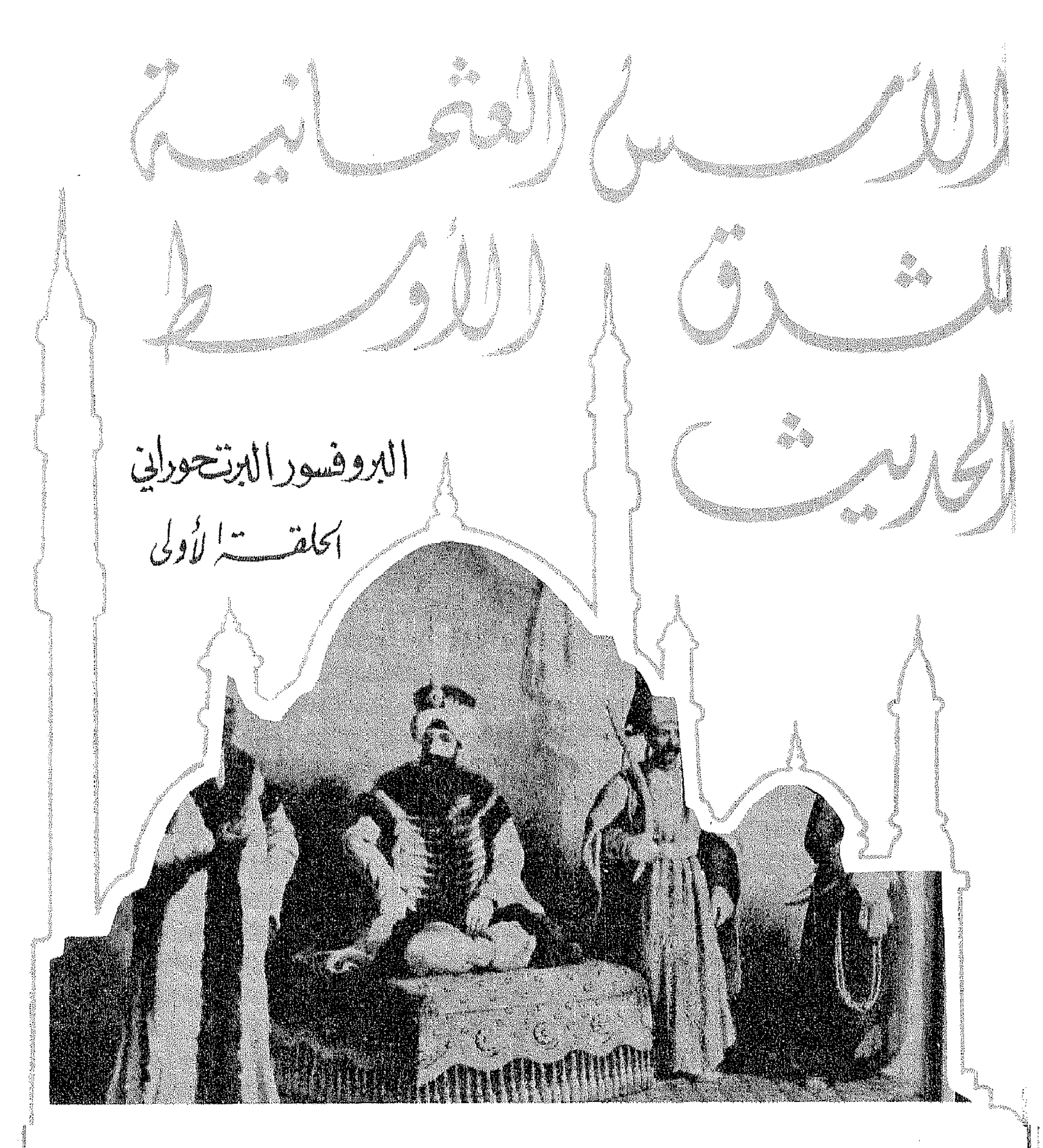


جلسة مترفة في أحد قصور بغداد العباسية (راجع المقالة ص ٥٨).

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تُنشَر.



الاشكالية دور الأتراك في الدولة الاسلامية

● أريد أن أتحدث عن حقبة من التاريخ مدتها أربعمئة سنة ، من ابتداء العصر السادس عشر إلى ابتداء العصر العشرين (أو إذا توخينا مزيداً من الدقة ، من ١٥١٦ إلى ١٩١٨) ، حينما كانت معظم البلاد العربية تحت حكم الأتراك العثمانيين يمارسونه من العاصمة في إستنبول. وفي الكتب القديمة عن تاريخ العرب لا يكاد يجد المرء شيئاً كثيراً في أقوال المؤرخين عن هذه المدة. فأنا مثلاً سألت مرة مؤلفاً لاحد هذه الكتب المشهورة لماذا أغفل تمام الإغفال تقريباً هذه المدة في تاريخه ؛ وكان جوابه لأنه لم يكن يوجد في الحقيقة تاريخ للعرب في هذه العصور. والمفروض أنه من الصعب أن يظن الإنسان أنه لم تجر في بحر أربعة عصور حوادث مهمة في منطقة كان لها تمدن قديم وبين شعوب أبدعت الشيء الكثير. ولكن الذي عناه هذا المؤلف ولا بد واضح كما أرى ؛ فهو يريد أن يقول أولاً ان العرب من ناحية سياسية لم يكن لهم إلا دور صغير يلعبونه في هذه المدة ، ولذلك كان أساس البحث أو الموضوع التاريخي مفقوداً ، لأنه ، ولو إن الأكثرين منا قد تخلوا عن الفكرة القديمة الخاصة بالتاريخ السياسي المحض وأخذوا بفكرة أخرى أوسع مدى منها ، فإن التاريخ الإجتماعي لا يمكن

فهمه إذا نحن اسقطنا من حسابنا الصراع لاغتصاب السلطة الذي تبرز فيه جميع القوى الإجتماعية وإذا أسقطنا أيضاً إستعمال السلطة من أجل الحفاظ على النظام الإجتماعي أو إبادته أو تغييره أو فرضه فرضاً. وهو يريد أن يقول ثانياً ان الحكم العثماني على المجتمع العربي حال دون أن يتطور التمدن العربي والإسلامي خطوات تقدمية أخرى، بل إنه قضى على الحيوية التي كانت له.

هذه النظرة نظرة تكاد تكون عامة عن التاريخ الإسلامي، لا تقتصر على الكتاب العرب وحدهم. وهي من جهة ما نظرة وطنية قومية إلى حد بعيد. فإن الذين يرغبون في الإستعاضة عن نظام سياسي في الشرق الأوسط قائم على الولاء الديني بنظام جديد قائم على الولاء القومي، كما هو الشأن لدى دعاة الثورة والإنقلاب في الأزمنة الأخرى، قد إستعملوا صورة ذهنية لزمان تاريخي بعيد يريدون بها أن تكون واسطة لأنكار ماضٍ قريب ولأظهاره في أعين الناس بمظهر مستقبح مذموم. والعرب في بعض الأحايين كانوا ينزعون في نفوسهم إلى التاريخ الإسلامي الأول كراهية بالعثمانيين، ونزع المصريون إلى زمان الفراعنة، واللبنانيون المسيحيون إلى الفينيقيين بل إن الأتراك أنفسهم رجعوا بنظرتهم متجاوزين العثمانيين والعرب إلى الحثيين، ورجع الفرس إلى عهد الإمبراطورية الفارسية، وهذا، شأنه شأن عوامل أخرى عديدة في الحركات القومية في الشرق الأوسط، صورة منعكسة عن أفكار معينة كانت متفشية شائعة في أوروبا في القرن التاسع عشر، ومن ذلك مثلاً: الحركة الرومانتيكية في تقديس الماضي البعيد، بما يمازجها من فكرة إنقلابية ثورية تدعو إلى أن الإنسان حر في تحطيم نظامه أو عالمه الإجتماعي وسبك عالم اجتماعي جديد له. ومن هذه الصورة الذهنية على الأخص القول بأن مجيء الأتراك وضع حداً للتمدن الإسلامي الأول وما له من بهاء وبداعة، وحال دون تطوره وتقدمه على غرار ما جرى من التطور والتقدم في أوروبا الحديثة. ولهذا أنكر روسو إخضاع العرب للبرابرة الأتراك[١]، واكتفى جون هنري نيومان في محاضراته عن تاريخ الأتراك بأن أقرّ لهم ببعض الفضائل الخاصة بالبرابرة (كالبسالة والصدق وعدم شرب الخمور) ونفى فضائل المدنية الخاصة بالآداب العقلية، واتهمهم بأنهم أطفأوا نور الدولة الإسلامية الأولى وهي الخلافة التي كانت متمدنة حقاً[٢].

هذه النظرة، على بساطتها وإغراقها في الشمول، لا تقوى على الثبات عند الإمتحان الدقيق. وكل أحد ساح أو سافر في البلاد التي كانت تحت حكم الأتراك – ولا يقتصر ذلك على ما نسميه الآن بتركيا، بل يشمل البلقان والشرق الأدنى العربي وساحل أفريقية الشمالي – لا بد له من أن يلحظ مبلغ عمق الأثر الذي أحدثه العثمانيون ومبلغ ديمومة الوحدة التي فرضت على كثير من البلاد والشعوب المختلفة، كما يتجلى ذلك في الأبنية، من القباب والمآذن النحيفة اللطيفة الشكل على الطراز العثماني إلى الثكنات العسكرية ودور الحكومة المتينة البناء في عهد متأخر؛ وفي آداب السلوك البالغة التعقيد والتنوع والشديدة الترسم والتزمت عند الأسر القديمة في استنبول وفي عواصم الولايات، وهي على ما هي عليه من الاختلاف عن آداب السلوك عند القرويين في القرى الجبلية وعند البدو – وهذه ليست أقل جودة وإنما من نوع آخر؛ وفي أسلوب خاص في الحكومة وفي السياسة يصعب وصفه، وإن ظل قائماً حتى أيامنا هذه، ليس بين رجال السياسة الأتراك بل في القصور في بغداد وعمان والقاهرة وتونس وبين رجال السياسة المصريين قبل الثورة، وبين زعماء الحركة الوطنية في سوريا والعراق وبعض بلاد البلقان – وهو على العموم موصوف بالأناة والحذر والعناية بجعل نفوذ معين معادلاً لنفوذ آخر ضده حتى يبطل مفعول الإثنين، وإعطاء العدو من الوقت والمجال حتى يجلب دماره بيده مع حسن تقدير المدى الذي يمكن الذهاب إليه ثم الوقوف عنده وترك باب للتخلص قبل الفوات.

فإذا كان الرحالة أو المسافر يستطيع أن يجد بنفسه هذه الآثار التي خلفها حكم العثمانيين في الماضي، فإن المؤرخين أيضاً في الجيل الحاضر – باستعمال المحفوظات العثمانية الضخمة في استنبول وبكونهم أقل تأثراً من سابقيهم بحادث التفكك والانحلال النهائي للإمبراطورية على شكل دويلات قومية معادية تتصف سيرتها بضيق الخلق – قد أعطونا صورة جديدة عن كيفية دخول القبائل التركية إلى العالم الإسلامي وعما صنعت هذه القبائل لهذا العالم. فإن هذه القبائل لم تأت غازية فاتحة كالغازي والفاتح الأجنبي إلى عالم حاول التصدي لها أو كان في استطاعته ان يحمي نفسه



عسكري تركي من «الانكشارية».

ويحكم نفسه ويتطور بدونها؛ وهذه القبائل أنفسها قدمت من جانبها إلى هذا العالم شيئاً إيجابياً، لولاه لما كان من المحتمل له أن يعيش بعد ذلك، أو على الأقل ان يتكون على الشكل الذي تكون فيه. فقد جاءت هذه القبائل أول ما جاءت من آسيا الوسطى بتأثير إحدى الحركات الخفية الأصل التي تقوم بها القبائل البدوية في التاريخ من زمن إلى آخر بسبب كثرة السكان أو تغير في حالة النبات والعشب أو في موارد المياه أو بسبب الحروب بين القبائل أو حوادث تجري على أطراف المحيط القبلي. ولعل السبب في هذه الحالة بعينها حدث جرى في الصين، فإن برنارد لويس يقترح ان السبب في ذلك توطد حكم (سونك) في الصين بعد فترة من الإضطراب فأدى ذلك إلى سد الطريق أمام التوسع إلى داخل الصين وأجبر القبائل في آسيا الوسطى إلى الإمتداد والتوسع نحو الغرب[٣].

ولكن هذا التعليل لا يزيد على أن يكون نصف القصة. فإن رجال القبائل الأتراك لما دخلوا المناطق الشرقية للخلافة العباسية في بغداد وجدوا هناك مجالاً للعمل في انتظارهم: أولاً بكونهم جنوداً مرتزقة، ولكن بعد ذلك على صورة أخرى وهي بكونهم حماة المجتمع الإسلامي والمدنية الإسلامية وحكامهما. وهنا نأتي مرة أخرى على وهم قديم باطل يعترض سبيلنا: وهو القول بأن الدين الإسلامي دين صحراوي، وبأن مجتمع هذا الدين كانت تسيطر عليه مصالح القبائل البدوية ومبادئها. يجوز أن العرب كانوا مادة الإسلام الأولية، على حدّ ما ورد في عبارة ترددت وجرت على الألسن في تاريخ العرب المبكر، ولكن لم تلبث الخلافة ان توطدت وثبتت أركانها وتوطد المجتمع الإسلامي ورسخت أساساته حتى أخذت الخلافة مع المجتمع تتكيف مع جميع الحضارات والمدنيات الموجودة في الشرق الأدنى وتتماثل معها. وكان في قلب هذه الحضارات والمدنيات دوماً مدن عظيمة تستمد غذاءها الروحي من مناطق داخلية ريفية تابعة لهذه المدن ويرتبط بعضها ببعض بالطرق التجارية. وكان في هذه المدن وأمثالها ان نمت الحضارة الإسلامية السامية وتنشأت، وكان فيها أن استحكمت جذور الحكومات الإسلامية العظيمة وأصولها، وهي الحكومات التي كانت الغاية منها حماية النفوس وحماية المجتمع والحضارة والدفاع عن المدن وما وليها من الأقاليم الريفية.

ولا يخفى أن حياة الإستقرار والثبات في مكان واحد كانت دائماً عرضة للتقادير وعوارض الزمان في الشرق الأدنى. وإذا أريد لهذه الأقاليم الريفية وللطرق التجارية أن يكون في استطاعتها تقديم الفائض الذي بدونه لا يكون للحياة الحضرية الواسعة النطاق أمل في البقاء، فلا بد من حمايتها من رجال البداوة وسكان الجبال ومن الغزاة الأجانب ومن جميع العوامل والقوى البشرية والطبيعية التي تستطيع إذا تركت وشأنها أن تجلب الخراب على نظام ري الأراضي (وقد صور حديثاً كتاب بقلم روبرت أدمز

وعنوانه (الأرض خلف بغداد) استعمل فيه المؤلف كل الأساليب من جغرافية وأركيولوجية أثرية وتاريخية لدراسة استخدام الماء والأرض في إحدى مقاطعات العراق من بداية التاريخ حتى يومنا هذا، ويبن فيه قرب الصلة الشديدة بين استخدام الماء وسياسات الحكومات وقوتها)[٤].

واحتاجت المدن الإسلامية الكبرى إلى نظام سياسي، ولم تستطع هي وحدها أن تجد لأنفسها هذا النظام؛ فإنه بينما كانت سلطة الخلافة العباسية آخذة في الإنحطاط في العصرين العاشر والحادي عشر، لم يظهر -كما ظهر في بعض أنحاء أوروبا في القرون الوسطى- شيء من السلطة أو القوة المعادلة المضادة في المجتمع يستطيع في النهاية إحداث نظام خاص به يبقي به على نفسه. وكان جواب المجتمع الإسلامي لهذه المعضلة أنه أحدث نوعاً جديداً من الحكم الإستبدادي قائماً على أساس عسكري، ونشأت في داخل الخلافة سلسلة من الدويلات كانت تعرف مجموعة باسم «السلطنات». وكان السلطان يحكم ضمن حدود منطقته، ولم يكن يدعي لنفسه أنه الحاكم لعموم العالم الإسلامي؛ وعلى العموم فإن السلطان، ما دام الخليفة موجوداً في بغداد، كان يقر له بالسلطة العرفية الرسمية؛ ولم تكن سلطة هذا السلطان في منشئها مستندة إلى تقدير رباني أو اختيار إلهي وإنما كانت بفضل السيف، وكانت تبقى قائمة محفوظة وتنتقل من سلف إلى خلف بفضل السيف أيضاً. أما شرعيتها فكانت تكون ضمن حدود الشرع، وبأنها تستخدم لتحقيق أغراض الإسلام الكبرى - ومنها مدّ حدود الإسلام وتوسيعها، وحمايتها من الهجمات الخارجية، والمحافظة على الشريعة والعقائد الإسلامية القويمة، وتنظيم الحج وحماية الحجاج، وغير ذلك من المناسك والشعائر.

وفي هذا المجال يجيء دور الأتراك التاريخي. فإنهم من وجهة عامة هم الذين أتاحوا لهذه السلطنات الجماعات السياسية العسكرية التي حافظت عليها، بمثل ما أتاح لها المغول قرناؤهم القريبون لهم في التاريخ في مدة من الزمن. ولا يصدق هذا القول على النصف الغربي أو النصف التركي العربي من العالم الإسلامي وحده؛ بل يصدق أيضاً على النصف الشرقي أو النصف التركي الايراني منه. فملوك أو شاهات الدولة الصفوية وهم الذين خلقوا بالفعل ما نسميه الآن بايران أو بفارس، كانوا من أصل تركي، وكانت لغة البلاط الملكي عندهم اللغة التركية لمدة قرن أو شبهه؛ كما أن أباطرة المغول في الهند كانوا هم أيضاً من أصل تركي مغولي. والأتراك في تمكنهم من القيام بدورهم هذا مدينون بعض الشيء إلى توحد كلمتهم وقدرتهم من ناحية عسكرية، وبعض الشيء الآخر إلى هيئة طبيعية في سلطتهم ومهارة في تنظيم الحكومات والإدارات الحكومية (وسنعرج على ذلك في كلامنا فيما بعد). وقد أقرّ العالم الإسلامي لهم بذلك في زمنهم، ولا أدل على هذا من قول نقيب المؤرخين والمفكرين العرب ابن خلدون بأن الأتراك ولا شك يستحقون خير الجزاء من المسلمين والإسلام. ولنقتبس مرة أخرى ما قاله برنارد لويس عن ابن خلدون: «رأى في مجيئهم برهاناً» على عناية الله المتواصلة بصلاح الإسلام والمسلمين. إذ بينما كانت الخلافة الإسلامية قد ضعفت وفسد أمرها، ولم تعد قادرة على صدّ اعدائها، جلب الله لها بحكمته وحسن تدبيره وإحسانه حكاماً وحماة جديدين، من بين قبائل الترك العديدة العظيمة، حتى ينفث من جديد الروح في جسم الإسلام الآيل إلى الفناء ويعيد إلى المسلمين وحدتهم[٥].

ولكن هذا الإقرار من قبل المسلمين الأتقياء الغيورين لم يكن بدون شرط. فإن سكان المدن الإسلامية وزعماءها والأسر الشريفة في خارج المدن، بما ورثته من نفوذ إجتماعي ومآثر دينية ثقافية، كانوا يرون أن صلاح المجتمع الإسلامي يقتضي نوعاً من التوازن أو التكاتف: فالسيف الذي كان بأيدي السلاطين الأتراك وبأيدي اتباعهم وذويهم من قواد ومقدمين في الدولة، وبأيدي جنودهم وعساكرهم، ينبغي أن يستعملوه بالتكاتف والتحالف مع العلماء العارفين بأمور الدين والشريعة القائمين بتعليمها وتفسيرها وتنفيذها؛ وقد قبل السلاطين بصورة غالبة هذا التحالف. فاحترموا العلماء واستشاروهم واستخدموهم في شؤون الدولة، وشدوا أزر القضاة في قضائهم، والمفاتي في إفتائهم في الشريعة والمدارس التي تدرس الشريعة؛ وكانوا إلى قدر كبير يستمدون رجال الإدارة والموظفين من بين هذه الفئة، بل إنهم على الأكثر من ذلك كانوا يستعينون بشوكة هذه الفئة ينتفعون بها في سبيل المحافظة على الإستقرار في المدن والحضر ورعاية الثروة والمال - وذلك بإبقاء التجارة في مجراها وحماية المزارعين من غارات القبائل والبادية.

وفي مقابل ذلك كان العلماء والشرفاء على العموم يعاضدونهم. فالمصلحة بين الطرفين مشتركة، بل إن جميع ما جرى الإجماع عليه في تاريخ الإسلام في عهد متأخر (أو على الأقل في إجماع أهل السنة) يقوم على فكرة سياسية هي فكرة (هوبس) الإنكليزية – وخلاصة ذلك أن الحكومة خير من الفوضى. ومع هذا التوافق والتعاضد فإن الأمر في كثير من الأحيان لم يكن يخلو من توتر باطني بين رجال السيف، وهم مختلفون من حيث العرق عن رعاياهم، وليس عهدهم ببعيد عن حياة القبيلة وتماسكها، وبين رعاياهم من السكان المستقرين في الحضر من فرس وعرب. وكان في مستطاع اشراف المدن أن يعملوا شيئاً من الضغط على حكامهم: ففي أيديهم مفاتيح مشروعية الحكم، وفي مقدورهم أن يضفوا على حكم أحد السلاطين صبغة إسلامية أو إقراراً شرعياً؛ وكانت في أيديهم أيضاً أداة السياسة الحضرية في المدن، وكان في إستطاعتهم إلى حد ما كبح جماح الحركات الإحتجاجية أو الثورية او قمعها بين طبقات الصناع والعمال في الأحياء الشعبية. ومع ذلك فإن الميزان على العموم كان يرجح في مصلحة رجال السيف، ليس لأنهم أصحاب السيف، ولكن لأنهم في معظم الدول من هذا النوع أصحاب السلطة السياسية يشفعونها بسلطة إجتماعية. وكان السلطان مع قواده وعماله يتولون أمر الأقطاعات والأراضي، ويتسلمون الفائض من الريف والأراضي الزراعية، وتمكنوا بذلك من التحكم في المبادلات الإقتصادية بين المدينة والريف، وضبط موارد المواد الغذائية للجماهير في المدن والسيطرة على عمل أصحاب الصنائع. ولكن هذا الوضع أفاد أيضاً بطريق أخرى المدينة الحضرية، فقد كان من مصلحة رجال الطبقة العليا من أرباب الجيش وأرباب السياسة بصورة خاصة أن يحافظوا على المدينة وعلى ما وليها من الريف والأقاليم في حالة حسنة من الرخاء والاستقرار.

الدولة العثمانية من داخل الامبراطورية السلجوقية:

في هذا السياق ينبغي لنا أن ننظر نظرتنا إلى الأتراك العثمانيين، والدولة العثمانية في أطوارها الأولى كانت دولة من بين عدد من السلطنات التركية، وقامت هي من داخل الإمبراطورية التركية الكبيرة وهي الإمبراطورية السلجوقية على حدود **بيزنطية** حينما كان جسم هذه الإمبراطورية آخذاً في التفكك والإنحلال. وجرى حينئذ حادثان إثنان غيرا من طبيعتها. وكان الحادث الأول، وهو مشهور، الإستيلاء في سنة ١٤٥٣ على القسطنطينية التي أصبحت عاصمة السلطان الجديدة استانبول. وأصبحت دولة السلطان هذه منذ ذلك الوقت فما بعد إحدى الدول العظمى في الجزء الغربي من العالم الإسلامي. وكانت لها تجارة واسعة مع المدن الإيطالية، وأصبحت دولة بحرية في البحر الأبيض المتوسط، وبذلك كان لها إتصالات أوثق من إتصالات غيرها بأوروبا الغربية وأصبحت عاملاً في توازن القوى في القارة الأوروبية. وتغيرت كذلك طبيعتها. فقد اكتسبت لأول مرة باستيلائها على استانبول مدينة شعوبية مختلطة السكان من جميع الأجناس في العالم؛ ولم يعد المجتمع الذي تحكمه هذه الدولة مقتصراً على الوديان بين التلال والجبال وعلى القصبات أو البلدان المركزية؛ واحتاج بسبب ذلك كله إلى إدارة من نوع أكثر تشعباً وتعقداً من ذي قبل. ثم إن هذه الدولة باستيلائها على استانبول وبلاد البلقان قد احتوت على عدد كبير من السكان غير المسلمين، كالمسيحيين واليهود، وهذا بدوره أيضاً أسفر عن معضلات إدارية جديدة.

والحادث الثاني أقل شهرة من الحادث الأول ولكنه لا يقل عنه أهمية. ففي ١٥١٦ – ١٥١٧ اتجهت وجهة العثمانيين إلى الجنوب واحتلوا بلاد الدولة الكبيرة الأخرى في النصف الغربي من العالم الإسلامي، وهي دولة المماليك في مصر وإقليم سوريا. وتلا ذلك إحتلال إقليم الحجاز في غرب الجزيرة العربية، وفي ضمن ذلك مدينتا مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ ثم احتلوا العراق، وكان ينازعهم عليه مدة من الزمان ملوك الدولة الصفوية في إيران إلى أن توطد إحتلالهم له في ١٦٣٨؛ واحتلوا شمال إفريقية حتى الجزائر ولكن دون المغرب، واستعانوا على ذلك بقواتهم البحرية، لكي يحولوا دون أن يمدّ الكاثوليك بعد استعادتهم إسبانيا من العرب ايديهم إلى إفريقية.

فهذا التوسع في داخل البلاد العربية جعل من

العثمانيين أعظم الحكام في العالم الإسلامي إلى الغرب من إيران، ومكنهم من حيازة قوة بحرية تكون لهم في البحر الهندي كما في البحر الأبيض المتوسط. وأهم من ذلك بعد أن هذا التوسع قد جعل الحكومة العثمانية في تماس وثيق واحتكاك وشيك بأقدم حضارة إسلامية، عن طريق مدارس العلم العظيمة في القاهرة ودمشق وحلب، وبالمنبع الأصلي لعلوم أصول الدين وعلوم الشريعة، وبطبقة من طبقات المجتمع المدني تضيف إلى الدولة الإسلامية الجامعة ما لها من تقاليد خاصة بها في ميدان الزعامة الإجتماعية وفي إحداث توازن بين الحكومة من جهة والقوى الإجتماعية في الأمة من جهة أخرى. ولكن الأهم من هذا كله أن العثمانيين أصبحوا منذ ذلك الزمن فصاعداً حكام المدن المقدسة مثل القدس والمدن الشيعية الشريفة في العراق كالنجف وكربلاء والكاظمين ومكة المكرمة والمدينة المنورة وطرق الحج الكبرى المؤدية إلى هذه المدن جميعها. وكان الحجاج في كل سنة من مصر ومن شمال إفريقية يجتمعون في القاهرة، وكانوا من تركيا والقفقاس وسوريا والعراق وإيران يجتمعون في دمشق، ثم بعد ذلك يسيرون بقيادة المسؤولين في طريقهم إلى مكة المكرمة تحت الحماية. وكانت المدن المقدسة وسكانها في حاجة إلى الحماية والقوت، لا بد من توفيرهما لها، كما كان لا بد من المحافظة على سلامة الدين القويم الذي كان الحج شعاراً من شعائره.

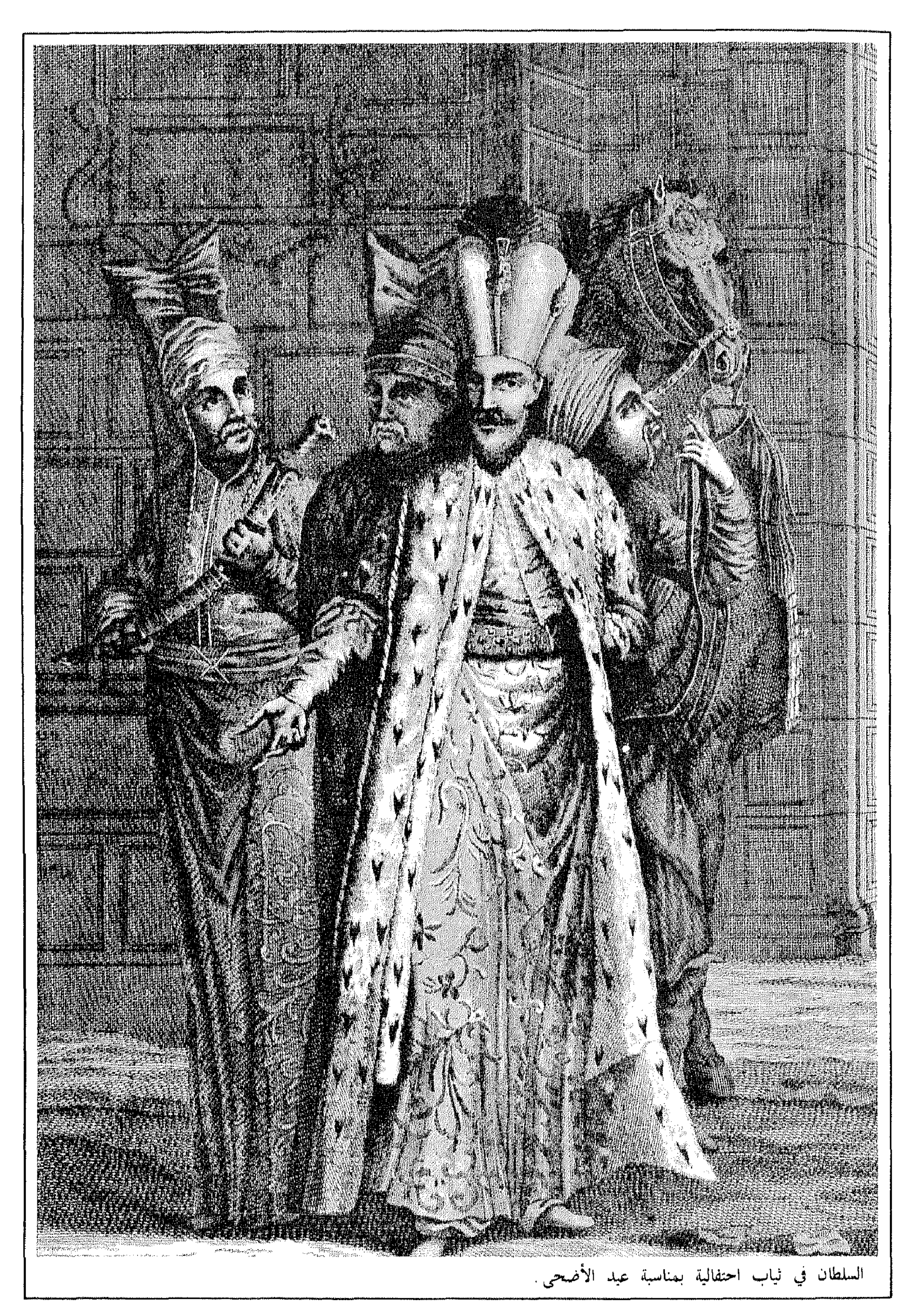
طبيعة الحكم:

وكانت الدولة العثمانية من هذا الحين حتى نهايتها تتميز بصفة لها مركبة من عوامل مختلفة. فهي أولاً كانت دولة من اسرة واحدة، يتركز الولاء فيها على أسرة آل عثمان، وليس على فرد معين من أفرادها، حيث تكون السيادة مطلوبة من الأسرة بأجمعها. وكانت ثانياً دولةً تركية من بعض الجهات ولو لم تكن من جهات أخرى. فالأسرة الحاكمة أسرة تركية تدعي الإنتماء في الأصل (ولو بدون مبرر كبير) إلى قبيلة أوغوز التي تحدر منها السلجوقيون أيضاً من قبل. وقد تتشبث بهذه الوحدة العرقية لتستهوي بها رجال القبائل الأتراك. وكانت في جميع أدوارها التاريخية تستعمل بعض الرموز والأساليب المستمدة من أصول قبلية تركية، كأذناب الخيل التي كانت علامة على الرتبة في الحكومة. وكانت لغة البلاط ولغة القيادة في الجيش ودوائر الحكومة اللغة التركية. (ولكن هذا لا يعني أنها تركية من حيث الإقتصار على عرق معين. فإن الشعور بالفروق بين العرب والفرس والأتراك الذين كانت شعوبهم تقوم بالعبء الأكبر في الحضارة الإسلامية كان شعوراً متفشياً في جميع التاريخ الإسلامي. ولكن هذه الفروق لم تكن تحدث تمييزاً عميقاً بحيث لا يبقى أثر للعامل المشترك الذي يجمع بين هذه الشعوب الثلاثة من ناحية إسلامية؛ ولذلك فإن التمييز في حاصل الأمر لم يكن إلا تمييزاً من حيث اللغة والثقافة أكثر من أن يكون من حيث العرق والجنس. فالموظف في خدمة السلطان العثماني لم يكن يعد نفسه بحكم الضرورة تركياً في أصله ولو أنه كان يستعمل اللغة التركية، والرعية من رعايا السلطان إذا لم يتكلم اللغة التركية لم يكن يعد نفسه حتى إلى أواخر سني الإمبراطورية العثمانية بأنه كان محجوباً عن جسم الدولة السياسي ومنفصلا عنه).

وكانت ثالثاً دولة إسلامية. وهذا لا يعني أن السلطان كان يرى نفسه أنه خليفة المسلمين، ولو أن العثمانيين كانوا في بعض الأحايين يستعملون لقب الخليفة؛ فإنهم كانوا يستعملونه بدون أن يقرنوا به معنى من المعنى التاريخي المعروف، وإنما إستعملوه بمعناه العام المتأخر لإطلاقه على أي سلطان يكون في مقدوره المحافظة على أوامر الدين وشرائعه. واستعملوا اللقب في بعض الأحيان رمزاً للإحترام والثناء في كلامهم عن الحكام المسلمين الآخرين، وحذفوه في بعض الأحيان الأخرى من ألقابهم الخاصة بهم. وإليكم على سبيل المثال جدولاً بالألقاب التي ورد ذكرها في مجموعة من المراسلات الدبلوماسية العثمانية:

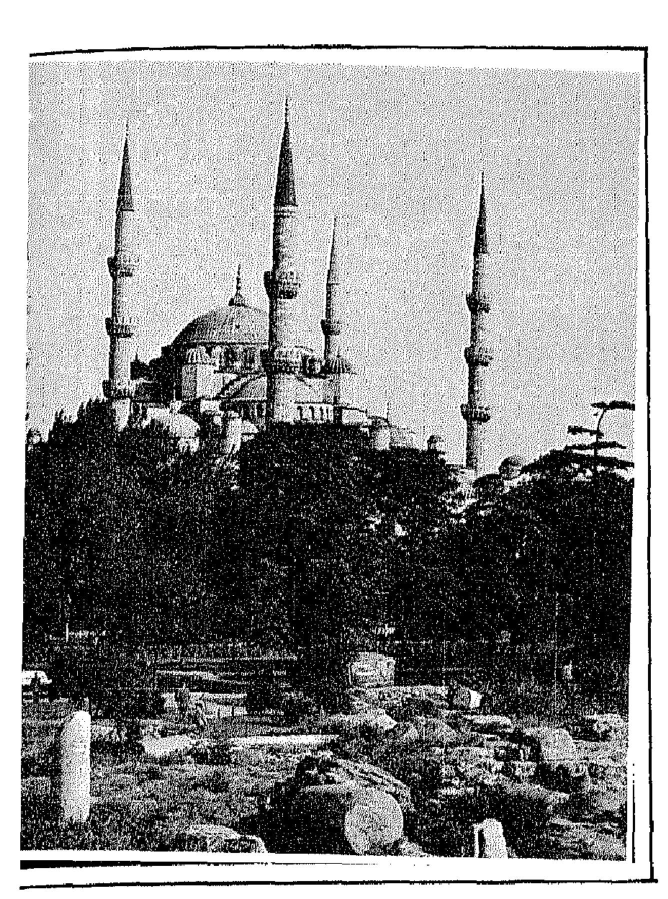
البادشاه الذي مجده في العلاء يباري السماء، ملك الملوك الذين هم نجومه، تاج رأس الملك، ظل المعطي؛ ذروة الملك؛ خلاصة كتاب حسن الحظ؛ حظ العدل المستوى؛ كمال المد الأعلى للجلالة؛ بحر الأحسان والإنسانية؛ معدن جواهر الكرم؛ منبع مآثر البسالة؛ كاتب العدالة على صحائف الزمان؛ سلطان البرين والبحرين، وخاقان المشرقين والمغربين وخادم الحرمين الشريفين[٦].

ونرى من هنا أن لقب الخليفة غير وارد في هذا



السلطان في ثياب احتفالية بمناسبة عيد الأضحى.

الذكر؛ بل إن السلطان العثماني لم يبدأ فعلاً إلا في القرن التاسع عشر في الإدعاء جدياً بالخلافة على جميع المسلمين، ليتخذ ذلك وسيلة يجتمع بها المسلمون في داخل الإمبراطورية وخارجها على تقديم العون والمساعدة وينذر بها الدول الأوروبية من عاقبة التجارؤ والتجاوز عليه بشدة فوق الحدّ المعقول. وكان المنوال الذي جرت عليه الدولة حتى ذلك الزمن هو المنوال الذي سبق أن وصفته وصفاً إجمالياً: كانت السلطنة دولة تحكم في نطاق الشريعة الإسلامية وتعكف على تحقيق أغراض الإسلام الكبرى. وكانت سنية المذهب عن شعور زاده حدة طول الصدام مع الدولة الصفوية التي كانت شيعية. وبفضل ما كان للأتراك من قريحة وحبّ للترتيب والوضوح، قامت الدولة العثمانية بتنظيم العلماء على شكل سلسلة من المراتب بدرجات معينة معلومة وبوظائف رسمية لها مرتبات تجري عليهم بانتظام. وكان رؤساء هذه المراتب الدينية، وهم شيوخ الإسلام وكبار شيوخ القضاء والإفتاء، يستشارون في شؤون الدولة العليا، وكان القضاة في الأقاليم السبيل الأكبر الذي كان يجري عن طريقه الاتصال والترابط بين الحكومة المركزية والرأي العام لمسلمي المدن الكبرى. وأولت الحكومة رعايتها وحمايتها للمدارس الإسلامية في المدن العربية وقامت هي من قبلها بتأسيس مدارس جديدة في استانبول لتخريج رجال الدين وملء المراكز العليا في الإدارات والمصالح الدينية. ومدّت الدولة أيضاً يد العون المالي إلى بعض الطرق الصوفية، أو على الأقل إلى الطرق الصوفية القويمة المذهب، وأحظتها بتفضيلها لها. ولكن الإمبراطورية العثمانية رابعاً كانت لا تزال دولة من نوع آخر، أي إمبراطورية عالمية جامعة متماسكة في إطار موحدّ من النظام والإدارة وبولاءٍ مفرد لأسرة حاكمة واحدة في مناطق مختلفة عديدة – البلقان وآسيا الصغرى وبلاد آسيا الغربية ومصر وساحل شمال إفريقية – وجماعات من أعراق متباينة – اليونان والصرب والبلغار والرومان والترك والعرب والكرد والأرمن – وطوائف دينية متغايرة – الروم الأرثوذكس والأرمن والأقباط والموارنة وغيرهم من المسيحيين واليهود من فرق غير واحدة – وأنظمة إجتماعية متفرقة – بين سكان المدن والفلاحين في السهول والوديان والقرويين في الجبال (كالألبانيين والأناضوليين الشرقيين والأكراد واللبنانيين) ورجال القبائل البدوية في السهب والصحراء. وفي معاملات

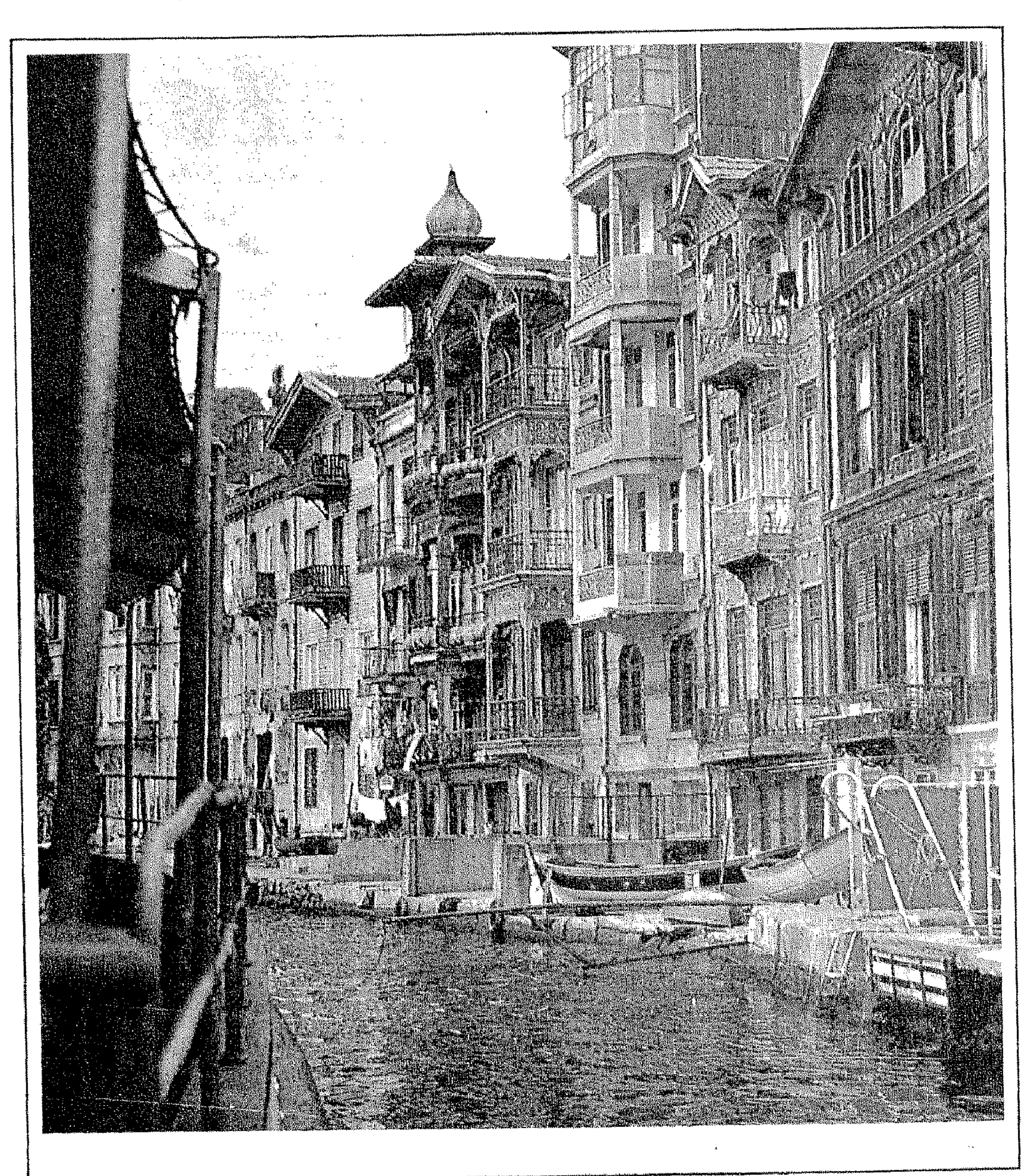


جامع السلطان أحمد في استانبول.

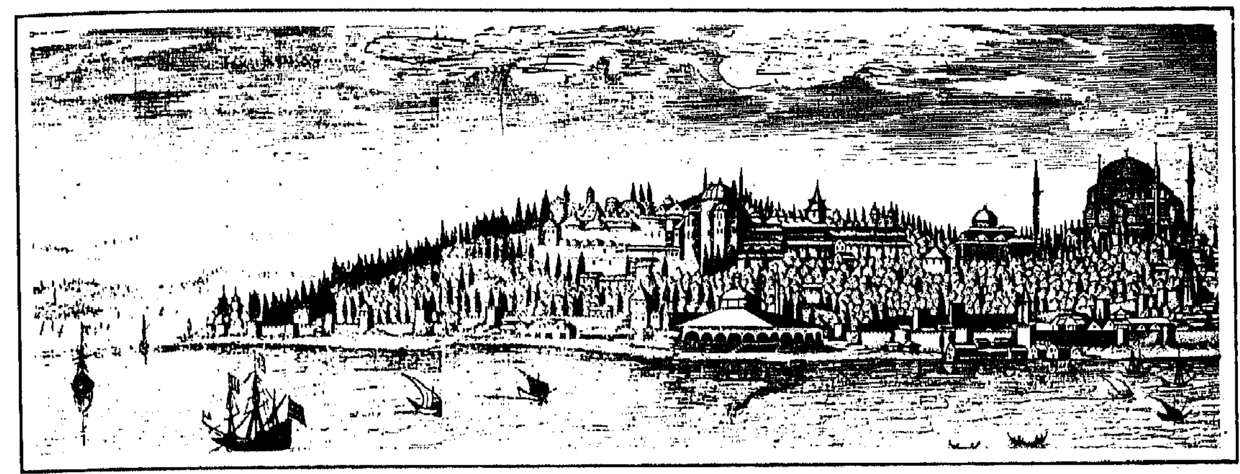
هذه الدولة مع هذه الجماعات والطوائف نراها تقترب من مثال للحكم كان شائعاً في العهد المتأخر من التاريخ الإسلامي، وهو مستمد من بعض الوجوه من رأي فارسي قديم عن الملكية، ومستمد من الوجوه الأخرى من فكرة أفلاطون (في كتابه القوانين وليس في كتاب الجمهورية) وهي المثال الأكمل للحاكم المستبد الذي يكون في معزل عن المجتمع المحكوم له ويكون غير مسؤول إلا أمام الله وأمام نفسه الخاصة به في أسمى حالاتها، وينظم طبقات ذلك المجتمع المختلفة بهدي من مبادئ العدالة حتى تتمكن كل طبقة منها من أن تسير بحسب طبيعتها الخاصة بها وأن تعيش في وفاق مع غيرها وأن تسهم بنصيبها من أجل الخير العام.

بحسب هذا المثال كانت السلطة النهائية المطلقة في يد السلطان، يعيش منعزلاً منزوياً في جوف بلاطه الملكي (الذي كان أكثر من قصر أو بلاط، بل كان مجموعة من البنايات المسورة أو مدينة داخلية)، يحيط به من أهل القصر جماعة متشعبة المراتب معقدة

التركيب ويحوطه جيش مدرب منظم وإدارة حكومية على جانب عظيم من حسن التنظيم والتأليف لتنفيذ إرادته. وكان في أوائل عهد الامبراطورية على الأقل تمييز واضح مأخوذ به؛ يفرق بين العسكر والرعية، أي بين أرباب السلطة ورعاياهم؛ ولم يكن الجيش وحده يختار أفراده من النصارى وليس من الأتراك أو المسلمين الآخرين، بل إن رجال القصر وموظفيه وكثيراً من كبار رجال الدولة كانوا يختارون على هذه الصورة، من البلقانيين أو القفقاسيين مثلاً، وكانوا يؤخذون أو يجندون وهم دون العشرين من العمر، ويدربون في المدارس العسكرية أو في القصر ويرسلون بعد ذلك للإنضمام إلى الجيش أو إلى القصر أو الحكومة. كان هؤلاء من المماليك بالمعنى الإسلامي للكلمة الذي لا يحوي بين طياته أي إشعار بالمهانة؛ وكانوا من الموالي الذين كانوا يتخلون عن كيانهم الشخصي ويدمجونه بكيان مولاهم، ولا يدينون بولاء



منظر سراية السلطان من جلاطا، استانبول.



إلى أحد إلا إليه، وبذلك يصبحون أعجز من أن يتبنوا لأنفسهم سلطة مستقلة تهدده بالخطر، وأموالهم عند موتهم تؤول إليه بالمصادرة.

وبحسب هذا المثال أيضاً حافظت الحكومة العثمانية على قوانين الملك المختلفة ومصطلحاتها العرفية وأولتها حماية الدولة ومساندتها. وفي المجموعات الخاصة بالقوانين الإدارية جرت هذه الحكومة على وضع نصوص للمصطلحات العرفية وإصلاح هذه المصطلحات في الأقاليم المختلفة من حيث الضريبة ومن حيث تملك الأراضي والتصرف بها. وعلى ذلك فإن الأمراء المحليين في وديان المناطق الجبلية كلبنان وكردستان انسجموا بحكم هذه القوانين مع النظام الإداري وأصبحوا بعد انسجامهم يعرفون بالحكام أو بأمراء الإقطاع أو بملتزمي جمع الضرائب في مقاطعاتهم الخاصة بهم. وما داموا مواظبين على تسليم الضرائب والإمتناع عن كل ما يحدث إضطراباً في سلامة الطرق التجارية فإن الاعتراف بحكمهم المحلي يكون مأموناً. وشبيه بهؤلاء شيوخ القبائل البدوية، كشيوخ قبائل الموالي في صحراء الشام؛ فقد كان هؤلاء ينصبون في مشيختهم وتدفع لهم الاعانات المالية بانتظام ما داموا يبقون الطرق التجارية مفتوحة في الصحراء.

ولكن السكان من غير المسلمين كانت لهم مشكلة أصعب من ذلك. فقد كان هؤلاء يؤلفون **جزءاً** كبيراً من سكان الإمبراطورية وكانوا يملكون جانباً كبيراً من الثروة فيها. وهنا يتبدى لنا مرة أخرى استعمال العثمانيين لمقدرتهم الموروثة في التنظيم وفي وضع العادات المتعارفة من زمن بعيد في الدول الإسلامية في قالب منطقي رسمي. فبعد احتلال القسطنطينية صار بطريرك الروم الأرثوذكس في المدينة معترفاً به رسمياً بأنه رئيس جميع النصارى الروم الشرقيين في الإمبراطورية وصار للأرمن الأرثوذكس بطريرك أرمني، وصار لليهود حاخام أكبر. ولم يكن هؤلاء مجرد رؤساء روحيين بل كانوا رؤوساء مدنيين أيضاً. وكانت أحكام هؤلاء تلقى تأييد السلطة الحكومية؛ وكانوا مسؤولين أمام الحكومة عن حسن سلوك رعاياهم وطاعتهم للدولة، وعن جمع **الجزية** التي كانت مفروضة على غير المسلمين؛ وكانت لهذه الملل في مقابل ذلك حرية العبادة وقدر كبير من التسامح والرعاية. (ولا يزال هذا النوع من الجمع بين السلطة الدينية والمدنية موجوداً في أماكن كان يحكمها الأتراك، مثل قبرص حيث رئيس أساقفة الروم هو رئيس الملة أو الأمة، ولذلك بحكم مركزه هذا أصبح زعيم الحركة الوطنية أولاً ثم رئيس الجمهورية ثانياً).

المراجع

1 — J.J. Rousseau, Du contrat social, Book IV, chapter 8.
2 — (J.H. Newman), Lectures on the History of the Turks (Dublin, 1854), P. 105.
3 — B. Lewis, The Arabs in History (revised edition, London 1958) P. 147
4 — R.M. Adams, Land behind Baghdad (Chicago, 1965).
5 — B. Lewis, "The Mongols, the Turks and the Muslim Polity" in Transactions of the Royal Historical Society, 5th series, Vol. 18(1968), P. 64
6 — T.W. Arnold, The Caliphate (new edition, London, 1965), P. 203.

التطوير التوثيقي

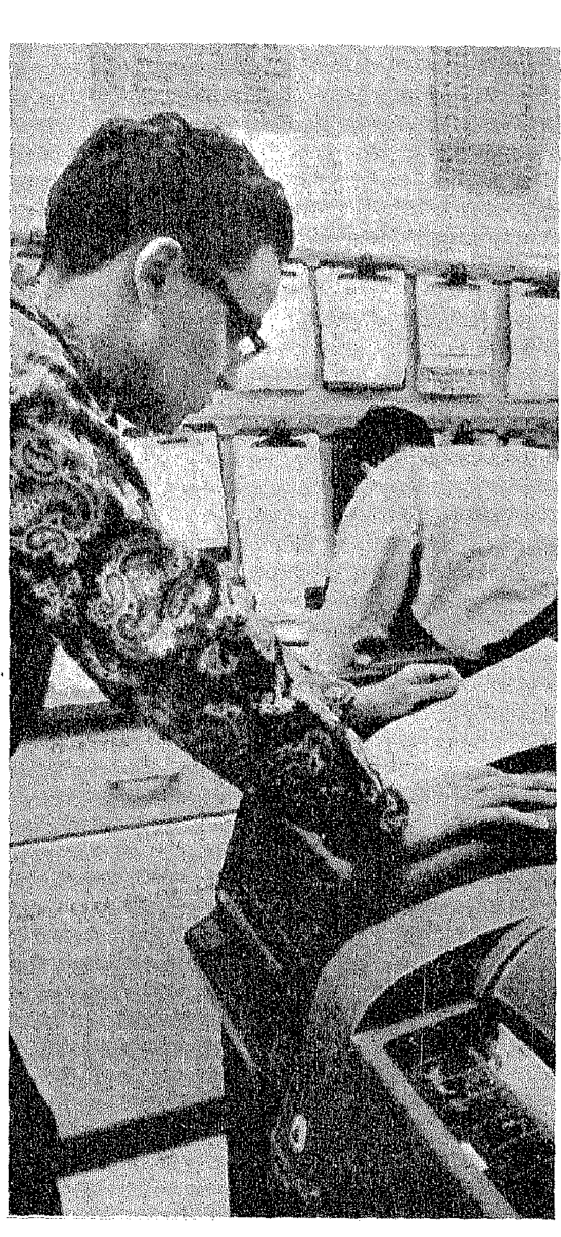
أهداف مراكز التوثيق ووسائل تحقيقها

بقلم الدكتور سمير سبيكه

نكتفي هنا بالقسم الأول من
نص محاضرة ألقاها الدكتور
في كلية الأعلام والتوثيق
اللبنانية) بتاريخ ١٠/٥/٧٩.

● من الأمور التي لم تعد تقبل الكثير من الجدل ان الاعلام، بمفهومه الواسع، أضحى في عصرنا الحاضر وسيلة من الوسائل المباشرة التي تهيء للمجتمع أسباب النجاح والتقدم وذلك في جميع مراحل تطوره وإزدهاره. وهذا ما حدا المؤتمر العام لمنظمة الأونسكو، في دورته الثامنة عشرة في خريف عام ١٩٧٤، على اتخاذ قرار يدعو بموجبه الدول الأعضاء إلى اتخاذ التدابير الملائمة لانشاء نظام وطني للاعلام تراعي فيه الحاجات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لكل بلد والسعي الدائب لتطوير هذا النظام والبنيات الأساسية التي يتألف منها، وأبرزها مراكز التوثيق وأجهزة المحفوظات والمكتبات بالاضافة إلى مختلف وسائل الأعلام المعروفة.

وقد أكد القرار ضرورة لحظ خطة تنمية النظام الوطني للاعلام في خطط التنمية العامة لكل بلد باعتبارها جزءاً أساسياً من الخطة العامة وبدونها لا تكتمل أية خطة للتنمية. وقد لاحظ المؤتمر العام للأونسكو ان كثيراً من الدول والمجتمعات لا تستثمر المعلومات الثمينة المتوافرة لديها بالشكل الأفضل وانما تتركها مخزنة في مستودعاتها دونما استعمال مفيد وأحياناً تهمل حفظها أو تحفظها بطريقة بدائية لا توفر لها امكانية البقاء أو الاستعمال والاستثمار. وغالباً ما يعود السبب في ذلك إلى جهل المسؤولين عن هذا القطاع لأهمية المصادر الوثائقية في تحقيق أهداف التنمية أو لعدم معرفتهم بالخدمات التي يمكنهم الحصول عليها من هذه المصادر. وليس غريباً أن نسمع، بعد أقل من شهرين من صدور هذا القرار، ما أعلنه الرئيس ليوبولد سنغور، رئيس جمهورية السنغال، في الرسالة التي وجهها إلى المؤتمر الدولي لتطوير محفوظات دول العالم الثالث الذي انعقد في مدينة داكار في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥، ان «التنظيم والأسلوب العلمي هما عنصران أساسيان للاستفادة من التراث الحضاري، وان المصادر الوثائقية تصبح، متى جرى تنظيمها بصورة علمية صحيحة، اداة ثمينة بيد الدولة للاستفادة منها في جميع المجالات وخاصة في مجال التنمية». وقد أكّد الرئيس سنغور في نهاية رسالته أن الواجب يقضي «بعد أن تحررنا من نير الاستعمار، وبحكم مستلزمات التنمية، أن نأخذ بعين الاعتبار أهمية الدور الذي يمكن أن تحققه المحفوظات والوثائق في عملية انماء مجتمعاتنا


آلات حديثة لتنظيم وسائل الاعلام وتسهيل نقل المعلومات

* من مواليد طرابلس (لبنان) ١٩٣٥ دكتور دولة في الحقوق. استاذ محاضر في الحقوق (الجامعة اليسوعية)، أستاذ التوثيق في كلية الاعلام والتوثيق (الجامعة اللبنانية). أمين عام مجلس الوزراء، حالياً، وممثل الدولة في مجلس البحوث العلمية.

ودولنا» ولا ننسى، في هذا المجال، أن نشير إلى ما أكّده العالم برنال سنة ١٩٤٥ عندما قال بثقة وإيمان: «لقد بلغ العلم درجة من وحدة الأهداف وتعقيد الأساليب ما جعل من أجهزة التوثيق والمعلومات مفتاح العبور إلى أي تطور في جبهة المعرفة».

وإذا كانت الدولة المتقدمة قد وعت هذه الحقيقة منذ أواخر القرن الثامن عشر، فان الدولة النامية، منذ حصولها على استقلالها وتحسسها بمسؤولياتها الأساسية في حقل الانماء والعمران، بدأت تدرك شيئاً فشيئاً، وان بدرجات متفاوتة، أهمية الدور الذي يجب أن تعطيه لأجهزة الاعلام والتوثيق. فالتقدم السريع للمعارف العلمية والتقنية وطرق استعمالها واستثمارها بالاضافة إلى التداخل والترابط بين العلم والتكنولوجيا، يدعو في عصرنا الحاضر، إلى الاعتقاد بأنه ما من بلد في العالم الحديث يستطيع الاستغناء، من أجل تقدمه وازدهاره، عن وضع خطط شاملة ومتكاملة للتنمية، وانطلاقاً من هذه القناعة اعتمدت معظم الدول المتقدمة، ان لم نقل جميعها، أجهزة أو هيئات متخصصة لوضع الخطط الاجمالية والتفصيلية للانماء الكامل والشامل في جميع الميادين والمرافق. وقد قامت هذه الأجهزة والهيئات بالمهام الموكولة إليها انطلاقاً من مبدأ أساسي يقول بأن التخطيط لا يمكن أن يوضع بصورة علمية إلا إذا استند إلى معلومات صادقة ودقيقة تصبح مرتكزاً لتحديد الحاجات الآنية والمستقبلية، ولمسح الامكانات والطاقات والموارد المتوافرة أو التي يمكن توفيرها لتلبية هذه الحاجات، ولإقرار أساليب العمل الممكن اعتمادها في ضوء التجارب التي قامت بها دول أخرى والنتائج التي توصلت إليها. وعلى هذا يمكننا القول بأن كل بحث حول تخطيط التنمية في أي بلد كان يبقى عقيماً أو ناقصاً إذا لم يسبقه أو لم يرافقه، على الأقل، تخطيط متوازن لتنمية الأجهزة والمراكز المتخصصة التي يفترض فيها تقديم المعلومات اللازمة لوضع خطط التنمية الشاملة. ومن الشروط الأولية التي يجب مراعاتها، عند انشاء أجهزة المعلومات، ان تنظم هذه الأجهزة تنظيماً علمياً يجعلها ممكنة الاستعمال بأفضل الشروط. ومن هنا يبدأ حديثنا عن التطوير التوثيقي أو تطوير مراكز التوثيق ووسائل عملها. ولا بد، من أجل معالجة هذا الموضوع، من التطرق إلى بحثين متكاملين: البحث الأول يتناول تحديد الأهداف والمهام التي يطلب من مراكز التوثيق ان تحققها، والبحث الثاني يتناول الخطط والوسائل التي يمكن اعتمادها لتطوير المراكز التوثيقية وتمكينها من تحقيق أهدافها والقيام بمهامها.

البحث الأول:

أهداف مراكز التوثيق ومهامها:

إن المجتمع الدولي يسعى جاهداً إلى اعتماد الوسائل التي تزيد من تقارب الشعوب والأمم وتبادل المعلومات والنتاج الفكري واختراق الحواجز الجغرافية والمسافات. وليس أدل على ذلك من انتشار وسائل الاعلام المختلفة وتطورها المستمر السريع بحيث يمكن القول بأن هناك «صناعة للاعلام» ترتكز على تقنيات حديثة لنقل المعارف ونشرها بأسهل السبل وبأسرع الوسائل وبأقل التكاليف. وإذا كانت هذه الصناعة ترمي، من جهة، إلى نشر المعرفة أفقياً بالسرعة الممكنة وبالطريقة التي تصل إلى جمهرة من الناس في المنزل أو الفندق أو المكتب أو الشارع أو المعمل أو المقهى، وذلك عن طريق الاذاعة والتلفزيون والصحف ووسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية، فانها ترمي، من جهة أخرى، إلى نقل المعرفة عمودياً وفي العمق إلى النخبة من الباحثين والعلماء وأصحاب الاختصاص من أجل أهداف واضحة ومحددة تعتمد على البحث والتحليل والاستنباط. ويقوم بهذا الدور مراكز البحث وأجهزة التوثيق التي يمكنها، أن أحسن تخطيطها وتنظم عملها، ان تحقق أهدافاً عديدة أبرزها اثنان: التخطيط لتكوين مجتمع مطلع، وتنمية الوعي العام لادراك أهمية التوثيق.

الهدف الأول:

التخطيط لتكوين مجتمع مطلع:

قد يكون من أبرز المهام التي يرتجى تحقيقها من مراكز التوثيق المساهمة في التخطيط الهادف إلى تكوين مجتمع مطلع يعرف ماضيه وحاضره، ويدرك حاجاته ومشكلاته وأفضل الحلول لها، ويعد لتأمين مستقبل يحافظ فيه على تراثه ويضيف إليه ما يمكن أن ينميه ويطوره، من أجل ذلك تسعى مراكز التوثيق إلى ايصال المعلومات والمعارف إلى المؤسسات والهيئات

والأفراد التي يتألف منها المجتمع كل وفقاً لما يحتاجه منها كمّاً ونوعاً. ويبرز دور مراكز التوثيق، بصورة خاصة، في الفائدة التي يمكن أن تقدمها للادارة والمؤسسات، العامة منها والخاصة، في تحقيق أهدافها المختلفة ولا سيما في وضع خطط التنمية الاقتصادية منها والاجتماعية والثقافية والعلمية.

١ - التوثيق والادارة :

الادارة هي الادارة الرئيسية للاختيارات السياسية وعليها أن توفر للسلطة السياسية المعلومات اللازمة التي تمكنها من اتخاذ أفضل القرارات.

ولكي تتمكن الادارة من الاضطلاع بهذه الوظيفة لا بد لها من جمع المعلومات الكاملة عن سير عملية الأجهزة الحكومية وعن علاقات الادارة بالمواطنين وعن الحاجات الحاضرة والمستقبلية وعن الوسائل الكفيلة بتلبية هذه الحاجات. ولا يجوز للادارة أن تحتفظ بالمعلومات التي تجمعها في السجلات أو الملفات أو الجوارير، بل عليها أن تضعها، بعد جمعها وتنسيقها وتحليلها، بتصرف المسؤولين وأصحاب السلطة في اتخاذ القرارات. ويذهب بعض المجتهدين إلى القول بأنه يتوجب على الادارة أيضاً أن تضع هذه المعلومات بتصرف المواطنين حتى يكونوا على علم بالأوضاع وحتى تترسخ العلاقة بين الدولة والمواطنين وحتى يزيد التفاهم والتعاون بين الحاكم والمحكوم. وفي الواقع غالباً ما تكون السلطة السياسية منهمكة بالأحداث الجارية، فينبغي على الادارة، وهي التي تشكل بطبيعتها ذاكرة المجتمع، أن تقوم بتأمين الصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل، وفي حين كان دور الادارة، في الماضي، يقتصر على تسيير الشؤون اليومية وتصريفها وعلى حل المشكلات التي تواجهها بصورة عفوية ووفقاً للتوجيهات العامة التي تتلقاها من السلطة السياسية، أصبح هذا الدور يتعاظم يوماً بعد يوم مع تطور المفهوم الحديث للادارة. وقد أدّى تنوع وتشابك المشكلات المطروحة على الادارة، وخاصة في البلدان النامية، إلى تجسيد فكرة التخطيط العلمي المبني على قواعد البحث والترقب والتبصر.

والأدارة، بالنظر لدور الوسيط الذي أصبحت تقوم به لدى السلطة السياسية في اختيار قراراتها، يجب أن يكون لديها الأطر المتخصصة بالتوثيق حتى تستطيع تقديم المعلومات والمعارف اللازمة لاتخاذ القرارات السياسية، وقد يصل الدور الذي يمكن للادارة أن تقوم به، استناداً إلى المعلومات التي تتوافر لديها، إلى واجب أخذ المبادرة في حث السلطة السياسية على اتخاذ القرارات أو تعديلها وفقاً لتطور الحاجات وتلبيتها.

٢ - التوثيق والتنمية :

ان التطور الكبير الذي سجله العالم في حقول العلم والصناعة، وخاصة منذ القرن التاسع عشر، يعود إلى حد كبير، إلى تبادل المعلومات العلمية والمعارف التقنية بين المجتمعات العلمية والصناعية. ولقد أدى هذا التبادل إلى تحقيق المزيد من الاكتشافات والنظريات وإلى نقل المعرفة وأساليب العمل من مجتمع إلى آخر، وإلى نقد النتائج العلمية من قبل العلماء وإلى التحضير التدريجي لنظريات جديدة. ومما لا شك فيه أن تقدم المعرفة هو ثمرة تبادل المعلومات بين العلماء والباحثين من مختلف الجنسيات واللغات والحضارات. وقد أدى انتشار أسلوب البحث والتوثيق إلى تحقيق وسائل التنمية في الدول المتقدمة وهو ما يجب أن تستوحيه الدول النامية وان تعمل بموجبه بما يتناسب مع حاجاتها وأوضاعها.

ولقد أصبح من الأمور البديهية، اليوم، ان الصناعي والتاجر والمزارع وكل عامل في حقل الانتاج لا يمكنه أن يستمر في نجاحه وتقدمه ان لم يظل بصورة مستمرة على علم بأوضاع عمله ومستجداته وعلى صلة وثيقة بالأساليب والوسائل الحديثة التي يمكن إدخالها في نشاط عمله. وعندما يقرر، أي واحد من هؤلاء، أن يطور عمله وانتاجه لا بد له من الاطلاع على المعلومات المتعلقة بالاختبارات والتجارب التي أجريت حول النشاطات المشابهة لنوع عمله، سواء على الصعيد الوطني أم على الصعيد الدولي، والاستفادة قدر الامكان من نتائج هذه الأختبارات، سلبية كانت أم إيجابية. والعالم يشهد، اليوم، في معظم الدول المتقدمة، اهتماماً متزايداً بمراكز التوثيق المتخصصة، في المعامل والمصانع والشركات والمؤسسات، التي تقدم للباحثين والعاملين جميع ما يحتاجون إليه من دراسات وتقارير واحصاءات ومعلومات تساعدهم على حل مشاكلهم وتطوير

أساليب عملهم، وتمكنهم من الأعداد لخطط انمائية شاملة وتفصيلية.

٣ — التوثيق والبحث التاريخي:

البحث التاريخي قابل للتوسع بوسائل مختلفة. ومن البديهي أن أبرز هذه الوسائل مراكز المعرفة والتوثيق التي تمكن الباحث من الاطلاع على شتى مصادر البحث التي تغذي تحقيقاته بالتوجيهات الأولية وبالمعلومات اللازمة عن الدراسات والمؤلفات المتعلقة بالموضوع الذي يبحث فيه. ومراكز التوثيق لا تهدف، فقط، إلى تقديم المساعدة للباحث، وإنما تقوم بنشر المنجزات التاريخية ساعية من وراء ذلك إلى خلق جو من التعاطف الانساني وإلى تقوية الرغبة في مزيد من المعرفة لدى مختلف طبقات المجتمع لتعيش بكاملها ماضيها الوطني.

وقد اعترف العالم، اليوم، بالدور الكبير الذي تلعبه المحفوظات الوطنية وامناؤها كمخبرين ومرشدين في مختلف فروع البحث أو الاعلام التاريخي. ففي فرنسا انشئت عام ١٨١٢ مصلحة خاصة في الدار الوطنية للمحفوظات تعرف بمصلحة الاستعلامات وهي عبارة عن مكتب للاستقبال ومركز للبحوث الاعلامية. وقد استطاعت هذه المصلحة أن تؤمن منذ انشائها حتى سنة ١٩٥٢ المعلومات اللازمة لوضع حوالي ٥٨٣٠٠ بحثاً مختلفاً. وقد أصبح المعدل السنوي للأبحاث، التي توضع بفضل تسهيلات هذه المصلحة، حوالي/٥٠٠٠/بحث، أما في الولايات المتحدة الأميركية فان ادارة المحفوظات الوطنية التي انشئت عام ١٩٣٥ زودت، منذ البداية، بادارة للاستعلامات مهمتها إرشاد الباحثين والادارات وتزويدهم بالمعلومات المطلوبة. وقد نجح هذا المركز نجاحاً عظيماً منذ السنوات الأولى لانشائه، وقد سجل في سنة واحدة (عام ١٩٥١) ٧٨٠٠٠/طلب معلومات.

وتجربة الاتحاد السوفياتي، في هذا المجال، لا تقل أهمية عن التجارب التي ذكرنا، فمحفوظات الاتحاد السوفياتي مزودة بتوثيق مهم. وهي تحوي جدولاً عاماً بالوثائق المودعة لدى مختلف دور محفوظات الاتحاد. وحتى مطلع عام ١٩٥٢ انجزت ادارة المحفوظات السوفياتية وضع دليل بأكثر من ٨٨٪ من المحفوظات ويشمل هذا الدليل حوالي ٩٦ مليون موضوع.

أما لبنان فان الوثائق المتعلقة بتاريخه وحياته السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية موجودة ومتوافرة، غير انها مجمعة أو مبعثرة هنا وهناك في محفوظات الادارة العامة تارة وفي المحفوظات الخاصة أو محفوظات الدول الأجنبية تارة أخرى. ولا بد من جهد كبير وخطة عمل شاملة من أجل رصد هذه الوثائق وجمعها وترميمها وتصنيفها ونشرها.

الهدف الثاني:

تنمية الوعي العام لادراك أهمية التوثيق:

إن حفظ المصادر الوثائقية ليس غاية في حد ذاته وانما هو وسيلة يقصد باستعمالها حسن الاستفادة من المعلومات التي توفرها هذه المصادر عن طريق المراجعة والتحليل والاستثمار. أما إذا بقيت المصادر الوثائقية في المستودعات دون استعمال فانها تصبح مادة جامدة لا فائدة منها وتتعطل نتيجة لذلك الغاية من كل تشريع أو تنظيم لها.

ولكي يعتاد المجتمع على حب الاطلاع والمراجعة والتحليل لا بد من إنماء هذه الملكة في نفوس المواطنين وذلك إما بتعليم حسن استعمال المصادر الوثائقية بدءاً بمرحلة التعليم الأولى حتى المرحلة الجامعية، وإما بتشجيع عادة المطالعة وحب البحث بشتى الوسائل الممكنة.

ولا بد هنا من أن نشير إلى أن المؤسسات التعليمية في الدول المتقدمة اتخذت، منذ مطلع القرن الحالي، التدابير اللازمة لكي تدخل في مناهجها التعليمية مادة التعليم المنتظم لكيفية استعمال المصادر الوثائقية وذلك بالرجوع إلى المكتبات ودور المحفوظات ومراكز التوثيق. أما على الصعيد الجامعي فان المناهج تلحظ دروساً اختبارية وتجريبية أو تطبيقية بالاضافة إلى الدروس النظرية، فتفرض على الطالب مراجعة الكتب والمؤلفات ومختلف المصادر الوثائقية حتى يزداد تعمقاً في فهم مادة اختصاصه. ولا يمكن لذلك أن يتحقق بالطبع إلا إذا توفر للجامعات والكليات مكتبات متخصصة كاملة الأعداد والتنظيم. وبالاضافة



الكمبيوتر، لاختصار وتجميع وتنظيم عطاء المعلومات في الدول المتحضرة.

إلى ذلك أصبحت هناك كليات متخصصة لتدريس علوم المحفوظات والوثائق والمكتبات وتخريج الاختصاصيين في هذه الفروع لاستلام وادارة المكتبات وادارة المحفوظات ومراكز التوثيق.

البحث الثاني:
التخطيط اللازم لتحقيق التطور التوثيقي

خلال النصف الثاني من القرن الحالي، أصبح من المتفق عليه أن الأعلام، بمفهومه العام ووسائله المختلفة، يشكل عنصراً أساسياً من مواردنا الطبيعية وان ولوج باب المعرفة هو حق أساسي من حقوق الانسان. ومن هذا المنطلق قامت منظمة الأونسكو، خلال السنوات الأخيرة، بتنظيم سلسلة من اجتماعات الخبراء عقدت في كل من أميركا الجنوبية (في كيتو – اكوادور من ٧ إلى ١٤ شباط – فبراير ١٩٦٦) وآسيا (كولومبو – سريلانكا من ١١ إلى ١٩ كانون الأول – ديسمبر ١٩٦٧) وأفريقيا (كمبالا – أوغندا من ٧ إلى ١٥ كانون الأول – ديسمبر ١٩٧٠) والبلدان العربية (القاهرة من ١١ إلى ١٧ شباط – فبراير ١٩٧٤) وباريس (من ٤ إلى ٦ كانون الأول – ديسمبر ١٩٧٢، ومن ٢٨ إلى ٣٠ أيار – مايو ١٩٧٣) لبحث تخطيط البنيات الأساسية للاعلام وخاصة المكتبات وأجهزة التوثيق والمحفوظات. ونتيجة لهذه الدراسات اعتبرت منظمة الأونسكو ان أجهزة التوثيق والمحفوظات والمكتبات هي أجهزة تقوم بأدوار متكاملة وهي تشكل بمجموعها «جزءاً لا يتجزأ من البنيات الأساسية الوطنية للتواصل من أجل التنمية». ولهذه الغاية اتخذ المؤتمر العام للأونسكو في دورة ١٩٧٢ قراراً كلف بموجبه المدير العام للمنظمة «عقد مؤتمر حكومي حول التخطيط الشامل للبنيات الأساسية لأجهزة التوثيق والمحفوظات والمكتبات»، يسهم فيه كل من الاتحاد الدولي للتوثيق (FID) والاتحاد الدولي لجمعيات أمناء المكتبات (FIAB) والمجلس الدولي للمحفوظات (CIA) مهمته صياغة المفاهيم العامة المنبثقة عن الاجتماعات الأقليمية للخبراء، الوارد ذكرها أعلاه، ووضع التوجيهات التي تساعد على تطوير أجهزة التوثيق والمحفوظات والمكتبات

ووضع خطط وطنية للأعلام. وقد عقد المؤتمر المذكور في مقر الأونسكو في باريس من ٢٣ إلى ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤، وتمثل فيه لبنان. وقد كان من أبرز ما بحث في هذا المؤتمر المواضيع التالية: التخطيط المتكامل للبنيات الأساسية الوطنية في مجال التوثيق والمكتبات والمحفوظات، تنظيم تطبيق التكنولوجيا على أجهزة التوثيق والمكتبات والمحفوظات، وضع نظام عالمي للبيبليوغرافيا، وتحديد دور منظمة الأونسكو في هذه النشاطات. وخلال الاجتماعات التي عقدها المؤتمر جرى الاقرار بأن تسهيل إطراد التنمية بصورة عامة يستلزم تخطيطاً أساسياً لانماء موارد المعرفة وأن أجهزة التوثيق والمكتبات والمحفوظات لا يجوز اعتبارها، وهي مصدر رئيسي للمعرفة، وحدات مستقلة تعمل الواحدة منها بمعزل عن الأخرى، وإنما يجب البحث في تطويرها على أساس أنها عناصر متعددة لمجموعة من النشاطات الغاية منها تسهيل الوصول إلى المعرفة وتأمين التواصل الاعلامي.

ولعل أهم ما أقره المؤتمر يعود إلى التوصية المتعلقة بدعوة الدول إلى اقامة نظام وطني للاعلام وتطوير هذا النظام، بصورة مستمرة، بما يتناسب مع الحاجات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لكل بلد. وهذا ما أقره المؤتمر العام لمنظمة الأونسكو في دورته الثامنة عشرة في خريف ١٩٧٤ بعد أن ثبت لديه «انه في مناطق عديدة من العالم هناك عدم توازن في توزيع الموارد التي تمهد لبلوغ التواصل الإعلامي في جميع مجالات المعرفة». وقد ركز المؤتمر على لفت نظر جميع الدول الأعضاء والمنظمات الحكومية وغير الحكومية إلى أهمية الاعلام «هذا الأساس لرقي الحضارات والمجتمعات والذي بفضله يمكن تحسين التفهم والتعاون بين الشعوب».

من هذا المنطلق نعتبر أن البحث في التخطيط من أجل التطور التوثيقي لا يمكن أن يكون كاملاً إذا لم يتناول، في آن، أجهزة التوثيق والمحفوظات والمكتبات، باعتبارها من البنيات الأساسية لأي نظام وطني للاعلام قد يعتمد. وهذا ما يستدعي بالضرورة أن نضع أمام أعيننا اعتبارين أساسيين لوضع خطة تنمية وتطوير هذه البنيات:

– الاعتبار الأول هو أن هذه الخطة يجب أن تتناسب مع المهام والأهداف التي يطلب من أجهزة التوثيق والمحفوظات والمكتبات أن تقوم بها.

– والاعتبار الثاني هو أن تخطيط البنيات الأساسية للنظام الوطني للاعلام يفترض وضع خطط التنمية العائدة لكل من هذه البنيات الأساسية في ضوء خطة شاملة متناسقة تهدف إلى تحقيق أغراض النظام الوطني للاعلام بحيث تقوم كل واحدة من البنيات الأساسية بدور هام قد يبدو لأول وهلة بأنه مستقل وخاص ولكنه في الواقع دور متمم لأدوار البنيات الأخرى ومتكامل معها بالتعاون والتفاعل.

ولبلوغ هذه الغاية لا بد لعملية التخطيط من أن تتناول الأمور التالية:

١ – وضع خطط تفصيلية لتنمية كل من البنيات الأساسية للنظام الوطني للاعلام بما في ذلك أجهزة التوثيق والمكتبات والمحفوظات.

٢ – تنسيق الخطط التفصيلية في إطار الخطة الانمائية العامة للنظام الوطني للاعلام.

٣ – إدخال الخطة الانمائية العامة والخطط التفصيلية في الخطة الشاملة والقطاعية للانماء العام.

٤ – مراعاة الأهداف الدولية للنظم الاعلامية العالمية حتى يتأمن التنسيق المتكامل بين النظام الوطني للاعلام والأنظمة الدولية الاعلامية.

وضمن هذا الاطار العام ومع مراعاة القواعد الأساسية للتخطيط، لا بد لنا في لبنان، البلد النامي وملتقى الحضارات، من أن نبادر إلى وضع خطة لتنمية وتطوير مختلف البيئات الأساسية للاعلام في ضوء خطة شاملة للتنمية، تراعي المبادئ التالية:

١ – يجب أن تكون بنية النظام على أكبر قدر ممكن من المرونة، حتى يسهل في المستقبل تعديلها أو تطويرها في ضوء تطور الحاجات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٢ – يجب أن تستثمر الموارد الطبيعية إلى أقصى حد وأن يتأمن أكبر قدر ممكن من التنسيق والتعاون بين مختلف أجهزة الاعلام.

وأما بالنسبة إلى مراكز التوثيق، على وجه التحديد، فان الخطة تستوجب التركيز، بصورة خاصة، على تنمية وتطوير أجهزة التوثيق القائمة حالياً وعلى انشاء مراكز توثيق جديدة تقتضيها حاجة الانماء والتطور العام في البلاد ●

هيمنة البابوية على غرب أوروبا في القرون الوسطى

الدكتور محمد مخزوم*

مشهد يتوسّل فيه «الهراطقة» بعدم احراق زعيمهم في عهد فيليب اوغست ملك فرنسا.



● تميزت عملية انتشار التعاليم المسيحية في المجتمع الأوروبي ببطئها الشديد ومع ذلك فقد احدثت ثورة حقيقية داخل المجتمع الوثني. وبرز التباين أكثر حدة بينها وبين النظم والتقاليد التي كانت سائدة في الامبراطورية الرومانية. فالدعوة إلى المحبة والسلم ونبذ عبادة الأوثان وعدم الاعتراف بتأليه الامبراطور ورفض الخدمة في الجيش شكلت تهديداً مباشراً لأسس الدولة والطبقة الممتازة الحاكمة، وخطراً عظيماً على الجهاز العسكري.

ورغم الاضطهاد الشديد الذي مارسه الاباطرة والحكام على المسيحيين الأوائل فقد استمرت الدعوة في الانتشار بل زادها الاضطهاد اندفاعاً لكون الشهادة بنظر المسيحيين طريقاً يوصل إلى دنيا الخلود.

وهكذا استطاع المسيحيون، بفعل الايمان الديني، بعد مرور قرنين وربع القرن من النضال العنيد المستميت، انتزاع صك الاعتراف بهم، من قبل الاباطرة، كقوة ضمن الامبراطورية الرومانية، لا يمكن تجاهلها.

ولهذا فإن الجهاز السياسي في الامبراطورية الرومانية المتمثل بسلطة الامبراطور قد أقام بعد

---

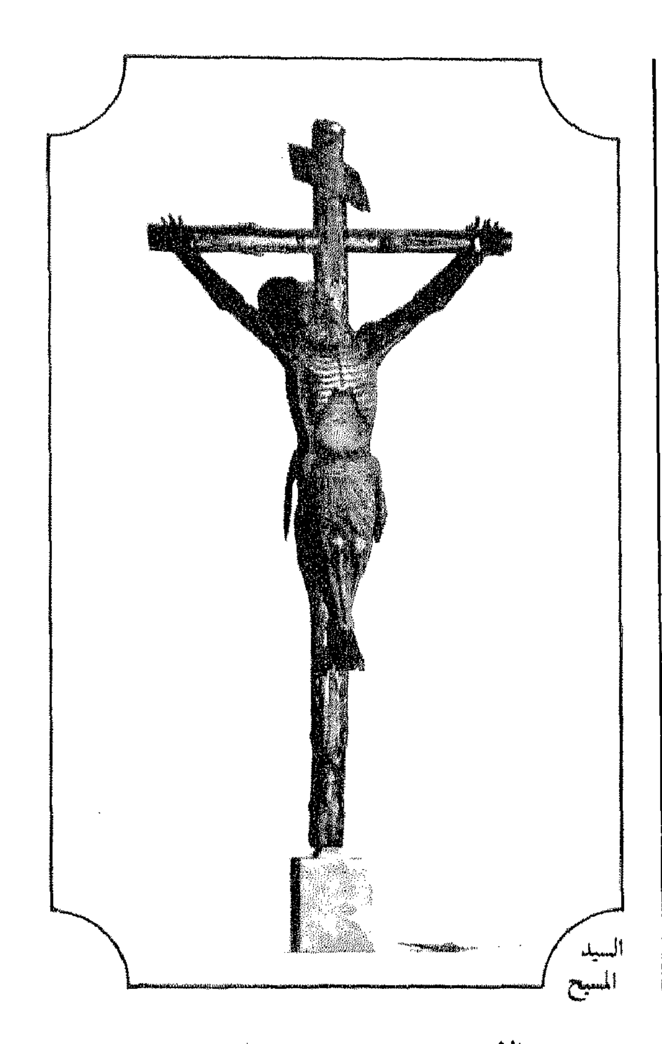
* د. محمد مخزوم: استاذ التاريخ الأوروبي في كلية الاداب والعلوم الانسانية - الجامعة اللبنانية.

الاعتراف توازناً اجتماعياً ملموساً بين القوتين الوثنية المنقسمة والجهاز الكنسي المتماسك وقد خفف في نفس الوقت من مشاكل كل المسيحيين الثائرين ضد مؤسسات الحكم القائمة. وبهذا فقد أخذت الكنيسة منذ تاريخ الاعتراف بها تنمو في احضان السلطة الزمنية حتى القرن التاسع الميلادي عندما اصبحت قوة أكثر تماسكاً في غرب أوروبا من اية مؤسسة أخرى من بينها الامبراطورية نفسها. وكان ضعف البابوية في الغرب في أوائل العصور الوسطى ناتجاً عن كون القوة السياسية الفعلية كانت بيد البرابرة الذين اشعلوا الحروب الاهلية واوجدوا نوعاً من عدم الاستقرار السياسي في جميع الانحاء. كما انغمس رجال الدين في النزاع القائم حتى بات صوت الكنيسة غير مسموع بين قعقعة السلاح. بالاضافة إلى أن الامبراطور البيزنطي كان ينظر إلى ازدياد قوة البابوات بقلق شديد، لذلك استمر في مراقبتهم من خلال ارسال المندوبين إلى روما والحملات العسكرية إذا اقتضى الأمر.

وأمام ازدياد خطر القبائل اللمباردية على املاك البابوية في ايطاليا، في القرن الثامن، سارعت البابوية عندها إلى الاستغاثة بملك الفرنجة، شارل مارتل، واعلان خضوعها التام له رغم انه لم يتوان عن تقليص نفوذها في دولته. وبقضاء بيبن (PEPIN) على دولة اللمبارديين ازدادت قبضة الدولة على الكنيسة مما مهد إلى ظهور النظرية المعروفة بالقيصرية البابوية[1] في الغرب Cesaropapisme. أما عن علاقة الكنيسة البابوية بالدولة في العهد الكارولنجي فقد تمثلت بازدياد سطوة الدولة في عهد شارلمان الذي استغل نفوذه القوي وامتلك صلاحية تعيين الأساقفة والدعوة إلى عقد المجامع الدينية وتولي رئاستها وتحديد حقوق رجال الدين وواجباتهم في دولته بل انه اعتبرهم اتباعاً دون تمييز عن الكونتات.

في الشرق: السلطة الزمنية كانت أقوى

أما في القسم الشرقي من الامبراطورية البيزنطية فقد كانت سلطة الاباطرة قانوناً وعرفاً أقوى من سلطة الكنيسة الممثلة برجال الدين. لهذا اعتبر الاباطرة الشرقيون الكنيسة مؤسسة من مؤسسات الحكم يمارسون عليها نفوذهم كما يمارسونه على الجهاز الاداري في تعيين البطاركة وعزلهم. وظهرت القيصرية البابوية في أوضح معانيها في قول اسقف جستنيان



السيد المسيح

«يجب الا يحدث شيء في الكنيسة ضد رغبة الامبراطور» وكذلك في رسالة ليو الثالث الايسوري التي بعث بها إلى البابا غريغوار الثاني بأنه «امبراطور وقس». فبلغت سطوة الاباطرة على الكنيسة بأن اخذوا يحددون عقائد الكنيسة بمنشورات امبراطورية بل انهم اعتبروا المجامع الكنسية بمثابة برلمانهم الديني. وذهب بعضهم إلى وضع الاناشيد والترانيم الكنسية وفرض الطقوس والقاء تهمة الهرطقة على كل معارض لسياسته الدينية أو الزمنية. وكان استمرار سيطرة المؤسسة الامبراطورية في الشرق على الكنيسة طيلة العصور الوسطى يعود إلى الانقسامات المذهبية التي شهدتها على الولايات الشرقية (سورية وفلسطين ومصر) وولاية شمال افريقيا حيث تتواجد اجناس كان لها من قابلية الانقسام فيما بعد اثر بعيد على كيان الدولة البيزنطية. ومما ساهم أيضاً في شدة قبضة الاباطرة على الكنيسة في الشرق: الأقتصاد النقدي المتين الذي عرفته الامبراطورية البيزنطية وهيأ لها حكماً بيروقراطياً مركزياً متماسكاً بواسطة جيش من الموظفين

والجند الذين هيأوا للدولة بدورهم الامن والاستقرار وسبل الدفاع عنها.

وهكـذا سقطت كـل المحاولات المساندة لاستقلالية السلطة الروحية عن سيطرة الاباطرة أمام تمسك هؤلاء بهذه السلطة. وكان من أهم دعاة حزب الكنيسة البطريرك فوتيوس الذي نادى بعدم وجوب تدخل الامبراطور في الشؤون الدينية. ولكن اشهرهم يوحنا الدمشقي الذي أعلن قائلاً: «نحن نطيع الامبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية، أي في الولاء والضريبة وما يحق له علينا من الجبايات. أما في الحكومة الكنسية فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب المقدس وشارحوا القوانين الكنسية. فالتنظيم السياسي من اختصاص الامبراطور، أما التنظيم الكنسي فهو من اختصاص القسيسين والمعلمين، وليس تجريدهم منه الا من قبيل اللصوصية».

مقوّمات تفوّق السلطة الروحية:

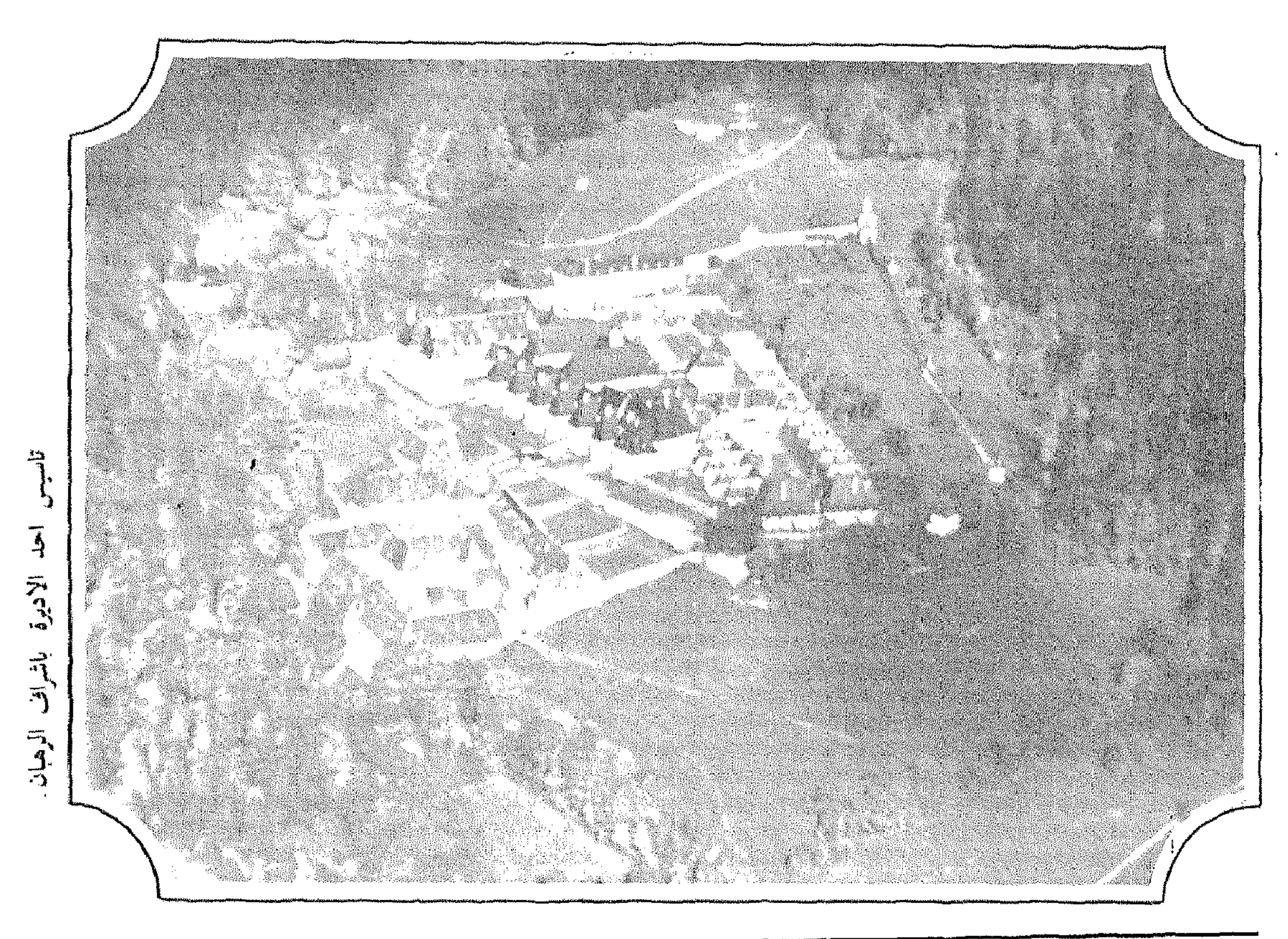
وعندما بدأت أحوال الكنيسة تستقر في الغرب بعد القرن التاسع بما حصلت عليه من هبات[٢] وما أكتسبته من نظريات التفوق[٣] وما جنته من أعمال التبشير بالمسيحية تحت جناح البابوية، بين القبائل التي اخذت منذ هذا القرن تجنح نحو الاستقرار والتمركز النهائي وتتخلى عن سلوكها العشائري في ظل النظام الاقطاعي الذي بدأت تظهر معالمه الأساسية بوضوح، ظهرت مشكلة تحديد مصالح الطرفين: البابـويـة ومـا تمثلـه مـن سلطة روحية والامبراطورية وما تمثله من مؤسسات زمنية.

فمنذ حركة الاصلاح الداخلي التي قامت بها البابوية أوائل القرن الحادي عشر متمثلة باصلاح السلك الكهنوتي بمنع السيمونية[٤] وزواج رجال الدين ووجوب حصر انتخاب البابوات بالكرادلة فقط ورفض قبول تعيينهم من قبل الاباطرة، وبعد أن اصدر البابا غريغوار السابـع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) مـا عرف بـ «الارادة البابوية»[٥] أخذ الاباطرة يتخوفون من هذا المنحى الاصلاحي. فوقع الخلاف الذي تطور إلى صراع مسلح بين السلطتين انقسمت أوروبا على اثره إلى حزبين لكل منهما دعاته وفلاسفته وحججه.

كـان انتصار البابوية العسكري على الجهاز الامبراطوري في الحروب التي قامت بينهما، منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر، يزيد من هيمنة الكنيسة على المجتمع الوسيط. فباتت سيادتها السياسية أوطد رسوخاً من سيادة السلطات الزمنية في كل غرب أوروبا وامتلكت ثروة عقارية هائلة، عن طريق الحروب الصليبية وصكوك الغفران، والنذور ثم الهبات التي يقدمها الحكام ساهمت في اقامة (مصرف) نقدي يضاهي تقريباً ما حوته جميع خزائن ملوك أوروبا من أموال: فكان البابا يستغل هذه الثروة الاقتصادية العظيمة ويوزعها على الكهنة والمستشفيات والاديرة والفقراء. وبهذا مثلت البابوية على الصعيدين المادي والمعنوي، القوة الرادعة للاباطرة طيلة أواخر العصور الوسطى.

ومنذ القرن العاشر وعلى أثر تفسخ السلطة السياسية بوفاة شارلمان أخذ الملوك يمنحون الاقطاعات الواسعة للأسقفيات لينالوا تأييد رجال الدين لهم ضد النبلاء كما أخذت الكنيسة تمتنع عن دفع الضرائب واكتفت بتقديم بعض المساعدات المحدودة للحكام.

والتنظيم الكنسي الاقطاعي في تراتبيته كان مشابهاً لمثيله السياسي بل يفوقه قوة ومتانة، إذكانت ديمومته تثير حسد النبلاء وخوف الملوك فبينما كانت الأرض المقطعة تنتقل من تابع إلى آخر بحكم الوفاة أو تحلل النبيل من العقد كانت ملكية الكنيسة لها مستمرة حتى شبهت بـ «اليد التي لا تموت». وهكذا برزت الكنيسة الاقطاع وامتلكت حوالي ثلث الأرض بمن فيها من اقنان. وكانت ضريبة العشور من أثقل الضرائب التي تمتد إلى جميع الفئات الشعبية. كما أصبحت الهبات التي كانت العامة تقدمها إلى رجال الدين باختيـارهم، ملزمة. وكـان للكنيسة اقطاعيـاتها ومحاكمها الخاصة التي يخضع لها اتباعها. ولما كانت الحروب الاقطاعية المتعارضة مع جوهر الدين تثقل كاهل الكنيسة لما تتطلبه حياة الجندية واقتناء الفرسان من مصروفات ضخمة فقد أوجدت «السلام الأهلي» ثم «الهدنة الربانية» التي حرمّت الحرب أيام الأعياد والصوم.



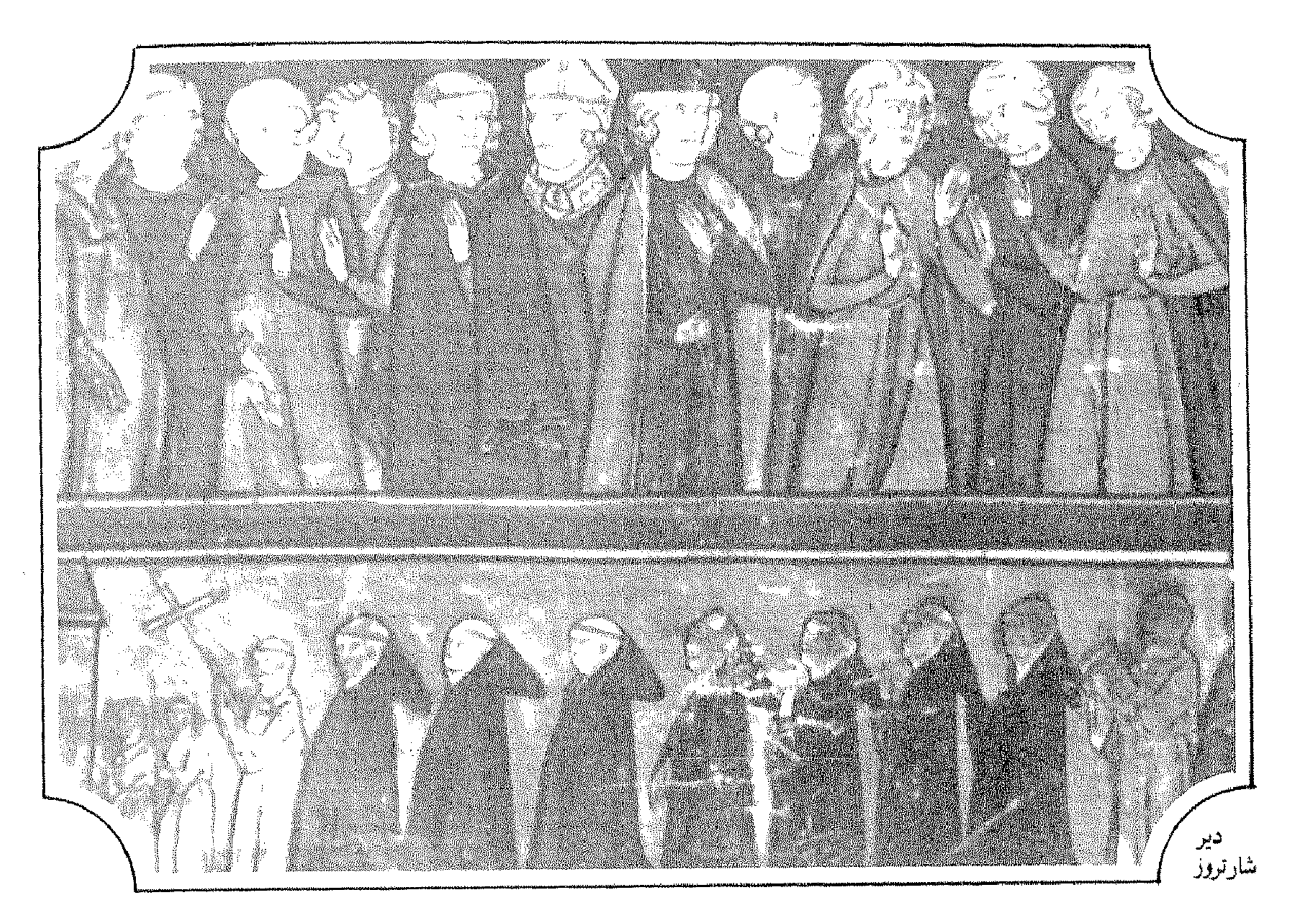
تأسيس احد الأديرة باشراف الرهبان.

الحروب الصليبية تؤكد وتمد نفوذ البابوية:

كانت دعوة البابوية إلى الحروب الصليبية ذات وجهين أساسيين: أولهما كوسيلة لمد سيطرتها ونفوذها على الكنيسة الشرقية بعد أن وصلت العلاقة بينهما إلى حد القطيعة الكبرى سنة ١٠٥٤، وثانيهما استغلال النزعة الحربية التي سادت المجتمع الاقطاعي في توجيهها وتحت اشرافها نحو خدمة الغرض الديني الذي يؤدي بالتالي إلى تأكيد زعامتها العالمية. ومع ذلك فإن دفة الحرب الصليبية خرجت فيما بعد من يد البابوية لأن غالبية الامراء الصليبيين الذين اشتركوا في هذه الحرب كانوا ينشدون تحقيق مكاسب مادية لهم في الشرق. كما أن اكثر ملوك أوروبا (باستثناء لويس التاسع) لم يخرجوا في حملاتهم الا تحت اشتداد ضغط البابوية عليهم. أما الأقنان فقد اندفعوا نحو الشرق أملاً في وجود حياة أهنأ وأفضل لهم أو هرباً من الانظمة الاقطاعية الجائرة المتمثلة بالالتزامات والخدمات والاحتكارات المتنوعة.

ومع أن البابوية قد علت زعامتها في أوروبا على كل الزعامات الزمنية في اشعال نار الصليبية وتبنيها، الا أنها فشلت في إعادة الوئام بين الكنيستين. لأن هذه الحرب جسدت الكراهية بين المسيحيين الاغريق والمسيحيين اللاتين بسبب ما أتت عليه الحملة الشعبية الأولى من أعمال السلب والنهب في الأراضي التي اجتاحتها، وهي في طريقها إلى القسطنطينية، ثم ما كان من احتلال الصليبيين للقسطنطينية في الحملة الرابعة ما يزيد على نصف قرن من الزمن. مما جعل المؤرخ أوسبنسكي يقول بهذا الصدد: «كانت معاملة الأتراك لسكان القسطنطينية أرحم من معاملة الصليبيين لهم خلال احتلالها عام ١٢٠٤» كما ذكر فازيليف عن أحد معاصري سقوط القسطنطينية قوله: «انه لخير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية».

وما ينسب إلى البابوية من انتصارات في حركة الاسترداد القوية التي بدأت في شمال اسبانيا لا يعود في الحقيقة إلى العامل الديني فحسب بل إلى ظهور النزعة القومية ورغبة الامراء في التوسع وزيادة الاقطاعات من جهة وضعف الخلافة الاسلامية في قرطبة من جهة ثانية.



دير
شارتروز

دور الأديرة والعلم في استمرارية هذا النفوذ :

اعتبرت الاديرة من أهم المؤسسات الدينية التي اعتمدت عليها البابوية في تركيز نضالها ضد السلطة السياسية. كما اعتبرت معينها الذي لا ينضب من الدعم المادي، لما تملكه من الضياع والأراضي الواسعة، لمواجهة مصروفاتها الضخمة، وللحفاظ على رهبة الدين في قلوب العامة. ويشير المؤرخ فيشر إلى أهمية الاديرة بقوله : «إن الاديرة – فضلاً عن ايوائها أهل التقوى والنسك والهدوء من عواصف الحياة القاسية في العصور الوسطى – أدت من الخدمات للمجتمع في تلك العصور ما أضحى المجتمع الحاضر مستغنياً عنه، أو قادراً على الوصول اليه من مصادر أخرى. فالدير كان في كثير من الأحوال مركزاً لاعمال التبشير بالمسيحية في بلاد وثنية، ومصرفاً لإيداع الاموال، ومنزلاً لراحة أصحاب الاسفار، ومالكاً للاراضي المفتقرة إلى الاصلاح والزراعة، ومقراً للتعليم والتوفر على العلم، ومجمعاً للفنون والحرف والصناعات التي تتطلبها مؤسسة كبيرة مستقلة بشؤونها وحاجاتها الكثيرة. والدير كان فضلاً عن ذلك كله ملتقى الاخبار وسجلها، ومخزن المخطوطات النادرة وحافظها وهو كذلك مودع المسائل السياسية الخارجية منها والداخلية، واداة استصلاح الأراضي البور، وسبيل ايصال المدنية إلى قفار الهمجية والوثنية».

أما العلم فكان من أهم الركائز التي اعتمدت عليها الكنيسة البابوية في القرون الوسطى. فالنشاط الفكري والثقافي بقي مقتصراً أو حكراً على رجال الدين، حتى أوائل العصور الحديثة، وأن كان متفاوتاً بين بلد وآخر. فالتشريع كان يقوم على نفس الأسس التي تطبق في اللاهوت كما كانت حركة التاريخ مقتصرة على الصراع بين قوى الملائكة مع قوى الشيطان وهو بالتالي تاريخ اخبار الكنيسة والقديسين وما ينسب اليهم من أعمال المعجزات وأن كل ما ينزله المضطهدون بالمضهدين من عقاب أو ظلم انما هو امتحان لمدى احتمال هؤلاء أو تكفير عن خطيئة ارتكبوها. وفي كلا الحالتين لا تملك الكنيسة تجاههم سوى الابتهال والتضرع لله. كما أن الكنيسة البابوية احاطت نظرياتها الفلسفية «بهالة من التكريس الالهي»، ولم تسمح لها بتخطي حدود الايمان «إن لم تؤمن لن تتعقل» وما عدا ذلك من نتاج اجتماعي

يكون لمصلحة الاقنان ضد الاقطاعيين فقد اشير اليه بالهرطقة.

ومن جانب آخر قام رجال الدين (البابويون) بوظيفة التعليم خير قيام خاصة بعد أن تعرضت امبراطورية شارلمان إلى الانحلال بعد وفاته حيث زالت كل الصروح التعليمية التي اقامها في امبراطوريته بعد أن لمست الكنيسة فائدة التعليم في تمكين سيطرتها على فئة المتعلمين. واخذت المدارس الاسقفية والديرية في الانتشار وأظهر الرهبان الذين امتهنوا التعليم الديني في الضياع والمدن حماساً فائقاً على العلم والتدريس. كما ساهمت الاديرة في اقتناء الكتب وحفظ التراث الكلاسيكي مما ترتب عليه قيام عصر النهضة الأوروبية فيما بعد.

أما المجامع الدينية التي عقدتها الكنيسة فقد كانت سلاحاً حاداً بيد البابوية توجهه ضد التجاوزات التي تحصل بنظرها ضد الدين. فيرمي المخالفون بتهمة الهرطقة والحرم الكنسي. وأما ان تستغل في اصدار القرارات البابوية التي تختص بتنظيم الكنيسة أو التي تؤكد على سمو مرتبة البابا والسلطة الروحية التي يمثلها.

المراجع

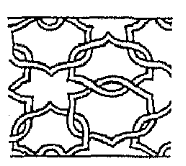
(١) اصطلاح ظهر عند المؤرخين في النصف النهائي من القرن التاسع عشر للدلالة عما اكتسبه الأمبراطور - القيصر - صاحب السلطة الزمنية من وظائف روحية تعود أصلاً إلى رئيس الكنيسة المسيحية - البابا -.

(٢) تعتبر هبة قسطنطين التي ظهرت في القرن السابع أضخم عملية تزوير بين الوثائق التاريخية. اكتشفها لورنزو فالا في القرن الخامس عشر على أثر انتشار المدارس التاريخية النقدية، وتزعم هذه الوثيقة أن الامبراطور قسطنطين الكبير اعترافاً منه بجميل البابا سلفستر الأول (٣١٤ - ٣٣٥) الذي شفاه من المرض، قد منحه حكم العالمين الزمني والروحي في الغرب بأن قدم له شارات الحكم بما فيها التاج الذي رفضه البابا. وما كان يبغيه واضع هذه الوثيقة هو الاشارة إلى أن رفض البابا للتاج انما يدل على تفوق سلطته الروحية على سلطة الاباطرة الزمنية. لهذا فيحق الآن لخلفاء البابا استرجاع هذه السلطة التي تعتبر من حقهم. وهكذا منح بيبن هبته للبابوية في حكم ايطاليا الزمني إلى جانب سيطرتها الروحية فظهرت وكأنها اقرار بصحة هبة قسطنطين التي روج لها واعترف بها في هذا القرن بالذات لتكون حافزاً لبيبن (PEPIN) لتقديم هذه المنحة إلى البابوية.

(٣) واهمها نظرية السيفين التي روجتها البابوية في أوروبا للتدليل على امتلاكها سيف الروح الذي ورثه اسقف روما عن القديس بطرس امير الرسل وهو يفوق ولا شك سيف الجسد الذي تنازل عنه الامبراطور قسطنطين للبابا سلفستر الأول.

(٤) وتعني الاتجار بالقدسيات والمراكز الدينية وتنسب الى سيمون الساحر الذي اراد شراء هبة فعل المعجزات من القديس بطرس.

(٥) تتمسك هذه القرارات بتفوق الكنيسة في العالمين الزمني والروحي تحت زعامة البابوية.



● الحرية هي استقلال الانسان عن أي شيء فيما عدا القانون الخلقي وحده.

كانت

● يا قوم سامحكم الله. لا تظلموا الاقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار. ألم يخلقكم احراراً لا يثقلكم غير النور والنسيم فابيتم الاّ أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الاقوياء!

عبد الرحمن الكواكبي



التحدي والاستجابة
في دراسة أرنولد توينبي للتاريخ

فؤاد محمد شبل

● تؤدي [illegible] والا[illegible] رئيسياً في تصوير توينبي [illegible] الشؤون [illegible] وفي تفسير أحداث التاريخ واستخلاص نتائجها وعبرها. وهي نفسها التي استند إليها في إلقاء الضوء على العلاقات الدولية، وأخيراً في تبيان وجهة نظره بشأن طابع الحضارة الغربية خاصة، ومستقبل الإنسانية بصفة عامة.

ولقد أوحى بالفكرة إلى توينبي مطالعته في العهد القديم (التوراة). وليست التوراة عند توينبي تنزيلاً من الله جل شأنه، ولكنها مجموعة مختلفة من الكتب كتبها — وأعاد كتابتها — أيد عديدة على مدار فترة تمتد مئات السنين. بيد أن جميع هذه الكتب المتباينة غير المتجانسة تسيطر عليها — فكرة واحدة مدارها أن التاريخ هو مجموعة من الأفعال يبرز فيها الله تحدياً للبشر أفراداً وجماعات.

ولم يطلق توينبي الفكرة — كما قد يتبادر للذهن للوهلة الأولى — تطبيقاً دينياً بحتاً على غرار ما فعله كتاب اللاهوت، لكنه اقتبسها وراح يستخدمها في بحث الشؤون البشرية، مادية وروحية على السواء.

إذ يؤمن توينبي بأن المادة وحدها لا تكفي على الإطلاق لتفسير أحداث التاريخ ذلك لأن الإنسان — كما يؤكد توينبي — يتمتع بحرية منحها الله تعالى له، ولكنها حرية جزئية، وبفضل حرية الإنسان — مع إرادة الله تعالى — يتحقق للإنسانية التقدم والارتقاء.

ولم يكن توينبي الوحيد في مجال تطبيق فكرة [illegible]

التحدي والاستجابة في الدراسات العلمية. فلقد اقتنص هيغل الفكرة كذلك، وأنشأ منها نظريته في منطق الجدل. وهي عماد الجدلية المادية التاريخية.

كما استخدم مالتوس الاقتصادي الانجليزي فكرة التحدي والاستجابة في تشييد نظريته عن «التناحر على البقاء». وعن طريق نظرية مالتوس، كشف داروين نظريته عن التطور.

ولا تقتصر فكرة التحدي والاستجابة على الكتاب الغربيين. فلقد عرفت من قديم في المأثورات الصينية. إذ كان يطلق على السكون لفظ «ين» وعلى الحركة لفظ «يانج». واعتنق القوم فكرة مدارها أن السكون يتحول إلى حركة دافعة بفضل تداخل عامل من العوامل وبالتالي ينقلب الشيء إلى نقيضه في ظل ظروف خاصة. وهذه الفكرة هي الآن عماد الآراء الاشتراكية الصينية، مما لا محل له في بحثنا هنا.

ويعترف توينبي للفلاسفة الصينيين بالفضل في هذا المقام، فتراه يؤثر استخدام الاصطلاحين الصينيين لايضاح فكرته عن التحدي والاستجابة.

فالانسان وفقاً لمنطق توينبي، مسير ومخير معاً. فاذا كان المنطق المادي مثلاً قد أوجب تألق الحضارة في ذلك القسم من وادي النيل الأدنى، فأن توافر البيئة نفسها لم يبعث إلى الوجود حضارة مشابهة في وديان أنهار: الاردن وريو غراندي وكلورادو ومع أن بيئاتها الطبيعية تشبه بيئة وادي النيل الأدنى.

وإذا كان توافر صفات معينة في البيئة لا يقود وحده إلى انبعاث الحضارة، فهل العنصر البشري هو العامل الأساسي في انبعاثها في منطقة بذاتها.

أو بالأحرى، هل يرتبط التفوق الروحي والذهني بالنقص النسبي في صبغة البشرة، أو هو على اتصال وثيق بها، كما يدعى المتطرفون من معتنقي نظرية التفوق العنصري؟.

ويرد على ذلك بأن الحضارة المصرية وهي أطول الحضارات عمراً، أنجبها جنس أسمر. وأنجب الحضارة الصينية جنس أصفر. وأنجب حضارات أميركا الوسطى جنس أحمر. كما أن كثيراً من الشعوب البيضاء بريئة من تقديم أية مساهمة لأية حضارة.

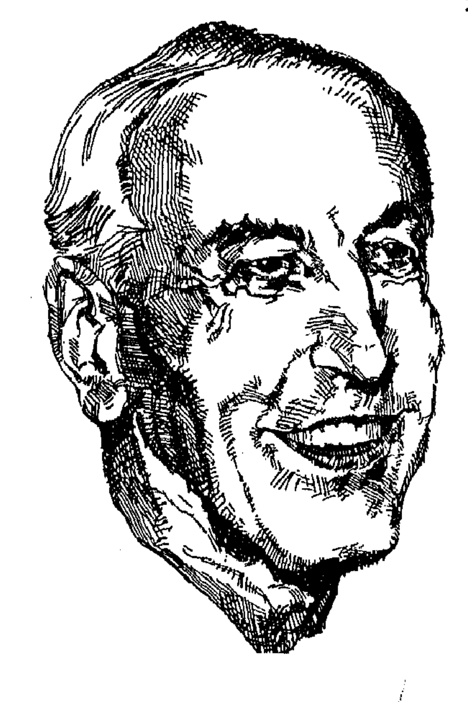
وصفوة القول:

ليست الحضارة نتيجة العوامل البيولوجية ولا هي نتاج البيئة الجغرافية: كل يعمل بمفرده، لكنها حصيلة نوع ما من التفاعل بينها جميعاً.. وبعبارة أخرى، ليس عامل الحضارة شيئاً مفرداً، لكنه متعدد.. انه ليس وحدة، ولكنه علاقة.. هو التقاء –وقد يكون تصادماً– بين العوامل..

لكن من ذا الذي يرتب هذا اللقاء أو التصادم، أو التحدي والاستجابة؟.

هنا تتبدى رسالة القوة الروحية.

وعلى هدى فكرة التحدي والاستجابة، يمضي توينبي في تفسير أحداث التاريخ واستقرائها واستخلاص دلالتها:



توينبي

التحدي والاستجابة في المجال الروحاني:

الالتقاء بين شخصين فوق مستوى البشر، هو مدار طائفة من المآسي العظمى التي تصورتها المخيلة البشرية، فالالتقاء بين يهود والحية، هو حبكة قصة سقوط الانسان في سفر التكوين. كذلك الالتقاء بين الرب والشيطان هو موضوع سفر أيوب. والالتقاء بين الرب ومفيستوفيليس، هو مدار قصة فاوست لغوته. ويحفل سجل البشرية بالأساطير التي تدور جميعها حول

التحدي والاستجابة للتحدي. والنتيجة إما تأثير مثمر أو تجئ الاستجابة نتيجة مدمرة.

ويفسر توينبي القصص الديني على أساس فكرة التحدي والاستجابة:

١ - كان آدم وحواء يعيشان في الجنة عيشة راضية. أي يعيشان بالتالي في حالة سكون (أو بالتعبير الصيني في حالة الين). وهي مرحلة الانسان البدائي في المرحلة الاقتصادية القائمة على التقاط الطعام. فيرمز السقوط من الجنة نتيجة للاغواء بالاكل من شجرة الخير والشر، إلى قبول تحد يهدف إلى ترك هذا التكامل التام، والشروع في عملية تفاضل جديدة، قد تسفر أو لا تسفر عن تكامل جديد.

٢ - الطرد من الجنة إلى عالم غير صديق، يفرض فيه على المرأة ان تلد وعلى الرجل أن يأكل



داروين

خبزه بعرق جبينه، أنما هو تجربة ترتبت على قبول تحدي الشيطان ممثلا في صورة الحية، وما المعاشرة الجنسية بين آدم وحواء، إلا فعل الخلق الاجتماعي، أثمرت ثمرتها في انجاب ابنين يمثلان مولد حضارتين: هابيل راعي الغنم، وقابيل زارع الأرض.

٣ - أسفر التحدي بين هابيل وقابيل عن قتل الأخير لأخيه. فكان هذا إيذانا بتغلب الحضارة الزراعية - ويمثلها قابيل - على الحضارة الراعية - ويمثلها هابيل.

فعندما تكتمل حالة السكون، تصبح مهيأة للانتقال إلى حالة الحركة والانطلاق. لكن، ما هو الدافع إلى هذا الانتقال؟.

السبب دافع أو باعث يفد من الخارج يبعث العقل على التفكير بواسطة اثارة الشكوك أو يدفع القلب الى الاحساس بمشاعر السخط أو الخوف أو النفور وهذا هو دور الحية في قصة التكوين، ودور الشيطان في قصة أيوب ودور العشاق الأرباب في أساطير العذارى.

مناط وظيفة العامل الدخيل هي استثارة الانسان ليستجيب لتحدي القوي التي عكرت صفو سكونه ورضائه. فاذا نجحت الاستثارة في بعث الاستجابة المنشودة، انقلبت حالة الانسان من السكون إلى الحركة. وهنا تنطلق قوى الابداع من مكامنها فتطفو على سطح النفس الانسانية، فتحقق التغييرات المبدعة.

فالانتقال من حالة السكون إلى حالة الانطلاق، يتم بفعل قوة دافعة. ويقوم بعملية الانتقال مخلوق الله تحت رعايته تعالى وفي ظل ارشاده الكريم. لكن يجب دفع ثمن هذا الارتقاء، وهذا الثمن لن يدفعه الله، بل يؤديه عبده. ولا يقتصر دور البطل البشري على تنفيذ الارادة الالهية فحسب، لكنه يخدم كذلك زملاءه من الرجال عن طريق رسم معالم الطريق الذي يتعين عليهم اتباعه.

التحدي والاستجابة في الوسط المادي:

تنطوي عملية الارتقاء على تناقض مبناه أنه إذا كانت الحاجة أم الاختراع، فان أباه هو العناد. أي أن تصمم على الاستمرار في العيش في ظل ظروف معاكسة وتفضلها على التوجه حيث سبل العيش أسهل. ولم يكن من المصادفة - اذن - أن تنبعث الحضارة في هذا الخضم من المد والجزر في المناخ والنبات والحيوان، أي حيث استجاب الانسان لتحدي الطبيعة.

ولقد أورد توينبي طائفة من الأمثلة توضح فكرته من انبعاث الحضارة من خلال الاستجابة للتحدي، أو كما ذكرنا سابقاً. انطلاق الانسان من مرحلة السكون إلى مرحلة الحركة.. واقتصر هنا على ايراد المثال المتصل بانبعاث الحضارة المصرية؟.

بينما كان الثلج يغطي أوروبا الشمالية حتى جبال الهارز (أقصى سلاسل جبال المانيا الشمالية) وكانت الثلوج تتوج جبال الالب والبرانس، عمل الضغط العالي للقطب الشمالي على إمالة الزوابع المطرية تجاه الجنوب. وكانت الاعاصير التي تخترق أوروبا الوسطى، تمر في ذلك الوقت فوق البحر الأبيض المتوسط، وشمال الصحراء الكبرى وتستمر في طريقها-دون أن تعتصرها جبال لبنان-مارة عبر العراق وبلاد العرب إلى فارس والهند. فكانت الصحراء الجدباء الحالية تنعم في ذلك العهد بهطول الامطار بانتظام. هذا وكانت الأمطار الأبعد من ذلك شرقاً، أعظم غزارة عما هي عليه الآن. بل وموزعة على مدار السنة كلها، ولا يقتصر سقوطها على فترة الشتاء كما هو الحال في الوقت الحاضر. فكان أن أزدهرت - تبعاً لذلك - الأحراش والغابات في شمال افريقيا وبلاد العرب وفارس ووادي السند، على غرار ازدهارها اليوم في شمال البحر المتوسط. وكانت تلك المناطق كثيفة السكان مثل سهول أوروبا الحالية. وفي ظل هذه البيئة المواتية الحافزة، أحرز انسان تلك المناطق - وهي اليوم صحراويات - تقدماً أعظم بكثير مما أحرزه الانسان الاوروبي المحصور بين الثلوج.

بيد أن المنطقة الافريقية الآسيوية، أخذت عقب نهاية عصر الجليد، تكابد تغييرات جسيمة في أحوالها الطبيعية، ومناه، اتجاهها نحو الجفاف بسبب تحول الامطار إلى الشمال. وتقلصت جبال أوروبا الثلجية متجهة شمالاً صوب المنطقة القطبية، وإلى الجنوب صوب افريقيا الوسطى. وهكذا أصبح على سكان تلك المنطقة بعد ميلها إلى الاجداب، أن يختاروا بين أحد الأمور التالية:

١ - التحرك نحو الشمال أو الجنوب مع صيدهم متتبعين المنطقة المناخية التي الفوها. ونجد بقاياهم ممثلة في قبائل الدنكا والنوير والشيلوك ومن اليهم من القبائل النيلية. وتعيش هذه القبائل - بصفة أساسية - معيشة الأسلاف الابعدين. وتتصل هذه القبائل بالمصريين القدماء من حيث المظهر والقد ونسب الجمجمة واللغة والملبس، ويحكم هذه الشعوب سحرة صانعو أمطار أو ملوك يؤلهون. وفي الحق، يبدو كما لو أن التطور الاجتماعي بين أفراد هذه القبائل المقيمين على ضفاف أعالي النيل قد توقف عند المرحلة التي عبرها المصريون القدماء بيد أنهم يواجهون في الوقت الحاضر تحدياً بشري الطابع، قد تكون له في المستقبل النتائج نفسها التي حدثت لأبناء عمومتهم - قدماء المصريين - الذين استجابوا للتحدي المادي في سالف الأيام، فانطلقت طاقات عبقريتهم من عقالها فشيدوا تلك الحضارة الزاهرة.

٢ - البقاء في موضعهم بما يحمله ذلك بين ثناياه من تقبل الحياة التعسة والاكتفاء بما يصطادونه من الحيوانات التي قد تقاوم الجفاف. وهؤلاء هم بدو السهول الآسيوية الافريقية.

٣ - الاستجابة لتحدي الجفاف بتغيير الموطن وطريقة المعيشة معاً. واقتضى هذا، بذل الجهود الخارقة التي انبعثت عنها الحضارة المصرية في وادي النيل: لقد خاض رواد هذه الحضارة الأبطال - بوحي الجرأة والبأس - مستنقعات الأدغال الموجودة في قرارة الوادي والتي لم يسبق لبشر التوغل فيها. وأحالها عملهم ذو القوة الدافعة إلى أرض مصر موطن الحضارة. وحسبي القول أن أرض وادي النيل قبل ان ينزل اليها هؤلاء الرواد المغامرون كانت أشبه ما تكون ببلاد النيل الاعلى عند بحر الجبل في المديرية الاستوائية، وأن الدلتا نفسها كانت تشابه المنطقة التي حول بحيرة نو حيث تمتزج مياه بحر الغزال ببحر الجبل.

ومن ثم ينبذ توينبي الافتراض الشائع بان الحضارات تظهر وقتما تهيء البيئات ظروفاً للحياة فيها، سهولة غير مألوفة، بل أن السهولة عدو الحضارة والتقدم. وفيما يلي طائفة من الامثلة:

١ - قام بالعمل الابداعي المتصل بتوحيد الوجهين القبلي والبحري، قادة من جنوب مصر حيث الأرض أقل خصوبة والحياة أشد قسوة.

٢ - انبعثت الحضارة الصينية على النهر الأصفر، حيث لم يكن النهر صالحاً للملاحة في أي فصل. وكان ذوبان الثلوج في الربيع يحدث فيضانات مدمرة تغير باستمرار خط سير النهر عن طريق نحت مسالك جديدة له، بينما تستحيل المسالك القديمة إلى مستنقعات تغطيها الأدغال. ولم تنبعث الحضارة على ضفاف نهر اليانغتسي، وهو صالح للملاحة في جميع

الفصول وفيضاناته أقل تكراراً من فيضانات النهر الأصفر، كما أن فصول الشتاء في وادي اليانغتسي أقل عنفاً.

٣ – استجاب الأثينيون لتحدي فقر بلادهم. بابتكار أعمال غدت علماً عليهم هي زراعة الزيتون واستغلال باطن الأرض. وجاب الأثينيون أرجاء العالم القديم تجاراً يقايضون محصولاتهم بالقمح. فكان أن انبعثت الحضارة الهلينية ثقافة وفناً وسياسة، وغدت أثينا الفقيرة معلمة اليونان بأسرها ثم العالم الأوروبي الحديث.

٤ – لم تزدهر الحضارة في مناطق سوريا الخصيبة، بل في مناطقها الجرداء أو الشبيهة بالجرداء. فالتجار السوريون من سكان جبال لبنان، هم الذين مخروا عباب البحر المتوسط بطوله. وهؤلاء الفينيقيون، هم بقايا الكنعانيين «وهم من العرب القدماء» الذين سكنوا المنطقة قبل وصول الفلسطينيين والعبرانيين. وقد امتد سلطان الفينيقيين من بلادهم الجبلية، فأنشأوا وطنا ثانياً يعبر عن منحاهم الخاص في الحضارة السورية على السواحل الافريقية والاسبانية في غرب البحر المتوسط. فكانت قرطاجنة، هي المدينة العالمية لهذا الوطن الفينيقي عبر البحار.

٥ – تكونت العظمة الألمانية في منطقة براندنبرغ وبوميرانيا وبروسيا الشرقية الشهيرة بغابات الصنوبر الهزيلة والحقول الرملية، ولم تتكون في اراضي الراين حيث الحياة أكثر يسراً وأحلى منظراً. ولايقتصر فعل البروسيين الابداعي على الناحية الحربية التي قادت إلى توحيد المانيا، فقد امكنهم بفضل العمل الدائب والفكر أن يجعلوا الرمل ينتج غلالا عن طريق زيادة خصوبته بالأسمدة الكيمائية. ورفع البروسيون مستوى حياة جميع سكان بروسيا إلى درجة من الكفاية الاجتماعية لم يسبق لها مثيل. باستخدام نظام تعليم اجباري، وإلى درجة من الضمان الاجتماعي لا نظير لها قبلهم باستخدام نظام تأمين اجباري ضد المرض والبطالة.

٦ – اسكتلندا الجبلية، هي التي أنجبت عظماء انجلترا في السياسة والثقافة والاقتصاد. ويشغل الاسكتلنديون–حتى الآن وعلى قلة عددهم النسبي–حصيلة ضخمة من المراكز المسؤولة في الحكومة والشركات البريطانية.

٧ – ازدهر التقدم الحضاري في اليابان الفقيرة، ولم يزدهر في بلاد جنوب شرقي آسيا الغنية بالمواد. كما أن شمال الصين الفقير أعظم تقدماً من جنوبها الخصب.

التحديات من البيئة البشرية:

انتقل توينبي بعد بحث البيئات الطبيعية –كعامل حافز– إلى استعراض ميدان البيئة البشرية من هذه الناحية. وقد فرق بين:

أولاً–البيئات البشرية التي تقع جغرافياً خارج نطاق الجماعات التي تؤثر فيها. وتشغل تلك الفئة، تأثير المجتمعات أو الدول على جيرانها.

ثانياً–البيئات البشرية التي تختلط بالوسط البشري الذي تؤثر فيه. ويتضمن ذلك، تأثير «طبقة» اجتماعية في أخرى، عندما تشترك الطبقتان في الاقامة في منطقة معينة. وبالأحرى تقوم الصلة بين الطبقتين على أساس داخلي أو «عائلي» باعتبار المشاركة في الانتماء إلى مجتمع واحد.

فالمجتمع البشري يجابه.

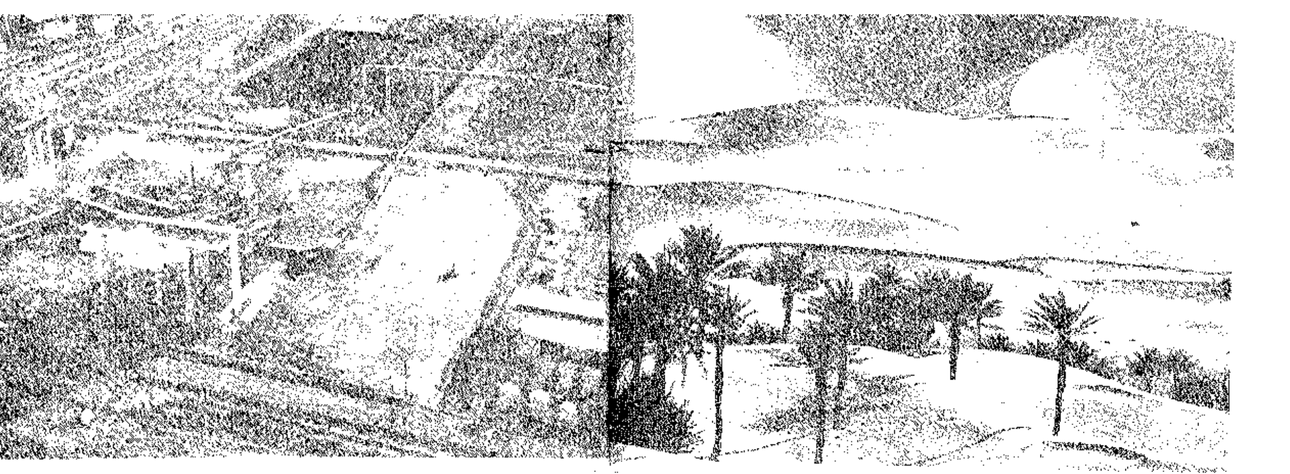
١ – صدمات تحل عليه من خارجه.

٢ – تأثيرات تتسرب اليه من خارجه.

٣ – تفاعلات اجتماعية داخلية.

في مقدمة أمثلة الصدمات الخارجية، صدمة الاحتلال الاجنبي والهزائم الحربية.. فانها تمثل تحدياً قاسياً، فان استجابت له الأمة أو المجتمع، استثارت طاقاته الابداعية الكامنة.. ومن قبيل المثال:

أ – غزو الهكسوس لمصر، استثار طاقات الابداع المصرية، فامكنها بعد قرن ونصف القرن من احتلال الهكسوس لشمال البلاد، من طردهم ثم انشاء الامبراطورية المصرية الكبرى في عهد تحتمس الثالث. وفوق هذا كله تزويد الحضارة المصرية بطاقة هائلة مكنتها من الحياة فترة لم تبلغها حياة أية حضارة على الأرض، وظلت تقاوم الردى إلى أن خبأ ضياؤها في القرن السادس الميلادي.



لولا الصعاب التي تتحدى الانسان لماكانت الحضارة.

(ب) استثارت هزيمة العثمانيين أمام تيمورلنك استجابة مكنتهم بعد مرور نصف قرن على هزيمتهم، من الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الامبراطورية البيزنطية قضاء تاماً.

(ج) استثارت الشروط القاسية التي أملاها نابليون على بروسيا في صلح تيلسيت، إلى زيادة أثر العامل الحافز الذي نشأ في بداية الأمر مع هزيمة البروسيين أمام الفرنسيين في موقعة يينا، فلم تقتصر نتيجة الاستثارة على تجديد الجيش البروسي، بل تجاوزه إلى تجديد النظم الادارية والتعليمية البروسية. وكان أن هزمت ألمانيا فرنسا عام ١٨٧٠ وتكونت الامبراطورية الألمانية. واستثارت هزيمتها عام ١٩١٤–١٨ كامن الطاقات الألمانية، فانبعثت في عهد هتلر قوة هائلة.

وأما بالنسبة للتحديات التي تفد من الخارج، فتستثير الطاقات الابداعية في المجتمع، فقد بينها توينبي في بضعة أمثلة ابرزها مثالاً الاسلام:

فقد تعرض مجتمع الشرق الأوسط – ويدعوه بالمجتمع السوري – لتأثيرات حضارية تتنافى مع طبيعته وتتمثل تلك التأثيرات في خضوعه لاشعاعات الثقافة اليونانية بفعل الاحتلال اليوناني ثم الروماني، ولضعف ثقافة بلاد الشرق الأوسط بفعل تدهورها وتحللها، فتهاوت من ثم أمام الثقافة اليونانية. فكان أن فرض اليونانيون على مجتمع الشرق الأوسط نظماً وتقاليد وثقافة، «بل حاولوا فيما بعد أن يفرضوا مذهبهم الديني» لم يستطع ضمها لمجافاتها طبيعته. فلما وفد الاسلام، استجاب سكان المنطقة لمبادئه فاعتنقوها عن طواعية ليتخلصوا من تأثيرات الحضارة الهلينية – ثقافية وسياسية – وليزيحوا عن كواهلهم الاحتلال الروماني. وكان أن اندفع المسلمون بقيادة العرب إلى استرداد مجد بلادهم الذاوي، وانبنى على انتصار الاسلام استرداد الشرق الأوسط شخصيته التي أهدرها العدوان الثقافي الهليني أجيالاً طويلة، فأصبحت المدن الاسلامية مراكز الحضارة الاسلامية الزاهرة.

ومن الناحية الأخرى. استثار الاندفاع العربي، الطاقات الكامنة في المجتمع المسيحي الغربي. فأتجهت الاستجابة للتحدي بهزم العرب في موقعة تور عام ٧٣٢، ثم خروج العرب من أسبانيا. وحملت الاستجابة الغربيين عبر المحيط الأطلسي إلى أميركا وعبر المحيط الهادىء إلى الشرق الأقصى. وقبل أن تقتلع الثقافة الاسلامية من أسبانيا، استغلت لمصلحة الغربيين أنفسهم. فلقد ساهم علماء اسبانيا الاسلامية – عن غير قصد كما يقرر توينبي – في تشييد الصرح الفلسفي الذي أقامه فلاسفة المسيحية الغربية إبان العصور الوسطى، كما وصلت بعض مؤلفات أرسطو للعالم الغربي للمرة الأولى عن طريق التراجم العربية. فعلى أساس الصرح الثقافي الاسلامي، شيد الغربيون نهضتهم الثقافية.

وعرض توينبي للاستجابات التي تتم بفعل

تحديات تنشأ داخل المجتمع. فشبه المجتمع في هذه الحالة بالجسم الانساني.. فعندما يبتلى جسم يفقد عضو من اعضائه أو بنكب انسان بخسارة ملكة من ملكاته، تعتبر الخسارة تحدياً يستجيب له الانسان المصاب بالتخصص في استعمال عضو آخر أو ملكة أخرى، حتى يبز اقرانه في ميدان النشاط الجديد هذا. ليعوض قصوره في الميدان القديم..

ففي مكنة العميان مثلاً، تنمية شعور حساسية اللمس لديهم أكثر مما يتاح عادة للمبصرين. وهذا ما نجده بالطريقة نفسها – إلى حد ما – في الكيان الاجتماعي. فان أية جماعة أو طبقة تتناولها النقمة اجتماعياً – سواء من جراء فعلها هي نفسها أو بفعل آخرين في المجتمع الذي تعيش فيه – تستطيع الاستجابة للتحدي المقيد حريتها أو الذي يحد من مزاولة طائفة من أوجه النشاط، وذلك بتركيز طاقتها في ميادين أخرى والتفوق فيها.

ولقد تناول توينبي بالبحث طائفة من حالات الاستجابة للتحديات الداخلية نقتبس منها مثال «الرق»:

ما برح الرق من اقسى ضروب النقمة التي لا يفرضها حادث طبيعي، لكنها من تدبير الانسان وهي أكثر النقم شمولاً ووضوحاً. وأشد أمثلة الرق تأثيراً في تاريخ الانسانية تلك الآلاف المؤلفة من الأرقاء الذين ساقهم الطغاة الرومانيون إلى روما من جميع البلاد المحيطة بالبحر المتوسط. ولقد شاهد هؤلاء الارقاء عالمهم المادي والروحاني بأكمله ينقلب راساً على عقب تحت سمعهم وأبصارهم عندما نهب الرومان مدنهم وساقوهم إلى سوق الرقيق، لكنهم لم يفقدوا مقدرتهم على الشعور بالألم الذي بسببه الرق. وكان الموت في العبودية نصيب معظمهم، لكن طائفة منهم قد استجابت للتحدي فعلاً، بانجاز شيء ما في شكل أو في آخر:

١ – تبلورت استجابة البعض في المجال المادي البحت. إذ ارتفع أفراد هذه الفئة في خدمة سادتهم حتى أصبحوا المديرين المسؤولين لأملاك واسعة. ولما اتسعت أملاك قيصر وأصبحت روما دولة عالمية، استمر عتقاء الامبراطور يحكمونها، واشترى آخرون حريتهم بفضل مدخراتهم التي سمح لهم سادتهم بالاحتفاظ بها. وصعدوا في نهاية الأمر الى الثراء والجاه في عالم التجارة والادارة الروماني.

ب – أما البعض الآخر، فكانت استجابته روحانية. فجلب الأرقاء اليونانيون معهم عقائدهم، وجلب الارقاء المصريون عبادة ايزيس، والأرقاء البابليون عبادة النجوم، والارقاء الايرانيون عبادة ميترا. وفوق هذا كله، جلب الارقاء السوريون المسيحية التي استهوت الجماهير، فكان أن قوضت النظام القديم للامبراطورية الرومانية، من أساسه.

وهنا يقارن توينبي بين استجابة الأرقاء السوريين لتحدي الرق الروماني باعتناق المسيحية، وبين استجابة

زنوج أميركا لتحدي البيض لهم. وتتبلور استجابة زنوج أميركا، في كشفهم في المسيحية طائفة من المعاني والقيم الطريفة التي ظلت المسيحية الغربية تجهلها أمدا طويلاً. فان الزنجي قد كشف في الأناجيل - بفضل اعماله الفكر - أن المسيح نبي جاء إلى الدنيا، لا ليعزز مركز الاقوياء، ولكن ليعلي من شأن المتواضعين والمستضعفين. وهنا يقول توينبي ما ترجمته «إذا كان الأرقاء السوريون المهاجرون الذين جلبوا المسيحية إلى ايطاليا الرومانية ذات مرة قد أنجزوا معجزة تشييد ديانة جديدة حية قامت مقام ديانة قديمة كانت قد بانت فعلاً فلعل الزنوج ينجزون معجزة أعظم من ذلك باحياء هذه الديانة من جديد. ولعلهم بعبقريتهم الفطرية في التعبير بفن جميل عن مشاعرهم الدينية الانفعالية، يوفقون في اشعال النار في رماد المسيحية، إلى أن تتأجج النار المقدسة مرة اخرى في القلوب المسيحية».

فان قدر أن يتم ذلك على أيدي كنيسة زنجية امريكية، كان ذلك أعظم مراتب الاستجابة الديناميكية التي قام بها انسان حتى الآن لتحدي النقمة الاجتماعية.

درجات التحدي ومدى الاستجابة

أثبت توينبي أن الحضارات تتوالد في البيئات التي تتسم بالمشقة غير العادية، والتي لا تتسم بسهولة الحياة فيها سهولة غير مألوفة.. وأنه كلما عظم التحدي اشتد الحافز..

ولكن، لو زدنا شدة التحدي إلى ما لا نهاية، فهل نضمن اشتداد الحافز إلى ما لانهاية، وزيادة غير متناهية في الاستجابة، أن جوُبه التحدي بنجاح؟.

أفلا تبلغ شدة التحدي نقطة تؤدي بعدها الشدة المتزايدة إلى ابراز مفعول متناقص؟.

وإذا تعدينا هذه النقطة، فهل نصل إلى نقطة ثانية يصبح عندها التحدي من الشدة بحيث يزول كل احتمال في الاستجابة اليه بنجاح؟.

وفي هذه الحالة، هل تغدو صيغة القانون «أعظم التحديات حفزاً يوجد في متوسط بين التفريط والافراط في الشدة»؟.

وهل هناك تحدٍّ زائد عن الحد؟.

هناك حالات تتسم بتطرفها لعملية التحدي والاستجابة. فهناك مدينة البندقية وهي مدينة شيدت على أعمدة غرست في الطين على شواطئ بحيرة ضحلة ملحة. لكنها فاقت في القوة والثراء والمجد جميع المدن التي بنيت على الأرض الصلبة في وادي نهر البو الخصيب. وهناك هولندا وهي بلاد استنقذت من البحر، لكنها امتازت من ذلك في التاريخ إلى أبعد حد عن أية قطعة أرض تماثلها في المساحة في سهول أوروبا الشمالية. والمثل يقال عن سويسرا المحملة بحمل من جبال لا تبشر بالخير. بيد أنه وأن بلغت حالات التحدي الثلاث هذه غاية الشدة، الا أن مداها مقصور على أحد العنصرين اللذين يكونان بيئة أي مجتمع. فانها متعلقة بالأرض الشاقة. إلا أن شدة الموقع الطبيعي، لا تعتبر في ذاتها تحدياً بل نجدة. لأن هذا الموقع هو الذي حفظها من المحن التي تعرض لها جيرانها، ومكنتها منعتها الجغرافية من الارتقاء في ظل الأمن والسكينة. بيد أن هناك تحديات أعجزت الاستجابات، مثال ذلك:

١ - اخفاق ردود الفعل التي أبرزتها شعوب الشرق الأوسط ضد تحدي العالم الهليني، إلى أن وفد الاسلام فنجح نجاحاً ساحقاً في رد عدوان العالم الهليني.

٢ - فشل انسان روما الشمالية في الاستجابة لتحدي الطبيعة. فأخفق في الماضي في انشاء حضارة فلما واتته الظروف أصبحت أوروبا الشمالية منطقة حضارية.

٣ - أقام الرجال الشماليون حضارة في النرويج وايسلندا، لكنهم عجزوا عن اقامتها في غرينلند، وما برحت طبيعتها تستعصي على إقامة أية حضارة.

٤ - إذا كانت أثينا قد استجابت لتحدي الغزو الفارسي بصيرورتها معلمة اليونان، واستجابت بروسيا لتدمير الغزو النابليوني بتطورها إلى الامبراطورية الألمانية، فان الضربة التي وجهتها روما إلى قرطاجنة كانت من العنف والقسوة بحيث لم يثمر التحدي أية استجابة في أية صورة.

التمايز عن طريق الارتقاء

يتحقق الارتقاء وقتما يجيب فرد أو أقلية أو مجتمع بأسره عن تحدٍّ، بابراز استجابة. فلو اقتصر الأمر على أبراز الاستجابة لتحدي معين، لكان معنى ذلك توقف المجتمع عن الارتقاء وصيرورته إلى تحجر على طول المدى. فالبدوي – مثلا – قد استجاب لتحدي بيئته بتنظيم أسلوب معيشته على النسق المعروف، لكنه توقف عن الارتقاء وأصبح يعيش اليوم مثلما كان يعيش أقرانه منذ آلاف السنين، إلى أن بدأت الحضارة الحديثة تغزو الصحراء وتحطم أسلوب حياة البدوي. والمثل يقال عن الاسكيمو.

وبعبارة أوضح، يجب أن يتواصل تأثير عملية الارتقاء. ويتم ذلك بأن يتعرض المستجيب للتحدي، لتحد جديد، يقتضي من جانبه استجابة أخرى، تبرز بدورها – على طول المدى – تحدياً، يقتضي بدوره استجابة.. وهكذا دواليك.

فهناك من الجماعات والاشخاص من تتصل استجابته للتحدي تلو التحدي، فتتواصل عملية ارتقائه، إلى أن تقيده همته – عن مواصلة الكفاح في الصعود إلى سلم الارتقاء، فيستسلم للعجز أو الزوال.

وبالأحرى، يبرز التحدي بعد الآخر، تمايزاً داخل نطاق المجتمع. وكلما طال أمد سلسلة التحديات، ازدادت قوة التمايز وضوحاً. وتتبدى لنا في محيط الفن صورة واضحة المعالم. فمن المسلم به أن كل حضارة توجد لنفسها طابعاً فنياً يكون علماً عليها، وبعبارة أخرى، تضفي الحضارات المختلفة درجات شتى من الأهمية على ضروب معينة لأوجه النشاط:

١ – تنزع الحضارة الهلينية بشكل ظاهر إلى حياة يغلب عليها طابع الجمال، بوجه عام.

٢ – الحضارتان السندية والهندية فيهما نزعة ظاهرة تتسم بغلبة الروح الدينية عليها.

٣ – تتسم الحضارة الغربية بالولع بالآلات. ويعني ذلك تركيز الاهتمام والجهد والكفاية على تطبيق استكشافات علم الطبيعة على الأغراض المادية، عن طريق استخدام العمل الميكانيكي المنظم في تشييد المحركات الاجتماعية مثل الدساتير البرلمانية وأنظمة الدولة الخاصة بالتأمين وجداول مواعيد التعبئة العامة.

بيد أنه مهما يكن من أمر التمايز بين الحضارات، فان ثمة حقيقة يؤكدها توينبي مدارها ان التنوع الذي يتبدى في الحياة والنظم البشرية، هو ظاهرة سطحية تحجب خلفها وحدة كامنة للبشرية لا يضيرها هذا التنوع..

خاتمة المطاف

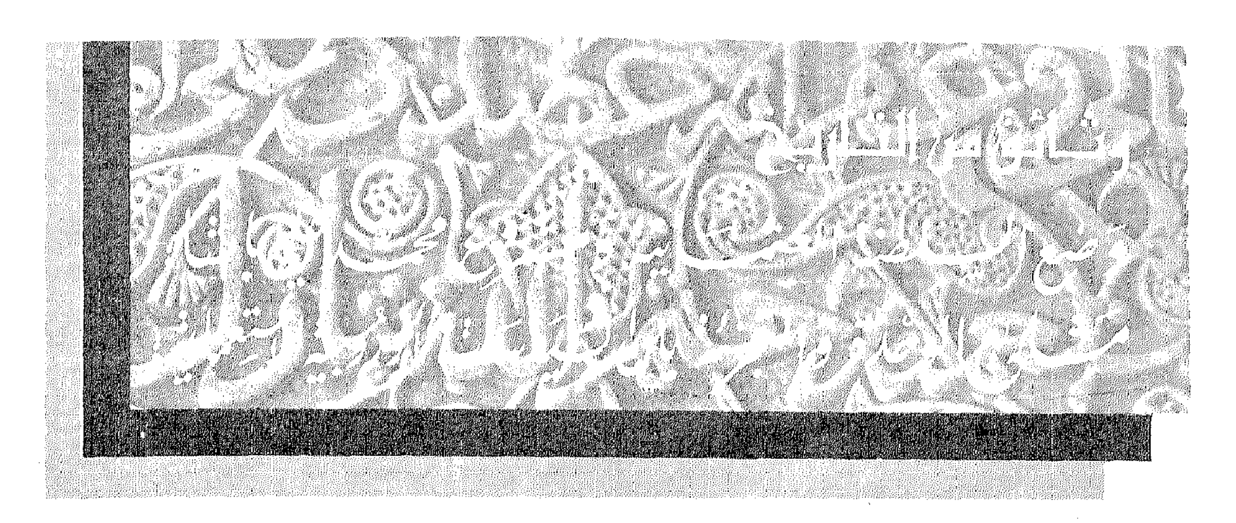
يستعرض توينبي تاريخ البشرية بأسره على أساس فكرة التحدي والاستجابة، ويستخلص عوامل ارتقاء المجتمعات ويتقصى الدوافع وراء انهيارها. ولا يعتبر توينبي التوسع السياسي والحربي في تحسين الأسلوب التكنولوجي، قاعدة تكفل قيام الارتقاء الحقيقي للمجتمع. فان التوسع السياسي والحربي هو – عادة – نزعة حربية تعتبر بدورها قرينة على تدهور المجتمع، لا ارتقائه.

ولا تبدي التحسينات التكنولوجية – سواء أكانت زراعية أو صناعية – الا ارتباطاً قليلاً – أو لا شيء البتة – بينها وبين الارتقاء الصحيح. وحقا فقد يرتقي الأسلوب التكنولوجي وقتما يكون التحضر الحق في مرحلة انحطاط والعكس بالعكس.

أما قوام الارتقاء الحقيقي، فهو عملية يطلق عليها توينبي كلمة «التسامي». ويعني بها التغلب على الحواجز المادية. وتعمل عملية «التسامي» على اطلاق طاقات المجتمع من عقالها، لتستجيب للتحديات التي تبدو داخل النفس أكثر مما تظهر خارجها. وطاقات المجتمع – من ثم – روحانية الطابع أعظم منها مادية.

ويرى توينبي أنه اذا كان العلم قد انتصر على الدين في بعض البلاد التي توصف بالتحضر انتصاراً ساحقاً، فان هذا الانتصار كارثة على العلم قبل الدين.. فان كلا من الدين والعقل ملكة جوهرية من ملكات الطبيعة البشرية..

فالحق أن سيطرة الانسان على الطبيعة المادية التي منحها العلم للانسان، هي أقل أهمية – إلى أقصى الحدود كما يقول توينبي – من أهمية علاقاته بأخوانه البشر وصلته بالله. ●



إعداد الدكتور وجيه كوثراني

تفتح المجلة باباً جديداً من أبوابها في عامها الثاني، هو باب: «وثائق من التاريخ». والمجلة إذ تنطلق من أهمية اعادة نشر بعض الوثائق التي تحمل موضوعات ذات صلة بمجرى التاريخ العربي الحديث والمعاصر، وذات اطلالة على مسائل حاسمة في تاريخ الصراعات التي لا تزال تفعل في تاريخ البلاد العربية والاسلامية، تود بتقديمها نماذج من تلك الوثائق، أن تجعل الوثيقة غير المنشورة، المختارة مباشرة من الارشيف، أو المنشورة في كتب قديمة نافدة ولا تتوفر الا في كبريات المكتبات العامة، ان تجعلها في متناول القارئ العربي، وان تسهل على طلاب البحوث الاطلاع عليها. والمجلة ترجو ممن يهتم بجمع الوثائق واقتنائها وممن يملك ارشيفا عائلياً محلياً، تزويدها بما يكون مناسباً للنشر، خدمة للعلم والتاريخ.

- وضع السلطنة العثمانية ومشروع محمد علي باشا:

- مشاريع الوحدة والتجزئة بين السياسات الأوروبية الاستعمارية:

وثيقة من: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان تعريب فيليب وفريد الخازن - المجلد الأول، ص ٢٦ - ٤٣.

* * *

● تركزت المسألة الشرقية (وهي مسألة تخص الغرب الاستعماري ومشكلاته وصراعاته في مواجهة مقاومة الشرق الاسلامي، فهي مسألة الغرب، لا الشرق)، تركزت على مسألتين مترابطتين: مسألة بناء دولة محمد علي باشا انطلاقاً من مصر، ومسألة استمرارية الدولة العثمانية وعلاقتها بالولايات العربية ولا سيما السورية.

هاتان المسألتان نبعتا في الواقع من طبيعة قوانين المجتمعات الاسلامية الداخلية: نشوء دول «الاطراف» و «دول الدعاة والخوارج على الدولة» وفق تعبير ابن خلدون، ونوعية علاقة مشاريع هذه الدول بـ «المركز». بيد أن هذه القوانين الداخلية للمجتمعات الاسلامية لم تعد

تأخذ مع تدخل الغرب الاستعماري مجراها الطبيعي، أي منطلق الصراع الداخلي الذي يتم في اطار الدولة الاسلامية ومجتمعاتها وقواها، بل أخذ الصراع يتكيّف ويتحور وفق منطق الصراع ما بين الدول الاستعمارية وتدخلاتها في مجريات الاحداث.

وهذا المنطق نلمسه في نص الوثيقة التي ننشرها على الصفحات التالية. وهي عبارة عن رسالة بعثها السيد تيارس، وزير خارجية فرنسا، إلى السيد غيزو السفير الفرنسي في لندن بتاريخ ٣ تشرين الأول ١٨٤٠، يعرض فيها وجهة نظر فرنسا في الصراع ما بين السلطان ومحمد علي باشا، ويكلف سفيره بتبيان «حقيقة الموقف الفرنسي بعد أن عرضه بلمرستون بصورة لا توافق عليها الحكومة الفرنسية».

و. ك.

رسالة المسيو تيارس وزير خارجية فرنسا إلى الميسو غيزو سفير دولته في لندرة بتاريخ ٣ ت ١ سنة ١٨٤٠ و ٦ شعبان سنة ١٢٥٦.

يا حضرة السفير: لقد اوقفتك على منطوق الرسالة التي انفذها اللورد بلمرستون الى الموسيو بولفر (سفير انكلترة في باريس) وفيها يوضح سلوك الحكومة الانكليزية في المفاوضات الخطيرة التي ختمت بابرام معاهدة ١٥ تموز. بيد ان هذه الرسالة التي يحلو لي ان اعترف بلهجتها المعتدلة الادبية تحتوي على تأكيدات وآراء يتعذر على حكومة الملك ان تدعها ترسخ في العقول. أجل أنه لا فضل ترك الماضي في زوايا النسيان وعدم الرجوع إلى مجادلات سبق تكرارها مراراً حباً بتلافي زيادة احراج الحالة عما هي لكنه خلا أنه يحق للورد بلمرستون ان يستاء من عدم الجواب على بلاغه فيجدر بيان حقيقة خطة كل دولة اثناء هذه المفاوضات لا سيما وأنهُ أُبلغ إلى جميع السفارات مطبوعاً وذاع أمره وعليه اصبح من المتحتم الجواب عليه. واني لارجو أن يرضي هذا الجواب الذي ارسله اليك الآن الحكومة الانكليزية ويكشف الغطاء عن المداولات التي تبودلت بين الوزارات ويوليها معناها الحقيقي. فتفضل بتسليم وزير خارجية جلالة ملكة الانكليز صورة عنهُ.

رأي بلمرستون في السياسة الفرنسية:

إذا ما كنت أحسنت فهم مآل رأي اللورد بلمرستون فيمكنني تلخيصه كما يلي:

«إن بريطانيا العظمى وهي منزهة عن كل غاية في المسألة الشرقية لم تسع إلا لغرض واحد وهو استقلال السلطنة العثمانية وسلامة كيانها وهذا ما اقترحته على جميع الدول فقبلن به أجمع وسعين إلى تحقيقه على السواء وفي عدادهن فرنسا. ولذلك كان من الواجب تخفيف مطالب خديوي مصر وأبعاد حدود املاك هذا التابع الطماع وجيوشه ما امكن عن جبال طوروس وكان الأفضل جعل الصحراء حداً فاصلاً بين السلطان وتابعه الخديوي والاقتصار على اعطاء مصر لمحمد علي وإعادة سوريا إلى السلطان عبد المجيد بحيث تمسي صحراء سوريا حاجزاً بين البلادين فتأمن السلطنة العثمانية وأوروبا المهتمة بخلاصها من اطماع الاسرة المصرية.

«وهذا ما عالنته انكلترة في جميع ادوار المداولات. وكان قد خيل ان فرنسا وافقت الدول على رأيها وصرحت مثلهن باستقلال السلطنة العثمانية في النطاقة الاجماعية الموقعة في الاستانة في ٢٧ تموز سنة ١٨٣٩ وفي نشرتها المنفذة في ١٧ منه إلى جميع الحكومات. بيد انها حباً بصالح الخديوي خالفت هذه القاعدة فيما بعد وطلبت تجزئة السلطنة مما ينافي سلامة كيانها. فالدول الأربع الموقعة نطاقة ١٥ تموز رغبة في الحصول على مساعدة فرنسا الححن عليها تكراراً لاستمالتها إلى رأيهن حتى إنهن أكثرن من التساهل معها فاضفن إلى مصر الموهوبة إلى سلالة محمد علي باشاوية عكا ما خلا موقعها ثم رضين بالحاقه بالايالتين السابقتين الذكر. فذهبت جميع هذه المساهلات سدى لأن فرنسا أصرت على مخالفة القاعدة التي رأت الدول الخمس أن تعلنها بالاشتراك.

«وعليه لم تتمكن الدول المذكورة من اقتفاء

اثرها. بيد انه مع شدة رغبتهن في الحصول على عضدها اضطررن إلى الافتراق عنها وتوقيع صك يجب الا تستغربه لما انها نُبهت غير مرة إلى أنه إذا لم يحصل اتفاق الجأها الأمر إلى الاقتصار على حل المسألة بواسطة الدول الأربع فقط. ولما كانت الدول الأربع متفقة على مسألة هي على جانب من الخطورة فلم يكن بوسعهن الاستمرار على تضحية رأيهن ونياتهن المنزهة عن كل أرب ذاتي في سبيل دولة خامسة. ولذلك فان اللورد بلمرستون أوضح مراراً عديدة إلى سفير فرنسا ان الاقتراح الذي تضمنه صك اتفاقية ١٥ تموز هو بمثابة انذاره النهائي حتى إذا رفضته فرنسا فلا يعرض غيره. فأضطر في آخر الأمر إلى تركها وشأنها لئلا تفنى السلطنة العثمانية من جراء التسويف والتردد. فلا يمكن والحالة هذه اتهام الدول الأربع بانها ارادت اهانة فرنسا بهذه المناسبة. وخلا ما تقدم فان الدول الأربع قد نهجت هذا النهج وهي تذكر أن فرنسا كانت قد عرضت بلسان سفيرها في لندره في شهر ايلول سنة ١٨٣٩ مشروع تسوية مؤسس بوجه التقريب على ذات دعائم اتفاقية ١٥ تموز وانها لما عاكست فيما بعد مشروع انكلترة اعترفت بافضلية الثاني على غيره إذا ما استثني منه صعوبة تنفيذه وخطر الوسائل المراد استعمالها. ومجمل القول انها اظهرت في كل آن قصدها عدم عرقلة وسائل تنفيذه وعليه كان يحق للدول المشار اليها ان تعتقد انه إذا كانت فرنسا قد رفضت لاسباب خاصة الانضمام اليهن لاكراه محمد علي على الامتثال لارادتهن بالقوة فعلى الأقل لا تعاكس مساعيهن وانما تساعدهن باستعمال نفوذها الأدبي في الاسكندرية. ولا تزال الدول الأربع ترجو أنه متى نفذت اتفاقية ١٥ تموز تنضم فرنسا اليهن مجدداً لضمان بقاء السلطنة العثمانية بطريقة نهائية اهـ».

رد الوزير الفرنسي:

فهذه إذا لم اخطئ خلاصة أقوال اللورد بلمرستون والدول الأربع في المفاوضات التي جرت في المسألة التركية المصرية أوردتها بكل دقة.

فيتضح من قول اللورد بلمرستون المتقدم بيانه ان فرنسا ناقضت ذاتها بذاتها. فقد شاءت حفظ كيان السلطنة العثمانية واستقلالها ثم عدلت عن ذلك. وان الدول الأربع تساهلت معها كثيراً وجارتها في غير واحد من آرائها. وانهن اضطررن أخيراً إلى ابلاغها انذاراً نهائياً مبنياً على اقتراح سابق لسفيرها. وانهن لم يتركن فرنسا إلا بعد رفضها هذا الانذار. وانه يحق لهن ان يبدين تعجبهن من الطريقة التي قابلت بها فرنسا اتفاقية ١٥ تموز لأنه كان ينتظر منها الا تقتصر على الرضا بهذه الاتفاقية بل تمدها بنفوذها الادبي قياماً بوعودها.

بيد أن ايراد المسألة على جليتها سيمزق ما حاكته الرواية السابق الايماء اليها وعليه أقول:

لما اغتر الباب العالي بنصائح مضلة فهاجم الخديوي مجدداً وخسر في الوقت ذاته جيشه واسطوله ثم تلت هذه الخسائر وفاة السلطان محمود لما هو الخوف الذي اعترى فرنسا وانكلترة وكانتا إذ ذاك على أتم وفاق؟ هو أن يريا ابراهيم باشا المنتصر مجتازاً جبال طوروس ومهدداً الاستانة مما يجر إلى دخول الجند الروسي حاضرة السلطنة العثمانية وقد شاركها في هذا القلق جميع أصحاب العقول الراجحة في أوروبا.

فماذا اقترح إذ ذاك اللورد بلمرستون؟ انه اقترح على فرنسا أولاً باسمه الخاص وثانياً باسم حكومته ضم الاسطولين الانكليزي والفرنسوي وتوجيههما إلى شواطي سوريا وانذار الفريقين المتحاربين بايقاف رحى القتال وتأييد هذا الانذار بالوسائل البحرية ثم استجازة الباب العالي بدخولها الدردنيل أو اجتياز هذا المضيق الشهير عنوة إذا كان القتال بين الخديوي والسلطان قد أوصل الجند الروسي إلى الاستانة.

وبناء على ما تقدم فان الذي كانت تعنيه إذ ذاك انكلترة وجميع الساسة البصيرين بعواقب الأمور «بسلامة كيان السلطنة العثمانية وحفظ استقلالها» هو وقايتها من استئثار الجيوش الروسية بحمايتها ومنع الخديوي من الزحف على الاستانة تلافياً لهذا الخطر.

فاستصوبت فرنسا هذا الرأي واستخدمت نفوذها لدى محمد علي ونجله لايقاف زحف الجيش المصري الظافر فتم لها ذلك ثم انها رغبة في استدراك الخطر الاعظم القائم بدخول الجيوش الروسية الاستانة رأت أنه يخلق قبل الاقدام على اجتياز مضيق الدردنيل عنوة

أن تستحصل من الباب العالي اذناً بدخول الاسطولين فيما لو عبر فيلق من الجنود الروسية البوسفور.

فقبلت انكلترة هذه المقترحات وتعاهدت الحكومتان على السير بموجبها. وهنا يحسن بنا أن نوضح ان الفاظ «استقلال السلطنة العثمانية وسلامة كيانها» لم يكن معناها نزع بعض الانحاء التي احتلها محمد علي من يده بل صدّه عن الزحف على حاضرة السلطنة لئلا يجر وجود الجنود المصرية فيها إلى دخول الجنود الروسية.

ولقد اعترف حضرة وزير خارجية جلالة ملكة الانكليز اثناء محادثته المسيو بوركنه بهذا الشأن في ٢٥ ايار و٢٠ حزيران بوجود ميل في فرنسا وانكلترة إلى الاسرة المصرية وان هذا الميل في فرنسا أعم منه في انكلترة. وأن على الحكومة الفرنسوية أن تكون من جراء ذلك موالية لحكومة محمد علي أكثر من الحكومة الانكليزية. وأنه لا ينكر أن هذه العقدة من العقد الصعبة الحل لكنها ثانوية إذ يجب اخضاع هذه البواعث لداعٍ أعلى وأعظم أهمية وهو أنقاذ السلطنة العثمانية من استئثار دولة واحدة بتظليلها بحماية قتّالة لها عاجلاً أو آجلاً إذا لم تتفق فرنسا وانكلترة.

وكانت فرنسا تشاطر هذه الآراء وهي ترمي بسياستها هذه إلى بلوغ غرضين أحدهما ايقاف الخديوي يوم يحاول ان ينتقل من موقف التابع القوي الخاضع إلى موقف التابع العاصي المهدد عرش متبوعه والآخر ابدال حماية دولة واحدة بحماية الدول العظمى الخمس في أوروبا. ولهذه الغاية وقعت فرنسا بالاشتراك نطاقة ٢٧ تموز المراد بها توسط الدول الخمس بين السلطان المغلوب والخديوي الغالب وانفذت في ١٧ تموز نشرة إلى جميع حكومات أوروبا لحملهن على المجاهرة معها باحترام سلامة كيان السلطنة العثمانية وهي التي فاتحت الدول باشراك النمسا وبروسيا والروسية ذاتها بجميع القرارات التي تتخذ في المسألة التركية المصرية.

لا ريب ان اللورد بلمرستون يذكر انه كان أقل من فرنسا ميلاً إلى إشراك الدول الخمس بالمسألة السابقة البيان. ولذلك إذا قابلت الحكومة الفرنسوية بين الماضي والحاضر لا تتمالك من أن تتذكر بمزيد الاسف ان الحكومة الانكليزية كانت تعتمد إذ ذاك على فرنسا خاصة لانقاذ السلطنة العثمانية.

ولم يكن إذ ذاك أحد يعتقد بأن كيان السلطنة العثمانية قائم بالحد الذي سيفصل أملاك السلطان عن أملاك الخديوي في سوريا وإنما كان الجميع متفقين على إنه متوقف على أمرين أحدهما منع ابراهيم باشا عن الزحف على حاضرة السلطنة والآخر وقايتها من نصرة الجنود الروسية. وكانت فرنسا وسائر الحكومات مجمعات على هذا الرأي وظلت ثابتة عليه.

ثم إن النمسا وبروسيا انصاعتا إلى آراء فرنسا وانكلترة أما الروسية فرفضت الاشتراك في المفاوضات التي كان يراد عقدها في ڤيانّا لاشراك أوروبا في حماية السلطان ولم تكن تستحسن مسارعة دول الغرب إلى التدخل في المسألة الشرقية. وقد كتب الموسيو نيسيلرود وزير خارجية الروسية إلى الموسيو دي ميدم في رسالة بتاريخ ٦ آب سنة ١٨٣٩ أبلغت رسمياً إلى الحكومة الفرنسوية: «أن الامبراطور لا يقنط من خلاص الباب العالي على شرط أن تحترم دول أوروبا راحته وأن لا يبدين حركة غير مواتية تكون نتيجتها زعزعة دعائمة وهي ترغب في توطيدها.». فيظهر مما تقدم ان الحكومة الروسية كانت ترى غير مناسب التوسط بين السلطان والخديوي معتقدة انه يكفي منع هذا الاخير من تهديد الاستانة وتعتبر أن أفضل حل للمسألة هو حصول اتفاق بين المتبوع والتابع مباشرة. وهذا ما قاله الموسيو دي نيسيلرود المشار اليه إلى سفير فرنسا في أوائل آب سنة ١٨٣٩: «ومن ثمة فلا يهمنا اعطاء الخديوي قسماً واسعاً من سوريا أو تقليل حصته فيها إنما شرطنا الوحيد هو أن يكون الباب العالي حراً في القرار الذي يتخذه بهذا الشأن».

وبناء عليه لم تكن في ذلك العهد الدول الأربع اللواتي وقعن فيما بعد معاهدة ١٥ تموز متفقة رأياً كما يراد أن يوهم اليوم ازاء فرنسا المنفردة عنهن والحائلة دون كل اتفاق باصرارها على رفض مشاركتهن.

ومذ أوقف ابراهيم باشا زحفه المحفوف بالنصر ابتعد الخطر وصار الفريقان المتحاربان ازاء بعضهما الخديوي ذو حول وبسطة والسلطان مغلوب خالٍ من

وسائل الدفاع. إنما كان الاثنان لا يبديان حركة بفضل تدخل فرنسا. وفي ذلك التاريخ اقترحت انكلترة أخذ الاسطول العثماني من يد محمد علي عنوة فأبت فرنسا عليها ذلك خشية اضرام نار القتال مجدداً. فبدأ عندئذ الخلاف المشؤوم الذي فرق بين فرنسا وانكلترة والذي يجب أن نأسف له دائماً حباً بالسلم وتمدن المعمور. وكان أن اتقدت جمرة الغضب في صدر الحكومة الانكليزية على خديوي مصر وبدت مظاهر الحنق منه بشدة فسعت فرنسا إلى تلطيفها وتوفقت إلى اقناعها بما في استعمال العنف من الخطر فعدلت عن استرجاع الاسطول العثماني بوسائل الاكراه.

ومن ثمة امسى من الضروري التداول لمعرفة كيفية حل الخلاف على حدود الاملاك بين السلطان والخديوي فانفرجت مسافة الخلاف بين آراء فرنسا وانكلترة وازداد تباينها فصرح اللورد بلمرستون بوجوب اعطاء الخديوي حكم مصر بالتوارث على شرط ان ينجلي حالاً لقاء ذلك عن المدن المقدسة وجزيرة كنديا وولايتي آطنه وسوريا بتمامهما. ثم عدل قليلاً آراءه الأولى ورضي بأن تضاف ايالة عكا خلا موقعها إلى امتلاك مصر بالتوارث.

فلم ترض فرنسا بهذه المقترحات لاعتبارها ان الخديوي يستحق زيادة مراعاة بانتصاره على السلطان في واقعة نزب دون أن يكون معتدياً وبقبوله التوقف عن الزحف في حين كان يستطيع مفاجأة السلطنة واسقاط عرش السلطان. ورأت أنه لا يحسن بالدول – وهي التي حرضته في سنة ۱۸۳۳ على القبول بمعاهدة كوتاهيا – أن توجب عليه شروطاً أشد تضييقاً في حين لم يفعل شيئاً من شأنه افقاده فوائد هذه المعاهدة. واعتقدت انه إذا أخذت منه المدن المقدسة وجزيرة كنديا وولاية اطنه – وهي موقع موافق للهجوم يجعل الباب العالي بمأمن من كل طارئ – توجب أن يُضمن له امتلاك مصر وسوريا بالتوارث.

إن انتصاره في واقعة نزب التي فاز بها دون سبق اعتداء هو كاف لاحرازه حق توارث فتوحاته من النيل حتى جبال طوروس بيد أنه لما كانت الدول قد ضربت صفحاً عن انتصاره في نزب وارادت أن تبيعه حق التوارث لقاء التنازل عن قسم من أملاكه الحالية فالعدالة تقضي بأن يكتفى باسترجاع قنديا واطنه والمدن المقدسة منه. وعدا ما تقدم فان فرنسا سألت عن الوسائل التي كانت تريد الدول استعمالها لاكراه محمد علي على الخضوع؟ لا ريب بان الحكومات الأوروبية كانت تقوى عليه لو شاء تهديد الاستانة إذ كان يكفيها ارسال اساطيلها إلى بحر مرمرا لايقاف زحفه. غير أنه ما هي الوسائل المتوفرة لديهن لنزع سوريا منه بالعنف؟ انها لوسائل غير فعالة كحصر الثغور وغير شرعية كالتحريض على الثورة أو كثيرة الاخطار ومخالفة للغاية المقصودة كالاستعانة بالجيش الروسي! ولذلك اقترحت فرنسا في ايلول سنة ۱۸۳۹ هبة الخديوي حكم مصر وسوريا بالتوارث. ولم يسبق لفرنسا في آن من الأوان أن اقترحت غير ما تقدم الا حديثاً لمّا أشارت على الخديوي أن يكتفي بامتلاك سوريا مدى حياته فقط. وقد محصت جميع رسائل الوزارة قبل استلامي أزمة الشؤون فلم أر فيها أن قد فوض إلى الجنرال سيباستياني أن يقترح جعل الحد الفاصل بين أملاك السلطان والخديوي التحديد المثبوت في معاهدة ١٥ أيلول ولا أنه استقل بهذا الاقتراح. ولم اكتف بذلك بل سألته عما يذكره في هذا الصدد فاكد لي أنه لم يقترح شيئاً من هذا القبيل. ومجمل الكلام ان فرنسا اقترحت في سنة ۱۸۳۹ منح محمد علي حكم مصر وسوريا بالتوارث لكنها لسوء الحظ كانت عامئذ على خلاف تام في الرأي مع انكلترة. ولم يطل الأمر حتى علمت أوروبا باسرها بهذا الخلاف الموجب دوام الاسف وكان من نتيجته أن أزال بسرعة تكاد تكون سحراً الخلافات التي كانت مستحكمة بين الدول الأربع فعقدن فجأة اتفاقاً بينهن ووثقن عراه. وأخذت النمسا تقول انها ستنحاز إلى الدولة التي تمنح السلطان حصة أكثر اتساعاً من حصة الخديوي في الأملاك مع انها كانت في بادي الأمر قد وافقت تمام الموافقة على مقترحاتنا وكانت على وشك ابلاغ ذلك لحكومة لندره ولم تؤجل هذا البلاغ على ما قالت لنا إلا لتفسح لنا في الاجل لنتفق مع انكلترة. بيد انها ظلت تحتج على امكان استعمال القوة ضد محمد علي وسبقت الجميع إلى بيان خطرها. ثم ان بروسيا اتبعت رأي النمسا. وأرسلت الحكومة الروسية إلى لندره الموسيو دي برونوي في شهر

أيلول سنة ١٨٣٩ لعرض اقتراحاتها وكانت عاكست قبلاً فكرة تدخل أوروبا بين السلطان والخديوي بحجة انها غير موافقة ورأت أن أفضل وسيلة اتفاقهما مباشرة. أما اليوم فانقادت إلى جميع التدابير التي يحسن في عين انكلترة اتخاذها بخصوص حدود أملاكهما وطلبت أن يُسمح لها ان تحمي الاستانة بجيشها باسم الدول الخمس فيما لو استؤنف القتال بينا الاسطولان الانكليزي والفرنسوي يحصران ثغور سوريا.

على ان هذه الاقتراحات جاءت محتوية على تدبير كانت تعده انكلترة حتى ذلك الحين من أشد الاخطار على السلطنة العثمانية الا وهو استئثار الجيش الروسي بحماية السلطنة. وهذا الخطر ناجم ليس عن امكان طمع الجيش الروسي باحتلال الاستانة دائماً بل عن أن الروسية باضافتها إلى حادث سنة ١٨٣٣ حادثاً مطابقاً له من جميع الوجوه تكون قد أوجدت لذاتها سابقة تتخذها حجة لها في المستقبل. فلم تقبل هذه المقترحات فغادر الموسيودي برونوي لندره وعاد اليها في شهر كانون الثاني سنة ١٨٤٠ مصحوباً باقتراحات جديدة وهي تختلف عن الأولى من جهة انها تولي كلا من فرنسا وانكلترة حق ادخال ثلاث بوارج إلى قسم محدود من بحر مرمرا اثناء احتلال جيوش الروسية الاستانة فطالت المخابرات عدة أشهر أي من شهر شباط حتى شهر تموز سنة ١٨٤٠. وفي هذه الفترة عهد بادارة الشؤون في فرنسا إلى وزارة جديدة فعينت سفيراً جديداً. وما برحت الوزارة الفرنسوية تكرر انه ليس من العدل قطع سوريا من الاملاك المصرية وانه إذا كان من امكان الخديوي القبول به فلا يسع فرنسا أن تكون أكثر طمعاً منه لذاته. بيد انه إذا وجب نزع سوريا منه بالقوة فحكومة فرنسا ترى أن الوسائل المراد استعمالها لبلوغ هذا الغرض غير كافية بل مخطرة وإذا ألجأ الأمر إلى ذلك فهي تنفرد عن سائر الدول وتنهج نهجاً خاصاً.

وبينما كانت الحكومة الفرنسوية تخاطب حكومة لندره بهذه اللهجة الصادقة ثابتة على عهدها لم يسع سفير فرنسا في الاستانة إلى التوسط بعقد اتفاقية بين السلطان والخديوي مباشرة ولم ينفرد عن سائر السفراء كما أشار إلى ذلك اللورد بلمرستون تلميحاً دون أن يؤكده. ان ممثلنا في الاستانة لم ينهج قط الخطة التي نسبت اليه كما أن الحكومة لم توعز اليه بها مطلقاً. أجل ان فرنسا لم تفتر عن السعي إلى التقريب بين السلطان والخديوي واقناعهما بالتساهل المتبادل تمهيداً لاتمام المهمة الخطيرة التي أخذتها أوروبا على عاتقها. لكننا لم ننفك عن توصية الكونت دي بونتوي والموسيو كوشيلة ان يتجنبا بمزيد العناية كل ما يمكن أن يعد محاولة منا للانفصال عن سائر الدول فاتبعا هذه التوصية بدقة ولم يخالفاها.

ثم أن انكلترة أصبحت في موقف تحتم عليها فيه أن تختار بين الروسية المقترحة عليها اهمال الخديوي على شرط القبول بمقترحات الموسيو دي برونوي أي رضا أوروبا بتنفيذ معاهدة انكيار اسكلة سي وبين فرنسا المقتصرة على طلب جريان مفاوضة عادلة معتدلة بين السلطان ومحمد علي من شأنها استدراك نشوب قتال جديد يجر وراءه اخطاراً أشد هولاً على سلامة كيان السلطنة العثمانية الا وهي استئثار دولة واحدة عظيمة ببسط سيادتها المادية توا عليها. ان وزارة لندره لم تعرض علينا الاقتراحات المحكي عنها لاستمالتنا إلى ارائها قبل ان تختار بين الروسية وفرنسا بل قصرت مساعيها على اقتراح واحد. ففي سنة ١٨٣٩ كانت رضيت بمنح الخديوي حكم مصر وايالة عكا الا موقعها مع حق توارثهما. أما في سنة ١٨٤٠ فان اللورد بلمرستون أرتأى منح الخديوي ايالة عكا مع قلعتها دون حق التوارث. لامراء انها انقصت من اقتراحها أكثر مما زادت عليه فلا يمكن والحالة هذه عد هذا الأمر اقتراحاً جديداً واعظم فائدة من الأول.

بيد أن هذا الاقتراح الذي لا يستحق ان يلقب باقتراح جديد لخلوه من فائدة جديدة لم يكن له صفة انذار ولم يرفع الينا على هذه الصورة ولم نكن نتصوره بهذا الشكل لأننا بناء على تلميح صادر من الموسيو دي بيلوف والموسيو دي نومان (سفيري بروسيا والنمسا) علقنا الامال على امكان استحصال حكم سوريا للخديوي مدى حياته مع امتلاك مصر وحق توارثها. ثم أنه لما أكد لنا المشار اليهما انه إذا بسط هذا الاقتراح يكون آخر حدّ لتساهل اللورد بلمرستون أوفدنا الموسيو اوجان بريبه إلى الاسكندرية ليعد الخديوي إلى القبول بتسوية خلناها انها آخر ما يمكن الرضا بها. ولم يكن هذا العمل كما قال اللورد بلمرستون بمثابة اخضاع المفاوضات لارادة خديوي مصر بل تمهيد السبيل للتوفيق بين رأيين متعاكسين ابراماً لعقد تسوية حية تستدرك المشهد المحزن المبسوط الآن أمام العالم.

وكان يحق لفرنسا الاعتقاد ان مفاوضات طويلة كهذه لا تختم دون مداولتها وأن المحالفة العظيمة المفيدة التي تربطها بانكلترة منذ عشر سنوات لا تحل عراها دون بذل سعي أخير للتقريب بينهما. ومما أحيا فيها هذا الامل التلميحات التي أبديت لها والمقصود بها حملها على الاعتقاد بامكان اعطاء سوريا للخديوي مدى حياته. على أنه في ١٧ تموز استدعي اللورد بلمرستون سفيرَ فرنسا إلى وزارة الخارجية فجأة وأخبره بأن قد وقعت معاهدة في اليوم الاسبق دون أن يطلعه على نصها. فاستغربت الوزارة الفرنسوية بكل حق هذا التصرف. نعم انها لم تكن تجهل أن دول أوروبا الثلاث انصاعت لآراء انكلترة بحيث أمسى من الممكن ابرام اتفاقية بينهن دون فرنسا إنما كان لها ان تعتقد ان هذه الاتفاقية لا توقع قبل تنبيهها وان انكلترة لا تضحي المحالفة الفرنسوية بهذه السرعة.

ان عرض الخديوي على السلطان في شهر تموز اعادة الاسطول العثماني - وقد عني ان ينتج عنه عقد اتفاق بينهما توا اقترحناه سراً - ثم أن ما ظهر في ذلك الحين من امكان اثارة سوريا هما على ما يبان السببان اللذان دفعا الحكومة الانكليزية إلى اتخاذ هذا القرار الفجائي بعد سبات طويل. فلو كانت الحكومة الانكليزية رضيت بمفاوضتنا مفاوضة نهائية صادقة لتمكنت الحكومة الفرنسوية من أن توضح لها انها لم توعز إلى الخديوي باعادة الاسطول تمهيداً للاتفاق بينه وبين السلطان تواً لانها لم تعلم بما عرضه الأول إلا بعد ان فعل وربما كانت تمكنت أيضاً من اقناعها ان اثارة سوريا لوسيلة غير شريفة لا تفي بالمقصود.

فهذه هي الحوادث التي تؤكد فرنسا صحتها بصدق ونزاهة جديرين بأمة عظيمة. وينتج عنها بكل جلاء:

خلاصة الموقف الفرنسي

أولاً: ان قد فُهم في بدء المفاوضات من عبارة «استقلال السلطنة العثمانية وسلامة كيانها» ما طالما جهرت به فرنسا أي انه ليس المقصود بها ايلاء السلطان أو الخديوي حصة في الاملاك أوسع من الآخر بل ضمانة الدول الخمس عدم زحف محمد علي على حاضرة السلطنة ومنع استئثار دولة واحدة منهن بحماية تركيا.

ثانياً: ان فرنسا لم تبدل قط رأيها في المسألة التركية المصرية ازاء الدول الأربع المتفقة رأياً ونية بل حافظت عليه ولم تحد عنه في حين انها نظرت الدول الأربع المختلفة في بدء الأمر متحدة فيما بعد بقصد تضحية الخديوي وشاهدت انكلترة - وقد أرضتها هذه التضحية - تقترب من الدول الثلاث الباقية وتعقد معها اتحاداً فجائياً ثابتاً في مقاصده لكنه موجب لقلق البال نظراً للقرارات التي يتخذها.

ثالثاً: انه لم يعرض على فرنسا تكراراً مساهلات لاستمالتها إلى مشروع الدول الأربع لانه أكتفي بأن عرض عليها في سنة ١٨٣٩ اضافة ايالة عكا دون موقعها إلى حكومة مصر أنما مع حق توارثها ثم عرض عليها في سنة ١٨٤٠ الحاق الموقع بالايالة إنما بدون توارث.

رابعاً: انها لم تنبه كما قيل إلى أن الدول تنفصل عنها إذا لم توافق على آرائهن. وفيما كانت تنتظر بكل حق أن يعرض عليها اقتراحات جديدة إذ وقعت الدول فجأة - عند شيوع خبر سفر سامي بك (معتمد الخديوي) إلى الاستانة وثورة سوريا - اتفاقية ١٥ تموز دون افادتها ولم تخبرها عنها الا بعد توقيعها ولم تطلع على نصها إلا بعد شهرين.

خامساً وأخيراً: انه ليس للدول ان تعتقد بقبولها تنفيذهن هذه المعاهدة دون ان تبدي حراكاً لانها إذا كانت الحت خاصة في بيان تعذر استعمال وسائل التنفيذ فلم يصدر منها عدم اكتراث في غايتهن وتدابيرهن يجوز أن يتخذ دليلاً على انها لا تتدخل في ما يحدث في كوائن الشرق بكل الأحوال. بل بالعكس صرحت دائماً بأنها تنفصل عن الدول الأربع إذا اتخذن بعض قرارات لانها لم تعهد قط إلى أحد معتمديها ان يقول كلمة يمكن أن يستنتج منها أن هذا الانفصال يفيد الاعتزال والقعود عن كل عمل لكنها طالما قصدت كما تقصد اليوم الاحتفاظ بحريتها التامة بهذا الشأن.

وكان بود الوزارة الفرنسوية أن تتحاشى العود إلى هذه المجادلات لو لم تضطرها اليها نطاقة اللورد بلمرستون ومع ذلك فهي مستعدة لتناسيها بحثاً في

أساس المسئلة والفاتا لنظر وزير خارجية جلالة ملكة بريطانيا إلى ما في الحالة الحاضرة من الخطر الداهم.

رأي فرنسا في انتزاع سوريا عن نفوذ الخديوي:

إن كيان السلطنة العثمانية في خطر وانكلترة تهتم لذلك فلا غرابة في الأمر بل هي محقة وعلى جميع الدول المحبة السلم ان تهتم بهذه القضية ولكن ما السبيل لتوطيد أركان هذه السلطنة؟ لما عجز سلاطين الاستانة عن إدارة شؤون الولايات الواسعة الخاضعة لهم ورأوا الفلاخ والبغدان وحديثاً اليونان تفلت من يديهم تدريجاً فكيف تصرفت الدول إذ ذاك؟ هل أصدرت قراراً وسعت لاعادة هؤلاء الرعايا إلى حكم السلاطين بواسطة جنود روسية وأساطيل انكليزية؟ كلا. فانهن لم يحاولن اتيان المجال ولم يعدن إلى السلاطين الولايات التي بدأت بالانفصال عن السلطنة بل تركت لهم سيادة أسمية على الفلاخ ونزعت اليونان من يدهم تماماً. هل فعلن ذلك بقصد ظلم تركيا والبغي عليها؟ كلا ثم كلا. بل إن حكم الظروف وهو – أقوى من قرارات الدول – قد حال دون إعادة سيادة الباب العالي المطلقة على الفلاخ والبغدان وسيادته الاسمية على اليونان. ولم يذق الباب العالي طعم الراحة إلا بعد أن بترت منه هذه الاعضاء. فما هي المقاصد التي صدرت عنها الحكومات في قطعها من جسم تركيا؟ هي ايلاؤها استقلالاً بحيث تكون بمأمن من اطماع الدول المجاورة. ولما كان قد تعذر عليهن أحياء دولة كبيرة منها اردن أن تؤلف الأجزاء المنفصلة حكومات مستقلة عن سائر الممالك المجاورة.

وقد جرى منذ بضع سنوات مثل هذا الحادث المتقدم ذكره بشأن مصر وسوريا. هل دانت مصر حقيقية في زمن من الازمان لحكم السلاطين؟ لا أحد يعتقد ذلك كما لا يفكر احد قط اليوم بامكان تسليم شؤونها إلى حكومة الاستانة توا. ولا شك ان الدول الأربع مجمعة على ذلك لانها منحت محمد علي حكم مصر بالتوارث مع الاحتفاظ بسيادة السلطان. وهي تفقه كفرنسا المراد بعبارة «سلامة السلطنة العثمانية» فاقتصرت على أن تحفظ له ما يستطيع ابقاءه تحت سيطرته. وهن يردن بقدر الامكان ربط الاجزاء المنفصلة عن السلطنة برباط التابعية.

وقصارى القول انهن يردن ما تريده فرنسا. إن الدول الأربع مع اعطائها التابع ذي الطالع السعيد الذي احسن ادارة مصر حق توارث هذه الايالة لسلالته وهبته أيضاً ايالة عكا لكنها بخلت عليه بالايالات الثلاث الباقية وهي دمشق وحلب وطرابلس ودعت هذا العمل «حفظ كيان السلطنة العثمانية» كأن استثناء طرابلس ودمشق وحلب يحفظ السلطنة العثمانية! اننا نجهر علانية انه يتعذر اثبات هذا المذهب جدلاً وبرصانة أمام أوروبا.

ومن الجلي ان لا بد من أسباب عادلة وسياسية لمنح محمد علي هذه الايالات ونزعها منه. ان خديوي مصر قد أسس دولة تابعة بطريقة مطردة وبحذاقة تدل على سمو مداركه ودهائه وعرف ان يدير شؤون مصر وسوريا ذاتها التي عجز السلاطين في كل آن عن بسط حكمهم عليها. فالمسلمون – وقد جرحت عواطفهم وأذلوا طويلاً – يرون فيه أميراً مجيداً يحيي فيهم الشهامة ويشعرهم بقوتهم. فلماذا أضعاف هذا الأمير التابع المفيد الذي سيصير أعظم معاون لمولاه متى فصلت حدود أملاكهما عن بعضها؟ فقد سبق له ان عاون السلطان على اليونان فكيف لا يعضده إذا اشتبك في قتال مع جيران من مذهب مخالف لمذهبه؟ إن مصلحته خير ضامن لاخلاصه وامانته. إذ كلما هددت الاستانة امست الاسكندرية في خطر أيضاً. فمحمد علي يعرف هذا الأمر ويبرهن في كل يوم على انه يفقهه.

إذا أريد حفظ سلامة السلطنة العثمانية من الاستانة حتى الاسكندرية ينبغي ابقاء السلطان والخديوي معاً وربط هذا الاخير بمولاه برباط التابعية. وأحسن حد للفصل بينهما جبال طوروس. انما يراد أخذ مفاتيح هذه الجبال من الخديوي فليكن ولتعد إلى الباب العالي وليسلخ من محمد علي قضاء آطنه. ويراد أيضاً انتزاع مفتاح الارخبيل فلتؤخذ منه قنديا وهو يرضي بالتخلي عنها. ان فرنسا – التي لم تعد بوضع نفوذها الادبي قيد تنفيذ أحكام معاهدة ١٥ أيلول على أنها تبذله حباً بالسلم – قد أشارت على محمد علي بهذه المساهلات فقبل بها وفي الحقيقة ان سلخ ايالتين أو ثلاث من يد الخديوي لتسليمهما ليس للسلطان بل للفوضى وضمان فوز مذهب حفظ سلامة السلطنة العثمانية وقد سلخت عنها اليونان ومصر وايالة عكا واستهداف هذه السلطنة إلى الخطر العظيم الوحيد الذي يهددها – وهو الذي ارتاعت منه انكلترة في السنة المنقضية فعرضت اجتياز الدردنيل بالقوة

لاستدراك وقوعه - لهي طريقة غريبة في تدبر هذه المصالح الخطيرة. ومع ذلك فلنفرض أن رأي الحكومة الانكليزية أسد من رأي الحكومة الفرنسوية. أليست محالفة فرنسا أفضل لحفظ سلامة السلطنة العثمانية والسلم العام من أي تحديد كان في سوريا؟

وما كانت «سلامة السلطنة العثمانية» لتشغل الأفكار وتقلق البال إلى هذا الحد لو لم يخش من حدوث تبدل عظيم في حدود الممالك أو نشوب حرب تجعل هذا التبدل في حيز الامكان. وعليه فما هي أفضل طريقة لتدارك هذه الأخطار؟ أليس تحالف فرنسا وانكلترة؟ سلوا الشعوب من ثغر قاديس في (اسبانيا) إلى شواطئ نهري أودير والدانوب سلوهم رأيهم في هذا الشأن فيجيبونكم ان هذا التحالف حفظ السلم واستقلال الممالك منذ عشر سنوات دون أن يضر بحرية الأمم.

لقد قيل ان عرى هذه المحالفة لم تحل وانها ستوثق بعد بلوغ الغرض المقصود من معاهدة ١٥ ايلول. فمن الضلال الاعتقاد ان تلفى فرنسا كاظمة غيظها بعيدة عن الحذر والريبة بعد أن تكون انفردت الدول الأربع عنها وسعت ضد ارادتها إلى غاية مضرة - جهرنا بها ولو توهماً - متوسلة إلى ذلك بمحالفة أشبه بالاعتصابات التي أسالت الدماء في أوروبا منذ خمسين سنة فانه لم يسبق لفرنسا ان راضت نفسها للقبول بهذا المظهر الذي تأباه عليها شهامتها الوطنية.

وعليه فقد ضحي مجاناً وفي سبيل نتيجة ثانوية محالفة حفظت استقلال السلطنة العثمانية وسلامتها أكثر مما ضمنته معاهدة ١٥ تموز.

ولرب معترض يقول انه كان على فرنسا ان تفكر هذا الفكر بحيث إذا ما رأت مسألة الحدود في سوريا ثانوية كان في وسعها ان تنقاد إلى آراء انكلترة وتبتاع بهذا التساهل توطيد اركان المحالفة. فالجواب عليه غاية في السهولة فلو كانت فرنسا اتفقت مع حليفاتها على الغرض المقصود لكانت تنازلت لهن ليس عن أمور جوهرية لا تتوجب على دولة تجاه الأخرى بل عن آرائها الخاصة في بعض مسائل تتعلق بالحدود. وقد برهنت على ذلك حديثاً بطلبها إلى الخديوي بعض مساهلات وحصولها عليها. بيد أنه لم يترك لها الخيار في الأمر ولم تخبر عن المحالفة الجديدة إلا بعد ابرامها ومن ذلك الحين لم تحد عن سياستها السلمية فلم تفتر عن نصح خديوي مصر بوجوب الاعتدال التام بمطالبه. ومع كونها تامة أهب القتال وحرة في سلوكها فانها تبذل كل جهدها لتقي العالم من الكوارث وترضى بكل الضحايا خلا التي تمس شرفها حباً بحفظ السلم. وإذا ما كانت اليوم تخاطب الحكومة الانكليزية بهذه اللهجة فليس من قبيل التذمر بل لتبرهن عن صدق سياستها لبريطانيا العظمى وللعالم أجمع اذ لا يوجد دولة اليوم مهما كانت قوية يمكنها الاستخفاف بالرأي العام. ان وزير خارجية ملكة الانكليز قد شاء ان يثبت صحة دعواه فترتب على وزير خارجية ملك الفرنسويين أن يبرهن عن صدق السياسة الفرنسوية ونزاهتها في مسألة الشرق الخطيرة وهو واجب مديون به لمليكه ولوطنه. فتفضل الخ. ●



● أصبحنا اليوم نطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة. أما من يعبد أمسه وينسى غده، فهو من أبناء الموت وأنصار القبور الساخرة.

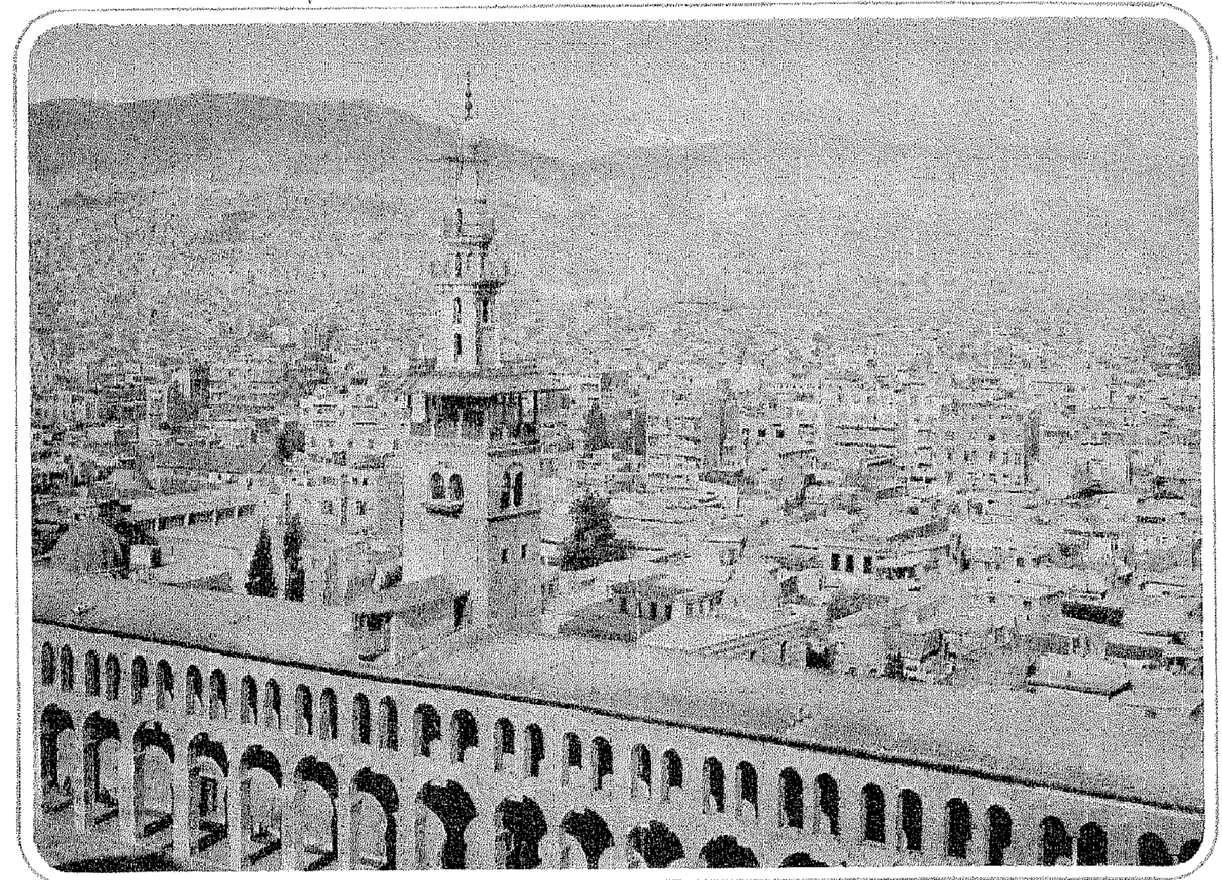
أبو القاسم الشهابي

ملف الوطن العربي

سورية

ساحة المعارك الفاصلة في تاريخ الشرق

اعداد «قسم الابحاث والدراسات»



مقدمة: لماذا تحتل «أرض الشام»[1] مكانة فريدة في العالم وكان لها فضل في رقي العالم من الناحيتين الفكرية والروحية أجلّ شأنا من فضل أي بلد آخر؟[2].

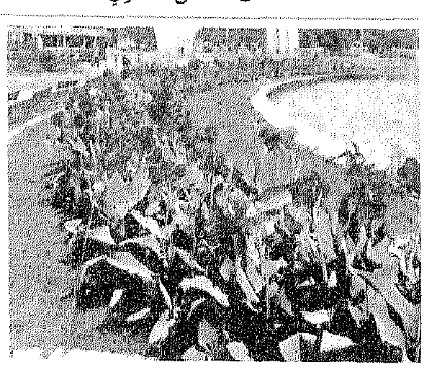
لا شك ان لموقع البلاد الجغرافي دوراً كبيراً في ذلك، إذ ان سورية الطبيعية تقع على مفترق طرق التيارات الحضارية الكبرى في التاريخ وكانت بالفعل محور تاريخ الشرق القديم بكل تراثه وغناه اللذين لم ينفض الغبار عنهما حتى اليوم بالكامل.

* * *

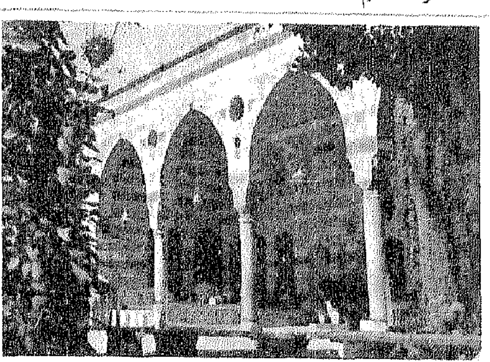
● استناداً إلى أبحاث المؤرخ العربي الكبير نسيب وهيبه الخازن[3] يبدو أن بلاد الشام، بحضاراتها وآثارها، بهرت المؤرخين والرحالة الأجانب، ولا تزال إلى اليوم، إلى حد انهم اطلقوا احكاماً مبرمة يتجنب المتخصصون والبحاثة الخوض في متاهاتها بسبب خصوصية علم التاريخ والعلوم الانسانية والتقنية المتعلقة به في شكل مباشر أو غير مباشر:

● كتب يانوفسكي دافيد في مجلد العام ١٨٥٢ من سلسلة كتب «لونيفير» (الكون): «ما من بلد حبته الطبيعة بما اغدقته على سورية، وناله من يد

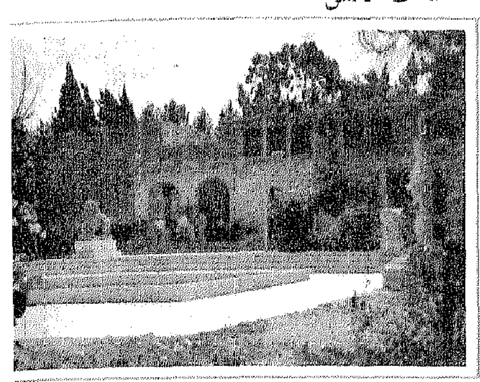
معرض دمشق الدولي



قصر العظم



متحف دمشق



الانسان ما نال سورية من المحن».

● وفي اعوام ١٨٦٥ - ١٨٧٧ ظهرت دراسات ضخمة كشفت عن وجه سوريا البهي في مجلدين للكونت ملكيوردي فوغويه حيث قال: «انني اتردد في اطلاق اسم الخرائب على مدن تجعل الزائر هائم الخيال في ماض ذي حضارة ضائعة. ففي مساحة لا تتعدى الأربعين ميلاً تقوم أكثر من مئة مدينة تكشف عن مدنية كنا نجهلها، وعن حياة ماضية بلغت أوج الرقي بين القرنين الرابع إلى السابع بعد الميلاد: هنا الحياة المسيحية الأولى، لا في الذل والاضطهاد اللذين سادا الغرب بل في يسر وعظمة، وفي جو من التفنن غمر المنازل الفخمة، والحدائق وكروم العنب والزيتون، ومعاصر الخمر والزيت، والمطابخ الأنيقة واسطبلات الخيول المطهمة وساحات تقوم حولها بوابات الحمامات، وكنائس في منتهى الروعة بأعمدتها وبروجها وهندستها ومقابرها ونقوش تعلن الانتصار المسيحي».

● وفي كتاب الفيلسوف الالماني اوزوالد شبنغلر الذي ظهر اوائل هذا القرن يقول الفيلسوف الشهير: «ان سورية بدون امبراطورية وبدون لغة انفردت بها، قد أثرت في تاريخ البشر تأثيراً لم تبلغه أمة من الأمم».

● وقال رحالة انكليزي عن تدمر: «ايتها المدينة الباهرة السناء، لو كتب تاريخك لكان وحده نصف تاريخ البشرية».

عرب «الشام» قبل الإسلام

يمكن تأطير تاريخ «أرض الشام» قبل الاسلام ضمن أربع مراحل تاريخية هي:

● عصور ما قبل التاريخ (الالف الرابع والثالث ق. م. بالنسبة إلى الشرق القديم).

● العصر السامي من عهد الأموريين حوالي العام ٢٥٠٠ ق. م. حتى سقوط الامبراطورية البابلية الجديدة (الكلدانية) العام ٥٣٨ ق. م.

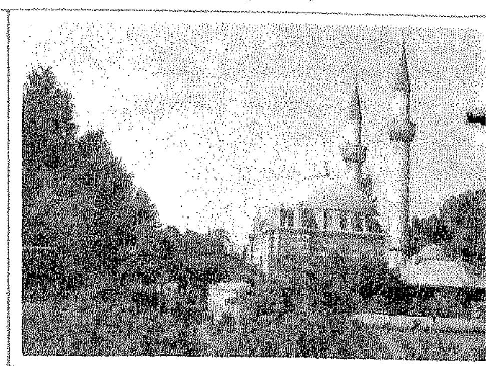
● عصر سيادة الفرس (خصوصاً ابتداء من ٥٥٥ ق. م، عهد قوروش مؤسس فارس حتى ثورة اغريق آسيا الصغرى العام ٤٤٩ ق. م.).

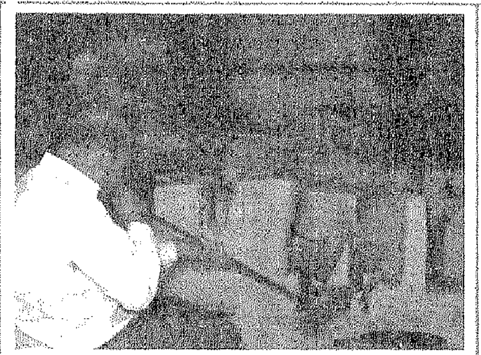
● العصر اليوناني - الروماني من فتوح الاسكندر الكبير العام ٣٣٣ ق. م. - وبالتحديد منذ غزو دمشق العام ٢٣٢ ق. م - حتى الفتح الاسلامي في الاعوام ٦٣٣ - ٦٤٠م، خصوصاً منذ معركة اليرموك في أيلول ٦٣٥م/ ١٤هـ.

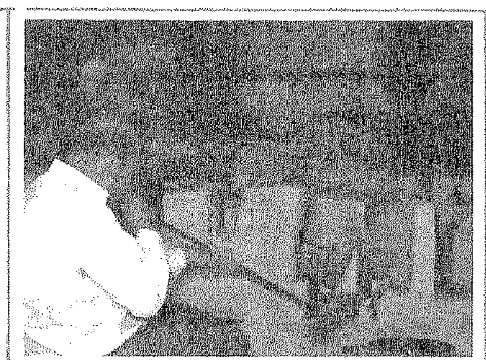
ولكن هذه الصورة العامة لا توضح تماماً حقيقة الدور المميز لتاريخ الشعب فوق هذه الأرض: إذ انه في كل العصور السابقة لعهد الفتح الاسلامي كانت «أرض الشام» تتمرد على الامبراطوريات الكبرى الحاكمة في كل فترة من الفترات واستطاعت ان تشكل «دولاً» مستقلة محلية، أو على الأقل ان تحافظ على طابعها المحلي الخاص:

● تحت الاحتلال الروماني ثم البيزنطي كانت بلاد الشام دائماً في تململ من السلطة المركزية. ففي القرن الأول الميلادي اتخذ المسيحيون العرب انطاكية مركزاً روحياً لهم وكانت دمشق نقطة انطلاق رحلة القديس بولس التبشيرية.

● في أواخر القرن الثاني م شكلت قبائل عربية عرفت بـ «الانباط» أول «دولة» عربية مستقلة في جنوب البلاد. كانت حضارة الانباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها، يونانية


التكية السليمانية


الزجاج: صناعة وفن.


معروضات حرفية

رومانية في فنها وهندستها المعمارية.

● في القرن الثالث م. نشأت في الشمال دولة كبرى هي «امبراطورية تدمر» التي اشتهرت بملكتها «زنوبيا» العربية الأصل. حاربت زنوبيا الفرس وهزمتهم وحررت بلادها من الرومان ثم سيطرت بجيوشها على سورية الطبيعية بكاملها فمصر (٢٧١م). ثم آسيا الصغرى. ولكن طموحها لم يوقفها إلى حد معقول من التوسع الجغرافي والسياسي لنفوذها فتغلب عليها الامبراطور الروماني «أوريليان» (٢٧٢ - ٢٧٣ م). واخذها معه اسيرة إلى روما حيث استشهدت كالنسر المحلق في أوج تحليقه.

● وفي القرن السادس ميلادي تأسست الدولة العربية الثالثة في «أرض الشام»، وهي دولة الغساسنة في حوران.

انطلاقاً من هذا الواقع التاريخي يمكن أن نفهم لماذا التحق عرب الشام، في سهولة أدهشت ولا تزال تدهش بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين، بجيوش الفتح الاسلامي، وقاتلوا، بوعي «قومي» جنيني، «اخوانهم في الدين»، البيزنطيين.

تضامن السوريين في العهد الاسلامي - العربي

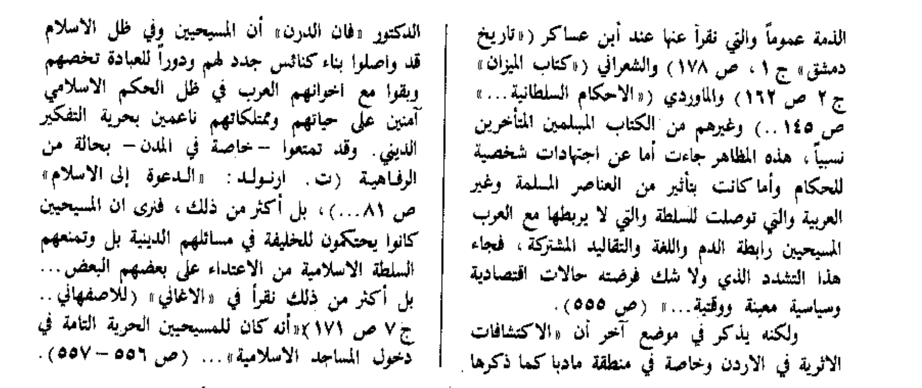
ربما كان الفتح الاسلامي لأرض الشام، بعد معركة «اليرموك» الحاسمة (١٣هـ/٦٣٤م). بقيادة القائد خالد بن الوليد ومساعده الفذ عكرمة بن أبي جهل المخزومي، ونتائجه السياسية والحضارية من أكثر المسائل التاريخية المثيرة للجدل والنقاش في تاريخ سورية الطبيعية قديماً وحديثاً.

من جهتنا نعتقد أن «المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام» (القرن السادس م. - القرن السابع عشر) كشف جانباً مهماً من الموضوع سنحاول في ما يلي ابراز أهم معطياته:

في محاضرته «العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام» قال د. عبد العزيز الدوري: «انتشر العرب في سورية قبل الاسلام وكان تغلغلهم من طرفي البادية الجنوبي في اتجاه حوران والبلقاء، ومن طرفها الشمالي في اتجاه حاضر حلب وقنسرين. لكن انتشارهم من خلال الفتوحات الاسلامية شمل بلاد الشام كلها. وكان مجيء القبائل توسعاً استيطانياً منذ الفترة الأولى ولم يكن مجرد غزوات بدوية، لذا لم يؤد إلى ضرر يذكر بالقرى والمزارع، بل ان العرب اكتفوا بالتقدم إلى المدن ولم يتعرضوا لجماعات القرى كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة...» (ص ٣٢).

أما د. صالح الحمارنة فيتطرق في محاضرته القيمة: «المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الاسلامي» إلى أكثر المواضيع حساسية وفي المقابل أقلها تناولاً ودراسة بالمقارنة مع الجوانب الأخرى من تاريخ الفترة الأولى من العهد الاسلامي في سورية الطبيعية، وهو موضوع تسامح الفتح الاسلامي تجاه النصارى، فيقول: «... ان هذه السياسة الحكيمة الكريمة ليست من باب التسامح فحسب بل كان يفرضها ضرورة التعاون والتحالف ما بين الامويين واخوانهم العرب في الشام خاصة الذين سبق لغالبيتهم ان استقروا وتحضروا بأرضي الشام وفيها تنصروا..»، (ص ٥٥٤).

أما حول مظاهر عدم التسامح والتشدد ضدهم فيطرح وجهة نظر جديرة بالتمعن فيها، وهي: «... أما مظاهر عدم التسامح والتشدد ضد المسيحيين وأهل



سد الفرات تجسيد لتطلعات الشعب العربي السوري نحو البناء والتقدم.

الذمة عموماً والتي نقرأ عنها عند ابن عساكر («تاريخ دمشق» ج ١، ص ١٧٨) والشعراني («كتاب الميزان» ج ٢ ص ١٦٢) والماوردي («الاحكام السلطانية...» ص ١٤٥..) وغيرهم من الكتاب المسلمين المتأخرين نسبياً، هذه المظاهر جاءت أما عن اجتهادات شخصية للحكام وأما كانت بتأثير من العناصر المسلمة وغير العربية والتي توصلت للسلطة والتي لا يربطها مع العرب المسيحيين رابطة الدم واللغة والتقاليد المشتركة، فجاء هذا التشدد الذي ولا شك فرضته حالات اقتصادية وسياسية معينة ووقتية...» (ص ٥٥٥).

ولكنه يذكر في موضع آخر أن «الاكتشافات الاثرية في الاردن وخاصة في منطقة مادبا كما ذكرها الدكتور «فان الدرن» أن المسيحيين وفي ظل الاسلام قد واصلوا بناء كنائس جدد لهم ودوراً للعبادة تخصهم وبقوا مع اخوانهم العرب في ظل الحكم الاسلامي آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بحرية التفكير الديني. وقد تمتعوا – خاصة في المدن – بحالة من الرفاهية (ت. ارنولد: «الدعوة إلى الاسلام» ص ٨١...)، بل أكثر من ذلك، فنرى ان المسيحيين كانوا يحتكمون للخليفة في مسائلهم الدينية بل وتمنعهم السلطة الاسلامية من الاعتداء على بعضهم البعض... بل أكثر من ذلك نقرأ في «الاغاني» (للاصفهاني.. ج ٧ ص ١٧١)«أنه كان للمسيحيين الحرية التامة في دخول المساجد الاسلامية»... (ص ٥٥٦ – ٥٥٧).

ويضيف د. الحمارنة: «من جهة أخرى نرى ان تبادل الآراء والمناظرات والمناقشات كانت قائمة بين أصحاب مختلف الاديان فمثلاً منذ الوقت المبكر للاسلام نسمع ان عشرة من اساقفة نجران قدموا على الرسول الكريم وجادلوه (الاصفهاني، «الاغاني» ج ١٠ ص ١٤٨). وكانت عاصمة الامويين، دمشق، مسرحاً قامت عليه كثير من المناقشات الدينية ما بين المسلمين والمسيحيين، ومن أكبر المناظرات التي قامت بين علماء الدينين تلك التي سجلها يوحنا الدمشقي وتيودور أبو قره وهي معروفة، وقد رأى البعض أن المذاهب الأولى الخارجة على السنة في الاسلام نشأت من هذه المناقشات الدينية مثل الارجاء والقدرية (فازيليف، «العرب والروم» ص ١٣). ولهذه الخلافات الدينية أثر بارز في حياة عرب الشام الروحية، فيرى المؤرخ «كيتاني» ان كثرة الخلافات بين المذاهب المسيحية المتعددة قد جعلت كثيراً من العرب المسيحيين ينفرون من دينهم ويقبلون على الدين الجديد، – لأكثر من سبب – (ت. أرنولد «الدعوة إلى الاسلام»، ص ٢٩)...

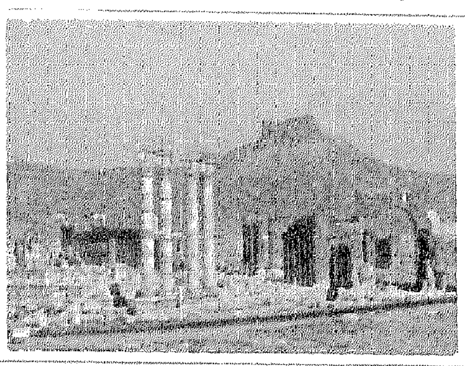
من هنا، هل صدفة ان تصبح دمشق قلب الامبراطورية الاسلامية – العربية أيام الحكم الاموي (٦٦١ – ٧٥٠م/. ٤١ – ١٣٣هـ)؟.

وهل صدفة أيضاً أن يتابع. السوريون تقاليد

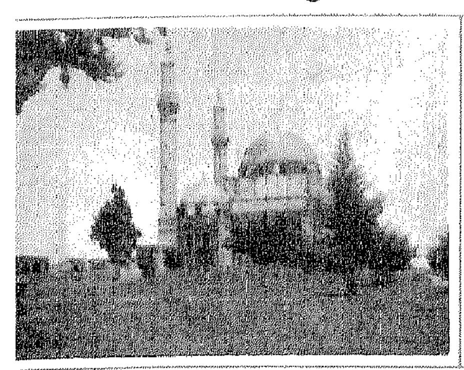
نقوش على رأس عمود



تدمر



حمص: جامع خالد بن الوليد



اجدادهم في التمسك باستقلاليتهم تحت كل الظروف، أي محافظتهم على حكم انفسهم بأنفسهم على رغم انتقال وهج الخلافة الاسلامية - العربية إلى بغداد منذ العام ٧٥٠م./١٣٣هـ. وحتى العام ١٢٥٨م./٦٥٧هـ؟.

وهم خلال هذه الفترة العباسية استطاعوا تشكيل «حكومات مستقلة» مثل حكم الطولونيين (أواخر القرن التاسع م.) وحكمي «الأخشيديين» والحمدانيين (القرن العاشر م.).

ولكن تضعضع الحكم المركزي الاسلامي فتح شهية الغزاة من كل صوب وكان من الطبيعي أن تكون الأراضي السورية محط الانظار في شكل خاص.

الموقع الخاص للغزوات الصليبية في تاريخ بلاد الشام

منذ ذلك الوقت تعرضت أراضي سورية الطبيعية، خصوصاً مناطقها الساحلية لسلسلة من الغزوات المتعاقبة والتي كانت بمثابة كارثة حقيقية على مكتسبات الشعب السوري وحضارته: بدءاً من حملات. الفاطميين الزاحفين من القاهرة والاتراك السلاجقة ثم الصليبيين القادمين من أوروبا الاقطاعية (أواخر القرن الحادي عشر - أوائل القرن الثاني عشر م). فالمغول (١٢٦٠م). والتتار بقيادة تيمورلنك (١٣٩٩م). والمماليك المصريين (من أواسط القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر م). الذين طردهم الاتراك العثمانيون بعد معركة مرج دابق (١٥١٦م). وهؤلاء ظلوا يتحكمون برقاب الشعب العربي السوري، باسم الاسلام كما فعل المماليك قبلهم، طوال أربعة قرون بلا انقطاع، مشوهين في ابشع صورة عرفتها المنطقة طبيعة الحكم الاسلامي في عهوده الأولى، تجاه المسلمين وغير المسلمين على السواء[٤].

ولكن لماذا نعتبر في هذا المجال ان للحملات الصليبية موقعاً خاصاً من بين جميع الغزوات الأخرى؟ لان نتائجها المتوخاة، أي أساساً استمالة مسيحي الشرق لسيطرة الغرب الأوروبي الاقطاعي، لم تثمر الا عكس ما خطط لها، وذلك يعود في الدرجة الأولى إلى سياسة الحكم الاسلامي السابق تجاه الاقليات الدينية.

من هنا يمكن ان نفهم الملاحظة المنهجية المهمة التي طرحها د. سعيد عبد الفتاح عاشور في محاضرته إلى المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام وكانت حول «المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية». يقول د. عاشور:

«إنصبت عناية الباحثين في تاريخ بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية على الجانبين السياسي والحربي دون أن يحظى الجانب الاجتماعي الا بقدر ضئيل لا يتناسب وأهميته في التاريخ...» (ص ٢١٩). وهذا الجانب غير المطروق في شكل كاف يتناسب ومكانته التاريخية، يكشف لنا جوانب مهمة من التعايش بين الطوائف المتعددة كما يكشف لنا حقيقة الصدامات التي كانت تحصل وهي في جذورها وجوهرها سياسية وليست كما تتجلى ظاهرياً كصدامات طائفية.

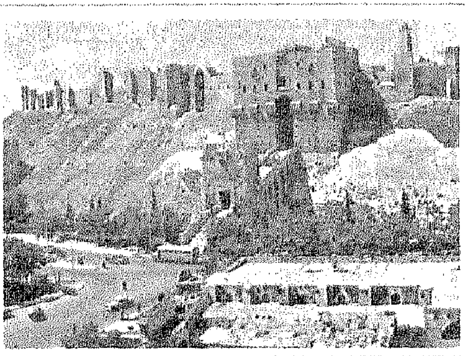
كانت سورية مسرحاً للتصدي للغزوات الصليبية الأوروبية طوال ١٥٠ عاماً تقريباً (١١٢٦ - ١٢٧٢م). على رغم ذلك فشلت هذه الحملات في احتلال وسط البلاد (دمشق وحمص وحلب وحماه).

وهذا يفسر ما ذكره د. عاشور من أنه «...

نواعير حماه



قلعة حلب



مسجد السيدة زينب



رغم ما بدا أحياناً بين المسلمين من ناحية وغير المسلمين من ناحية أخرى من مشاحنات فرضتها طبيعة العصر والظروف التي آلت أحداثه وروحه، الا أن جميع الأطراف عاشت غالباً عيشة آمنة هادئة في ظل الحكم الاسلامي وداخل اسوار المدن الاسلامية ببلاد الشام. فكنائس النصارى واديرتهم ظلت قائمة تمارس نشاطها العادي داخل مدن الشام.. أما اليهود فقد عكفوا على مباشرة نشاطهم – وخاصة الاقتصادي – في هدوء حتى أن أبواب قلعة حلب حملت اسمهم (راجع ابن الشحنة: «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب»، ص ٤٤ – ٤٥)...» (ص ٢٢٨).

ويضيف د. عاشور منقبا عن حقيقة الحياة الاجتماعية في أرض الشام أيام الغزوات الصليبية:

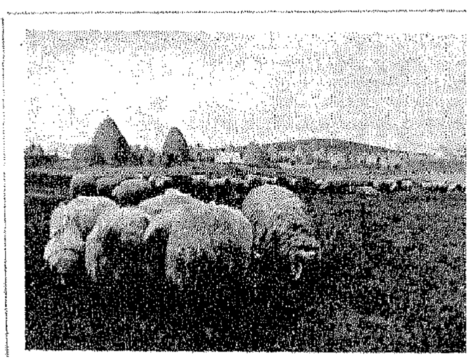
«الواقع انه رغم الحروب التي شهدتها بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، فان الصلات الاجتماعية والروابط الانسانية سادت في كثير من الأحيان العلاقات بين المسلمين والمسيحيين. وثمة اشارات عديدة في بطون المصادر العربية توضح ان الطرفين كانت تغلب عليهما الطبيعة البشرية، بعدما يطول القتال ويشتد بينهما فيتبادلان الفكاهة، وربما «أنس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال. وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة» (ابن شداد، «النوادر السلطانية...» ص٣٨٣). ويفهم مما كتبه اسامة بن منقذ أن الصليبيين لم يترددوا في الاستعانة بجيرانهم المسلمين، فأرسلوا اليهم يطلبون أطباء يداوون مرضاهم، وكان المسلمون يلبون طلباتهم بروح انسانية على الفور (أبو شامة: «كتاب الروضتين»... : ٢ ص ٢٠٣).

ولعله لا حاجة بنا إلى التذكير بما فعله صلاح الدين نفسه عندما علم بمرض غريمه ريتشارد قلب الأسد، إذ بادر بارسال ما طلبه من كمثرى وخوخ وغيرها من الفواكه فضلاً عن الثلج والدواء والشراب، حتى شفي خصمه ليستأنف القتال من جديد (رحلة ابن جبير، ص ٢٧٦ – ٢٧٧). ويتعجب ابن جبير من هذه العلاقات الاجتماعية التي لمسها بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام، فيقول: «ومن العجيب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا أحد المنقطعين من المسلمين، جلبوا لهم القوت واحسنوا اليهم.. ومن اعجب ما يتحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم.. وتجار النصارى أيضاً لا يمنع احد منهم ولا يعترض...» (رحلة ابن جبير، ص ٢٨٨). كذلك أشار ابن جبير إلى احتفاظ المسلمين بمساجدهم في المدن الاسلامية التي اغتصبها الصليبيون، فقال انه شاهد في صور مساجد متعددة، وأنه نفسه أقام في احد تلك المساجد اثناء زياراته لمدينة صور...» (ص ٢٣٨).

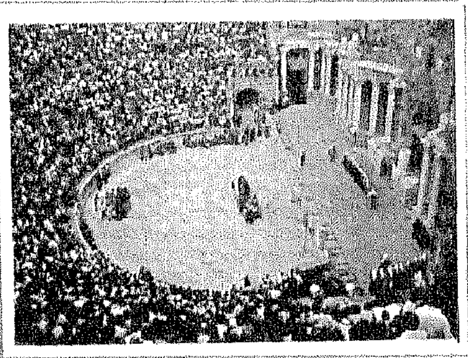
حقائق من تاريخها الحديث

من الخطأ – منهجياً وموضوعياً – التأريخ لسوريا الحديثة من العام ١٩١٨، تاريخ انتهاء السيطرة العثمانية التركية رسمياً على البلاد، وذلك بسبب ما لهذا الأمر من تجاهل للإستمرارية التاريخية والحضارية الحديثة لتاريخ الشعب العربي السوري قبل وبعد الحرب العالمية الأولى.

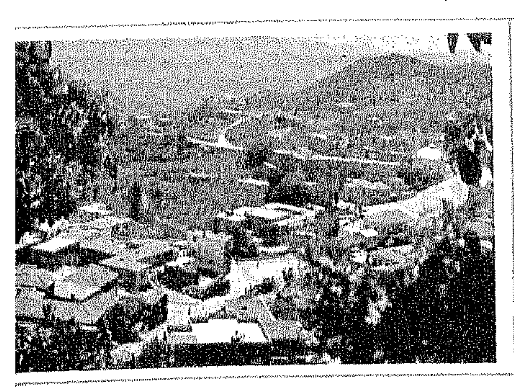
شمال سورية



مسرح بصري



كسب



ان الحقيقة الأساسية في تاريخ سورية الحديث ظهرت منذ أواسط القرن التاسع عشر من خلال ما جسدته معاهدة كوتاهية (١٨٣٣) من بلورة للوعي القومي العربي في سورية وذلك بأن أوجدت هذه المعاهدة أول وحدة بين مصر وسوريا تحت قيادة عربية موحدة منذ جلاء الصليبيين، شملت أراض امتدت من أضنه شمالاً إلى اطراف شبه الجزيرة العربية جنوباً، ومن الخليج العربي شرقاً إلى حدود ليبيا غرباً.

ولم يؤثر «الاحتلال الانتدابي» الفرنسي لأراضيها (١٩١٩ - ١٩٤٥) في اخماد جذوة هذا الوعي القومي العربي التي عبرت عن نفسها أفضل تعبير في اعلان استقلال «سورية الكبرى» (٣/٨ - ١٩٢٠/٧/٢٨). وتحويل هزيمة ميسلون العسكرية إلى كبوة تمهد لثورات ١٩٢٥ - ١٩٢٦ و ١٩٣٦ حتى تحقيق الاستقلال السياسي الناجز العام ١٩٤٦، ولكن بعدما نجح الاستدمار - ولا نقول الاستعمار - الفرنسي بالتعاون مع الاستدمار البريطاني واعوانهما المحليين في اقتطاع اجزاء استراتيجية من أراضي سورية الطبيعية، وخصوصاً لواء الاسكندرون (١٩٣٧/١١/٢٩) وفلسطين الغالية (١٩٤٧ - ١٩٤٨).

سورية المستقبل

بسبب موقع سورية الجغرافي في ملتقى ثلاث قارات: آسيا وافريقيا وأوروبا، تعرضت اراضيها للغزوات الكبرى التي اجتاحت الشرق القديم وشهدت مرور أو استيطان حضارات عديدة، الأمر الذي يفسر وجود تشكيلة متنوعة للغاية من آثار الحثيين والفينيقيين والآرامين والأشوريين والاغريق والفرس والرومان والعرب المسلمين والصليبيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين...

وتنتشر هذه الآثار في كل انحاء سورية حتى وسط الصحراء حيث تشمخ اطلال مملكة زنوبيا في تدمر، مروراً بأقدم عاصمة من عواصم العالم (دمشق) حيث يتعايش فيها أروع ما وصلت اليه عبقرية الفن العربي (المسجد الاموي) مع كنيستي القديس بولس وحنانيا و «الشارع المستقيم» الذي ورد ذكره في الانجيل. كما نجد أضخم قلاع القرون الوسطى في قلعة الحصن (كراك دي شيفالييه)، اضافة إلى الدير الاثري الشهير في معلولا حيث ما زال الأهالي يتكلمون اللغة الآرامية التي كان يتكلمها السيد المسيح، مرورا بقلعتي حلب المشهورتين: القلعة العربية الأثرية التي بنيت على تلة اصطناعية وسط المدينة، والقلعة الاستراتيجية الجبارة القريبة من حلب (سد الفرات).

كانت هذه النخبة المختارة من الآثار التاريخية في سورية فخر البلاد وشهادة لمكانتها الحضارية. ولكن الاكتشافات الأثرية الحديثة في تل مرديخ وراس الشمره وضعت سورية في مصاف قبلة انظار العلماء والمؤرخين على اختلاف اختصاصاتهم.

ان مستقبل سورية الحضاري رهن بالكشف عن آثار مملكة «ايبلا» في تل مرديخ حيث ما زالت أعمال التنقيب عنها جارية منذ العام ١٩٦٤، وعن آثار مملكة «أوغاريت» في رأس الشمره والتي احتفلت سورية رسمياً في شهر تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٩ بالذكرى الخمسينية لاكتشاف أول آثارها العام ١٩٢٩ [٥].

وبعكس ما يعتقد البعض من أن آثار هاتين

المملكتين ستسرق الاضواء من الآثار المعروفة في سوريا، الا أن المتخصصين الموضوعيين يجزمون ان آثار ايبلا واوغاريت ستضع تلك الآثار في موقعها التاريخي الحقيقي وستضيء جوانب كانت مجهولة عنها.

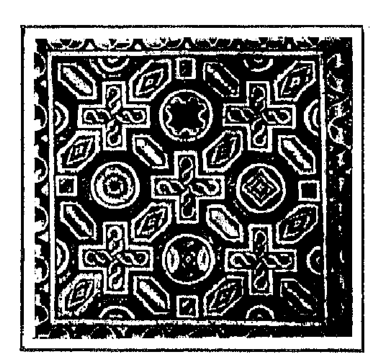
قادة فتح سورية

● القائد العام خالد بن الوليد المخزومي، سيف الله، هازم الفرس في أرض العراق وهازم الروم في أرض الشام. وهو فاتح اليرموك ودمشق وفحل (١٣هـ./٦٣٤م). ومرج الروم وحمص وقنسرين ومرعش وحصن الحدث (١٥م./٦٣٦م).

● أبو عبيدة بن الجراح القرشي الفهري. كان من ابرز قادة الفتح الاسلامي الذي يدخل أكثر مدن أرض الشام بغير قتال.

● عكرمة بن أبي جهل المخزومي، القائد الذي اطلق صرخته الشهيرة في أحرج ساعات معركة اليرموك الحاسمة ضد الروم: «من يبايعني على الموت».

●



هوامش البحث

(١) «أرض الشام» كانت تشمل ما يعرف اليوم بسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن. وسوريا الحالية هي في الواقع قلب «أرض الشام» السابقة. ويقول د. نقولا زياده في هذا الصدد أن «أول جغرافي اعتبر ديار الشام وحده بلدانية هو الهمداني إذ عنون الفصل الخاص بها بقوله «القول في الشام». واما الاصطخري فقد اطلق عليها «أرض الشام» فيما استعمل ابن حوقل «الشام» مجردة...» (راجع محاضرته: «جغرافية الشام عند جغرافيي القرن الرابع الهجري» في المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام الذي عقد في الجامعة الاردنية بين ٢٠ - ١٩٧٤/٤/٢٥ ونشرت ضمن الكتاب الخاص. بالمؤتمر، الدار المتحدة للنشر - بيروت ١٩٧٤، ص ١٤٧). وسنعمد، بالنسبة إلى محاضرات هذا المؤتمر، إلى ذكر صفحات المرجع كما وردت في الكتاب المذكور.

(٢) وهذا الاستنتاج ورد في كتاب اللواء الركن محمود شيت خطاب. «قادة فتح الشام ومصر» - دار الفكر. بيروت. لا تاريخ - ص ١١.

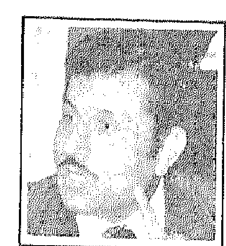
(٣) راجع مقاله في «ملحق النهار» تاريخ ١٩٦٥/٥/٣٠ ص ٩.

(٤) صحيح كما قال د. تاج السر أحمد حران في محاضرته: «بلاد الشام في علاقة المماليك والعثمانيين» إلى المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، أن «العثمانيين استولوا على المدن السورية تباعاً ودونما مقاومة تذكر بسبب ما كان أهالي الشام يلاقونه من ظلم وجور في أواخر حكم المماليك».. الا أنه اضاف «... ولم يستكن الأهالي للفاتح الجديد طويلاً خصوصاً عندما لم يقدم اليهم أي جديد يساعدهم في تطوير مستوى حياتهم... ولم تهدأ الاحوال الا حين نظم السلطان سليمان القانوني بن سليم أمر ادارة سورية ومصر بقوانين جديدة...» (ص ٤٢٦...).

(٥) بمناسبة الذكرى الخمسينية لاكتشاف مملكة اوغاريت في رأس الشمره عقدت في اللاذقية في تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٩ «الندوة العالمية للدراسات الاوغاريتية» بمبادرة ورعاية رسمية. والمثير في الأمر ما كشفه الدكتور هشام الصفدي، استاذ تاريخ الشرق القديم في جامعة دمشق والمدير السابق للتنقيب والبحث الأثري في المديرية العامة، في مقابلة نشرتها جريدة «تشرين» السورية (١٩٧٩/١٠/٢٤)، من أن ندوة أخرى مغلقة عقدت في الولايات المتحدة الاميركية، قبل أيام من ندوة اللاذقية، تحت اشراف «الجمعية الشرقية» الخاضعة لتأثير الصهيونية العالمية، وذلك بهدف واضح وهو محاولة تجيير اكتشافات اوغاريت لصالح التاريخ الصهيوني المفبرك والذين يعملون في دأب يحسدون عليه لإضفاء «الشرعية الحضارية» عليه.

دَورُ الجيش العراقي في حكومَة الدّفاع الوطني والحرب مع بريطانيا سَنة ١٩٤١

مراجعة كتاب للدكتور فاضل البراك



بقلم الدكتور خلدون ساطع الحصري

● لحركة ١٩٤١ أهمية كبيرة في التاريخ العربي والعراقي الحديث، لانه من الممكن اعتبارها، كما يقول الدكتور فاضل البراك: «أعظم مثال لاعظم انتفاضة قومية عربية مسلحة في النصف الأول من القرن العشرين». ومن الواضح الآن ان هذه الحركة قد اثرت في كل الانتفاضات والثورات العربية التي تلتها بعد الحرب العالمية الثانية. لقد أثرت، مثلاً، تأثيراً عميقاً في الضباط الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر، كما تكشف عن ذلك كتاباتهم، كما أن عدداً منهم أراد الالتحاق بها. كما ان جماعات من الشبان الفلسطينيين والسوريين قد التحقت فعلاً بهذه الحركة وقاتلت في صفوفها. وفي سوريا كان أول ظهور لحزب البعث العربي الاشتراكي على الصعيد العملي من خلال «لجان نصرة العراق» التي أسسها في ١٩٤١.

أما اذا اخذنا العراق، فنرى الرئيس صدام حسين يقول في مايس /مايو الماضي: «ان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ هي الوريثة الشرعية والابنة التاريخية للانتفاضة القومية المسلحة المجيدة التي وقعت في العراق فجر اليوم الثاني من شهر مايس سنة ١٩٤١» والرئيس صدام يربط كذلك الحاضر والمستقبل مباشرة بهذه الحركة، فيقول في ١٩٧٧ «لا بد لنا، عندما نتحدث عن حركة مايس ١٩٤١، ان نبرز ابطالها، لا من أجل انصاف التاريخ في اشخاصهم حسب، وانما من أجل اشخاص الحاضر أيضاً.. من أجل ابطال الحاضر غير المرئيين، الذين نريدهم ان يستبسلوا، في الجولان وفي سيناء، وفي الضفة الغربية، وفي الدفاع عن كل شبر من أرض القطر والوطن العربي.. من أجل هؤلاء جميعاً يجب أن



لا ننسى الأبطال والشهداء الذين كان لهم شرف الاستشهاد دفاعاً عن الوطن».

كذلك قام الرئيس صدام حسين مؤخراً بتكريم شخصي لحركة ١٩٤١ عندما زار صبيحة عيد الأضحى الفائت عدداً من عوائل شهداء هذه الحركة (جريدة الثورة البغدادية، ٧٩/١١/١).

وكتاب الدكتور البراك الذي أقوم بمراجعته يؤرخ لبعض جوانب هذه الحركة الهامة، منذ تدخل الجيش العراقي في السياسة تدخلاً مباشراً بانقلاب ١٩٣٦، حتى تشكيل رشيد عالي الكيلاني «لحكومة الدفاع الوطني» في ابريل/نيسان ١٩٤١، فالى القضاء على

هذه الحركة واحتلال الانكليز للعراق في يونيو/حزيران من العام نفسه.

ان كتاب الدكتور فاضل البراك ممتاز ويدعو للاعجاب. ولعل أولى حسناته هو تسجيله للاخطاء التي ارتكبتها هذه الحركة، مع أن تحمس الدكتور البراك وتأييده لها قوى وواضح. فما هي هذه الاخطاء في رأيه؟ انها عدم استثمار قوى الجماهير الشعبية التي كانت مهيأة للعمل ضد الانكليز، وذلك لعدم وجود تنظيم أو حزب سياسي يقوم بتوجيهها وقيادتها. كذلك هي فقدان الوحدة المطلوبة بين القيادتين السياسية والعسكرية. وكذلك كان هناك التنازل عن زمام المبادءة العسكرية إلى العدو، والاكتفاء باتخاذ موقف الدفاع. كما أن التصور الاستراتيجي الواضح والدقيق للوضع في المنطقة والعالم كان غائباً عن قادة الحركة.

هذه الأخطاء في رأى الدكتور البراك قد أدت إلى فشل الحركة. غير أنه يعلق على ذلك الفشل بقوله: «ولكن الفشل الذي أصاب حركة ١٩٤١، لا يقلل من شأنها، ولا ينتقص من قدرها، ولا يضعف من موقعها الفذ الفريد في التاريخ القومي الحديث للعمل الثوري العربي. وكما أن فشل كومونة باريس في سنة ١٨٧١ لم يمنع الثورة الشيوعية العالمية من حبها واحترامها وتحليلها، كذلك فشل حكومة الدفاع الوطني في سن ١٩٤١ فانه لم يمنع الثورة القومية الاشتراكية العربية من حبها واحترامها وتحليلها واستخلاص نتائجها ودروسها وعبرها.. (أن) نظرة الشيوعية العالمية إلى كومونة باريس هي نفسها نظرة الثورة القومية الاشتراكية العربية إلى حكومة الدفاع الوطني، من حيث الخصائص العامة، وان كان القياس مع الفارق في التفاصيل والجزئيات. ولكن التجربتين على حد سواء قد عانتا من اخطاء فادحة وسلبيات متعددة أدت في النهاية، على الرغم من اختلاف واضح في خصائصهما واهدافهما وظروفهما وأسبابهما ونتائجهما، إلى نتيجة مأساوية واحدة، هي الصراع غير المتكافئ والصمود البطولي والفشل الذريع».
ويقوم الدكتور البراك بعد كتابته ما تقدم بالمقارنة بين كومونة باريس وحكومة الدفاع الوطني في العراق، معتمداً في ذلك على كتابات كارل ماركس، وفريدريك انجلز، ولينين، عن كومونة باريس.

ولا بد لنا من أن نشير هنا إلى أن كتاب الدكتور البراك كان بالاصل رسالة بالروسية بعنوان «الجيش والحركة الوطنية في العراق»، نال عليها الدكتوراه من جامعة سوفياتية. ولعل ذلك لم يكن أمراً سهلاً بالنظر إلى الاختلاف العقائدي بينه وبين الأفكار السوفياتية. وكان الدكتور البراك، في حديث أدلى به إلى مجلة «ألف باء» البغدادية (العدد ٥٣٧-١٠/١/١٩٧٩) قد اشار إلى هذا عندما قال: «لقد عانيت كثيراً في هذا المجال فالاستاذ المشرف يصر على العامل الواحد في تحليل الأحداث، وهو العامل الاقتصادي بينما كنت استخدم في تحليل الأحداث عوامل متعددة، والعامل الاقتصادي ليس دائماً في مقدمة التحليلات، إذ أن العامل القومي له الأولوية في صنع الحدث السياسي، وهذا الاختلاف أدى إلى تأجيل عدة مواضيع في رسالة الدكتوراه وعدم مناقشتها، الا انني أخذت موافقة من استاذي المشرف لادراجها في الرسالة عند طبعها».

الا أن الكتاب المطبوع لا يشير مع الاسف إلى الاجزاء التي نالت موافقة الاستاذ المشرف على الاطروحة (وهو البروفسور كوتلوف الذي سبق وأن نشر كتاباً عن ثورة العشرين في العراق) وهذه الاجزاء التي لم تحظى بموافقته. ومعرفة هذا قد يكون امراً له أهمية بالنسبة إلى الذين يريدون تتبع اتجاهات الاستشراق orientalsim السوفياتي. (الم يحن الأوان لان يتناول أحد الباحثين دراسة الاستشراق السوفياتي كما درس البروفسور ادوارد سعيد الاستشراق الغربي؟).

ولعل حسنة الكتاب الثانية تتأتى من اجادة الدكتور البراك للغة الروسية واستخدامه للكتابات الروسية. فهذه تمكن القارئ العربي من الاطلاع على الاراء السوفياتية بالنسبة إلى حركة ١٩٤١ في العراق، وبعض المواضيع الأخرى. وهكذا يتبين ان السوفيات الذين كانوا قد اتخذوا في كتاباتهم موقفاً عدائياً من حركة ١٩٤١، وادعوا ان هدفها كان وضع العراق تحت هيمنة المانيا الهتلرية، بدلوا بعد ذلك من هذا الموقف، فاصبحوا ينظرون لها كحركة وطنية تحررية، كان هدفها تحرير العراق من الاستعمار البريطاني، وليس تسليمه للسيطرة الألمانية. وعلى هذا يذكر الكاتب السوفياتي اوغانسيان: «أن ثورة ١٩٤١ في العراق لا يجوز فصلها عن نطاق حركة الشعوب العربية

المعادية للامبريالية.. ولا عن الحركة التحررية الوطنية التي اندلعت بعد الحرب العالمية الأولى. اما محاولة دول المحور للاستفادة من هذه الثورة وهي في حالة حرب ضد بريطانيا، فلا تغير من حيث المبدأ من الصيغة التحررية لحركة ١٩٤١».

وهنا ملاحظة: لا أعرف كيف فات الدكتور البراك ان يذكر بين الكتب السوفياتية التي تبدو فيها النظرة الجديدة لحركة ١٩٤١ كتاب ا. ف. فيد شينكو «صراع العراق من أجل الاستقلال» المطبوع في ١٩٧٠؟.

A. F. FEDCHENKO:
IRAK V BOR'BE NEZAVISIMOST

وكذلك ملاحظة ثانية: يورد الدكتور البراك ترجمة عربية لعناوين المراجع الانكليزية والروسية التي اعتمد عليها. وكان من الأفضل في اعتقادي أن يورد، مع هذه الترجمة، اسماء المؤلفين والمراجع هذه كما هي في الاصل، وبالاحرف اللاتينية، مما يساعد القارئ الراغب على مراجعتها.

من أهم فصول كتاب الدكتور البراك وأطولها الفصل الثالث المعنون بـ «الجيش والسياسة: دراسة تحليلية واستقرائية ونقدية ومقارنة». وفيه يثير المؤلف إلى الدور الهام الذي تلعبه الجيوش في الحياة العامة في دول آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية، ويقوم بدراسة لهذا الدور في البلدان الرأسمالية والاشتراكية وفي العراق. (ولعل هذا الملحق من الاجزاء التي اضافها إلى اطروحته فيما بعد).

وفي هذا الفصل يقع الدكتور البراك في خطأ كنت أرجو أن يتحاشاه. فهو، عندما يبحث عن التركيب الطبقي للجيش العراقي، يكتب «وبوجه عام، يبدو أن الأغلبية الساحقة من فئة الضباط في الجيش العراقي حينذاك كانت من أبناء الاقطاعيين وأبناء الارستقراطية الجديدة والبرجوازية الصغيرة». «وحينذاك» هذه تعود إلى مرحلة يحددها المؤلف بتأسيس الجيش العراقي في ١٩٢١، فدخول العراق إلى عصبة الأمم في ١٩٣٢، فالى انقلاب بكر صدقي في ١٩٣٦. وعن المرحلة التالية يكتب المؤلف: «ومع توسع الجيش العراقي، توسع أيضاً كادره من الضباط. وقد أثر هذا التغيير تدريجياً في التركيب الطبقي للجيش».

والواقع أن «التركيب الطبقي للجيش» العراقي لم يتغيير، لان «الاغلبية الساحقة» من ضباطه لم تكن في أي مرحلة من المراحل، أو في أي يوم من الأيام، من ابناء الاقطاعيين أو الارستقراطيين. واعتقد أن ذلك كان سيتضح للدكتور البراك لو قام بتنظيم جداول باسماء ضباط الجيش العراقي واضعاً مقابل كل اسم الشريحة أو «الطبقة» الاجتماعية التي كان ينتمي لها والد الضابط. انه لو فعل ذلك لظهر أن العوائل الغنية العائشة من حيازة الأرض أو العقار، أو استثمار ما لديها من رأسمال، لم تكن تدخل أولادها في الجيش. انما العائلات الأفقر، من صغار الموظفين وغيرهم، هذه التي تعيش على الأغلب على «المعاش» أو «الراتب»، هي التي كان أولادها يدخلون المدرسة، أو الكلية العسكرية.

ويلاحظ ان هذا الغلط الذي يرتكبه المؤلف غلط شائع يقع فيه تقريباً كل الذين كتبوا في موضوع الجيش في السياسة العربية. فالذين بحثوا عن مصر، مثلاً، وضعوا عام ١٩٣٦ الذي عقدت فيه المعاهدة المصرية – البريطانية، مقابل عام ١٩٣٢ الذي دخل فيه العراق عصبة الأمم، وذكروا بانه في ذلك العام فتحت أبواب الكلية الحربية المصرية أمام ابناء الطبقات الفقيرة، وكانت قبل ذلك مغلقة امامهم، وان هذا أدى إلى تغيير التركيب الطبقي للجيش المصري. والواقع هو أن تبدلاً في التركيب الطبقي للجيش لم يقع، لا في مصر ولا في العراق، وظل أولاد الطبقات الفقيرة يشكلون الاكثرية الساحقة من ضباطه وكنت أرجو أن لا يتبنى الدكتور البراك هذا الغلط الشائع الناتج عن تطبيق نماذج غربية على الجيوش العربية. ومع ذلك يظل كتاب الدكتور البراك كتاباً ممتازاً.

وهنا كلمة أخيرة، وهي تخص محاضر المحاكمات التي اجريت لقادة حركة ١٩٤١. هذه المحاضر، التي لها أهمية فائقة بالنسبة للكتابة عن حركة ١٩٤١، لا يوجد لها أثر في العراق. وهذا شيء يدعو للاستغراب بوجود مركز لحفظ الوثائق، وجمعية

للمؤرخين، ومجمع علمي، ومراكز ابحاث... الخ. لماذا لا تسعى هذه الهيئات والمؤسسات للعثور على هذه المحاضر؟

الشيء الذي اعرفه من خلال بحثي شخصياً في وزارة الدفاع ببغداد منذ حوالي ثلاثة أعوام هو أن نسخة المحاضر الموجودة لديها قد فقدت على الارجح نتيجة الأهمال. ولكن هذه ليست النسخة الوحيدة من هذه المحاضر. فأنا اعرف كذلك معرفة أكيدة ان هنالك نسخة ثانية منها بين أوراق مجلس الوزراء. وقد تكون هنالك نسخ أخرى في أماكن أخرى.

أن المسؤولين العراقيين الذين قيموا حركة ١٩٤١ القيمة التي تستحقها يستطيعون بالتأكيد العثور على محاضر محاكمات قادتها. وانني، يشاركني في ذلك على ما اعتقد كل مهتم بتاريخ العراق الحديث، ادعوهم إلى القيام بهذا خدمة لذكرى حركة ١٩٤١، من جهة، وللدراسات التاريخية في الوطن العربي، من جهة أخرى. ●



● الداء مدّ الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل.

عبد الرحمن الكواكبي

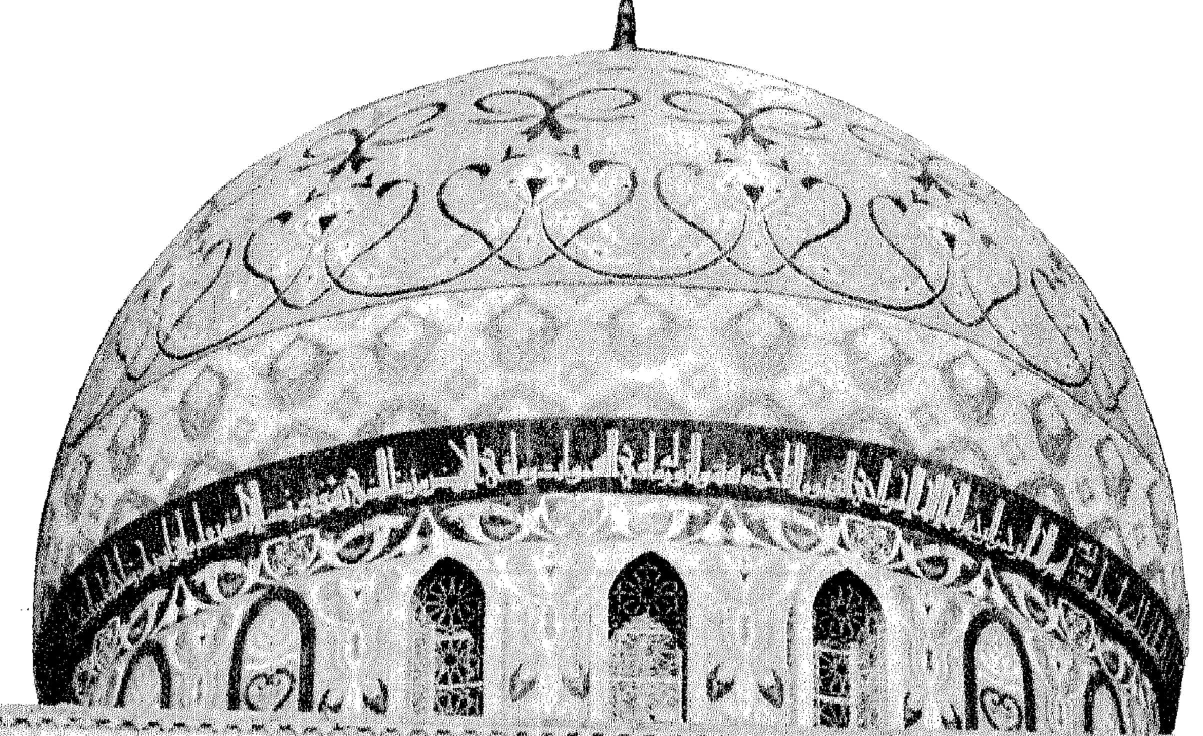


● ان الحكيم وحده هو الحر، والشرير وحده هو العبد.

فيلون – الفيلسوف السكندري

الحياة الاجتماعية والعمرانية خلال العصر الذهبي لبغداد العباسية

ترجمة
شذا عدرة



● نقدم فيما يلي الترجمة الحرفية لمقال جاك س. ريسلر، استاذ المعهد الاسلامي في باريس، بعنوان «كنوز بغداد»، كما نشرته وقدمت له مجلة «ايستوريا» الفرنسية (تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٧٨).

هدفنا من ذلك هو اطلاع القارئ العربي على ناحية مثيرة من نواحي الحياة الاجتماعية عند العرب في العصور الماضية. ومن أجل إتمام هذه المهمة على أكمل وجه ممكن، رأينا أن نمهّد للنص بالملاحظات التالية:

١ - في تقديم المجلة للمقال، كما في المقال نفسه، نلاحظ الخلط الواضح بين تعبيري «العرب» و«الاسلام»، مما يوقع الكاتب في حيرة من أمره لدى استخدامه أحد هذين التعبيرين. وفي نظرنا، فان التعبير العلمي الذي نعتمده لتلك العصور هو تعبير «العرب - المسلمون»، وذلك استناداً إلى الظاهرتين التاريخيتين التاليتين:

- أولاً: ان الذين انتموا حينها إلى هذه الحضارة العربية - الاسلامية كانوا يمثلون أكثر من شعب واحد ومن عنصر واحد. وهم ارتبطوا بالاسلام من حيث هو دين وأيضاً من حيث كونه عنواناً لنظام اجتماعي تاريخي تجسد في التاريخ في دول الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين.

- ثانياً: إن كل هذه الشعوب جمعتها لغة مشتركة واحدة هي اللغة العربية. وهذه اللغة، خلال بروزها في تعابير فكرية شتى في العالم الآسيوي والافريقي وحتى في العالم الأوروبي (الأندلس...)، حملت في بنيتها الجديدة المتطورة عن لغة العرب الجاهليين، أبعاداً متجددة وموحدة للتاريخ المشترك لمختلف الشعوب التي اندمجت في هذه المسيرة «العربية - الاسلامية».

٢ - بغض النظر عن تضخيم الكاتب الفرنسي لمظاهر البذخ العربي - الاسلامي في عهد العباسيين على حساب النهضة الفكرية والعمرانية والاقتصادية، فاننا حاولنا، في خصوص المراجع والاستشهادات التي أشار إليها الكاتب في مقاله، العودة إلى نصوصها الأصلية في العربية بدل أن نترجمها. واعتمدنا لهذا الهدف المراجع الثلاثة الآتية، حيث نجد صورة أقرب إلى الموضوعية للعصر الذهبي العباسي في بغداد:

* «حضارة العرب» تأليف د. غوستاف لوبون. نقله إلى العربية عادل زعيتر. الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٦، خصوصاً الصفحات ١٧١ - ١٨٠ بعنوان «العرب في بغداد».

* «امبراطورية العرب» تأليف الجنرال سير جون باجوت غلوب. تعريب وتعليق خيري حماد. بيروت ١٩٦٦، خصوصاً الصفحات ٥١٣ - ٥٥٠ بعنوان «العصر الذهبي».

* «تاريخ العرب» (مطول) تأليف: د. فيليب حتي ود. أدورد جرجي ود. جبرائيل جبور. الجزء الثاني، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٩، وخصوصاً الصفحات ٣٦٩ - ٣٩٢ بعنوان «العباسيون في عصرهم الذهبي»، والصفحات ٤٠٩ - ٤٤٣ بعنوان «الحياة الاجتماعية في العصر العباسي».

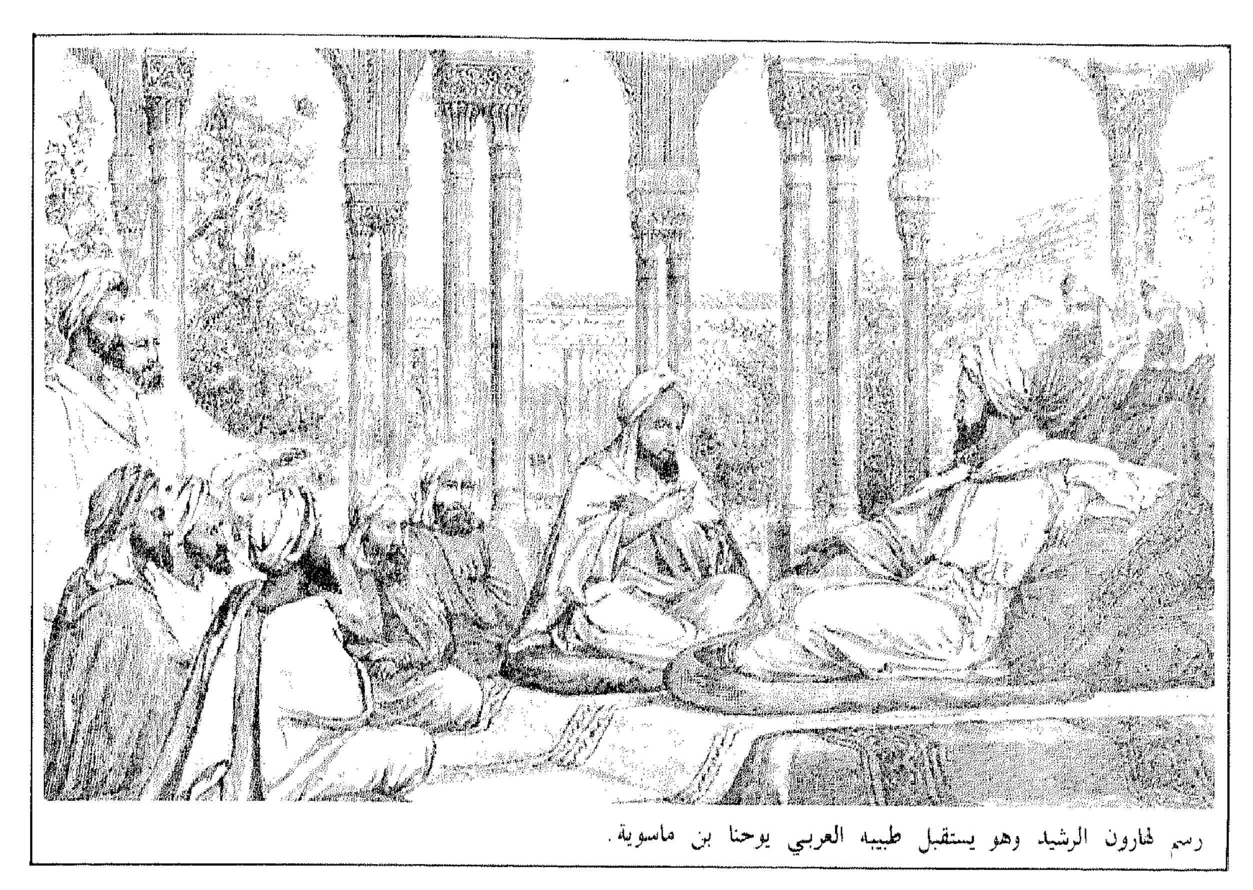
٣ - استناداً إلى هذه المراجع الثلاثة صححنا بعض المعلومات التاريخية التي ذكرها ريسلر في مقاله كما أوضحنا بعض الجوانب التي مرّ عليها المستشرق الفرنسي مرور الكرام مع أنها مهمة للغاية كما سنرى. وذكرنا هذه التصحيحات والاضافات إما في الهوامش أو بين هلالين.

قدمت مجلة «ايستوريا» للمقال بما يأتي:

غالباً ما ننسى اليوم، في الوقت الذي تعتمد فيه دول الشرق الأوسط على ثروتها النفطية، عظمة الحضارة العربية في العصر الوسيط. فخلال فتوحاتهم الرائعة في العالم، لم يجلب العرب معهم، في باديء الأمر، ثقافتهم الخاصة بهم، لكنهم سرعان ما استوعبوا الفنون السليمة، ثم استفادوا من مهارة وتقنية الشعوب التي أخضعوها، واستطاعوا في وقت قصير انتاج فنّهم المميّز.

انتشرت العقيدة الاسلامية في أنحاء العالم بفضل النفوذ السياسي للعرب وقوتهم العسكرية. بعد وفاة النبي محمد (٦٣٢م.) فتح العرب سوريا ومصر وأفريقيا الشمالية واسبانيا وتقدموا في آسيا حتى وصلوا إلى تركستان ومنطقة نهر السند (أو الهندوس).

في العام ٧٥٠م. أطاح العباسيون بسلطة الأمويين في دمشق وأسسوا عاصمتهم في مدينة بغداد حيث اشتهروا بعظمتهم وبشراستهم. كان هارون الرشيد الذي حكم من ٧٨٦ إلى ٨٠٩م. من أبرز الخلفاء



رسم لهارون الرشيد وهو يستقبل طبيبه العربي يوحنا بن ماسوية.

العباسيين. وهو معاصر للملك شارل الأول الكبير (أو شارلمان)[1].

بعد وفاة المأمون (٨٣٣م.) بدأ عهد انحطاط الخلفاء العباسيين وانتهى بسيطرة الغزاة الجدد، الأتراك السلاجقة. وهكذا ظهرت في القرن الحادي عشر الميلادي الامبراطورية التركية على أنقاض الامبراطورية العربية.

يقدم لنا جاء س. ريسلر، وهو مؤلف كتاب «الحضارة العربية» (منشورات بايو، باريس)، صورة عن بغداد في أوج ازدهارها:

في العام ٧٥٠ للميلاد استطاع أبو العباس، وهو أول الخلفاء العباسيين، حكم امبراطورية تمتد من الهندوس إلى المحيط الأطلسي، وذلك بفضل مساعديه الذين كانوا من أصل فارسي. هذا ما يفسر لماذا أخذ بلاط الخليفة يعج بالألقاب الفارسية والنساء والأغاني وأنماط التفكير الفارسية.

كان تأثير الفرس هذا عاملاً في تلطيف خشونة العرب[2]، وفي تعبيد الطريق أمام عهد ثقافي جديد. وبفضل الموقع الجغرافي للعاصمة (بغداد) دخلت التيارات (الفكرية) القادمة في الشرق، وبدا ان الفرس أخذوا يغزون فكرياً مَن (أي العرب) أخضعهم بالقوة لنفوذهم قبل مائة عام. لكن العرب لن يفرطوا اطلاقاً بخاصيتين اثنتين هما: الدين واللغة.

توفي أبو العباس في العام ٧٥٤ م. فخلفه المنصور وهو ما زال في الأربعين من عمره. كان الخليفة المنصور كبيراً، نحيفاً، زاهداً، بارعاً للغاية، غير متزمت، مثقفاً، يعشق الفنون والعلوم. فهو الذي أعاد تنظيم الحكومة والادارة والجيش، وأعطى لكل ذي حق حقه وأشرف على أموال الدولة بدقة وعيّن نائباً أول له (أو وزيراً) —[3]، وهو المنصب الذي شغله الوزير خالد المتحدر من عائلة البرامكة الشهيرة. وتوج الخليفة المنصور اصلاحاته هذه بانشاء مدينة بغداد التي ستبقى مدى التاريخ مدينة اسطورية.

بغداد الاسطورية

بغداد في الأصل مدينة بابلية قديمة تقع على الضفة الغربية من نهر دجلة. وكانت تبعد عن البصرة والكوفة المدينتين اللتين أخذت تنمو فيهما البروليتاريا منذ

ذلك الوقت. وقد وصفها الخليفة ذات يوم بأنها «موقع ممتاز لمعسكر حربي»[٤].

حقاً كان مركزها الاستراتيجي ممتازاً: فمن جهة البر كانت في أمان. ومن جهة الأنهر كانت على اتصال بالفرات ودجلة وبالأقنية. من جهة أولى كانت متصلة بالمدن الكبرى والمناطق الخصبة في الداخل. ومن جهة ثانية كانت على صلة بالخليج الفارسي (العربي) وكل مرافئ العالم. هذا الموقع الرائع لبغداد هو السبب المباشر في ازدهارها.

كانت المدينة محاطة بسور دائري ومحمية بتحصينات مزدوجة وخنادق عميقة. إضافة إلى سور ثالث للدفاع عن مدخل الأحياء المركزية. وكانت تخترق السور الدائري أربعة أبواب ذهبية تؤدي إلى الجهات الأربع للامبراطورية.

في وسط المدينة تم تشييد قصر الخلفاء والباب الذهبي الكبير. بالقرب منه، وفي مقابل كل زاوية من زواياه، شيّدت قصور الأمراء (أي حكام الولايات).

وحول المدينة التي كانت مقسمة كعقارب الساعة[٥]، تم بناء ١٢ قصراً لرؤساء المصالح الكبرى في الدولة. كانت كل هذه القصور تتمحور حول قصر الخليفة على أساس مخطط دائري وضعه مهندس فلكي أراد بذلك أن يشبّه بغداد بشكل السماء كما كان يتصورها حينها.

وخارج أسوار المدينة وعلى ضفة دجلة نفسها، شيد المنصور قصراً صيفياً أعجب به هارون الرشيد كثيراً فيما بعد، إذ انه أمضى فيه القسم الأكبر من حياته. ومن فوق شرفات هذا القصر كان يمكن مشاهدة السفن والمراكب وهي تفرّغ، على أرصفة دجلة، البضائع الواردة من جميع مرافيء العالم المعروفة يومها.

وفي المقابل، على الضفة الفارسية للنهر، شيّد المنصور قصراً لابنه المهدي. وسرعان ما تأسست، حول هذا القصر الجديد، مدينة أصبحت فيما بعد أوسع من بغداد. لكن المدينتين ظلتا على صلة احداهما بالأخرى بواسطة جسري - قوارب.

من الصعب جداً التحدث عن عظمة هذا القصر وعن ترف الخلفاء ببضع كلمات، حتى انه لا يمكن مقارنتها بأبهة البلاطات الفارسية والبيزنطية. لذلك ربما استطاعت الأرقام، على رغم طابعها الجاف، ان تبرز هذه العظمة في شكل أفضل.

قصر الخليفة

استناداً إلى المؤرخ أبو الفداء[٦] احتوى قصر الخليفة على ٢٠ ألف سجادة و٣٨ ألف بساط منها ١٢٥٠٠ بساط من حرير مطرز بالذهب ومعلق على الحيطان. كانت غرفة الاستقبال مذهلة للغاية: فالستائر والوسائد اختيرت من بين أجمل ما أنتجته الصناعة الفارسية.

كانت زوجة هارون الرشيد، زبيدة الجميلة، تنتعل بوابيج مضلعة بالجواهر كباقي زوجات العظماء في كل العصور. وهي لم تكن تقتني إلا الأواني الذهبية أو الفضية والتحف الغالية المرصعة بالماس والأحجار الكريمة

ووصلت روح العظمة هذه إلى درجة انه تم تغليف جذوع النخيل العديدة في الحدائق بمساند من خشب «التيك» المطعم بالذهب.

«... وقد أنفق عند زواج المأمون ببوران (كانت في العاشرة من عمرها يوم خطبها المأمون) سنة ٨٢٥، وهي بنت الوزير الحسن بن سهل. من الأموال والأرزاق. ما لا تزال آثاره حية في الآداب العربية إلى يومنا هذا. وهي تدل على مبلغ الترف والبذخ الذي بلغها ذلك العصر. قيل انه في أثناء العرس وقف العريسان على حصير ذهبي مرصع بالدر والياقوت فنثرت على بوران ألف درة من صينية ذهبية وأوقدت شموع من العنبر، وزن كل واحدة منها مائتا رطل، فانقلبت الظلمة ضياء»[٧].

وفي ما بعد، شيّد المقتدر «قصر الندوات» الذي يمكننا تصور ضخامته إذا ما علمنا ان اسطبلاته كانت تستوعب ٩ آلاف حصان وبغل وجمل.

وفي العام ٩٠٢م، شيّد المكتفي «قصر التاج» الذي غطت مساحته، مع الحدائق والأبراج الملحقة به، نحو عشرين كيلومتراً مربعاً. وكان هذا القصر لا يبعد كثيراً عن «قصر الندوات».

ولدى الاستقبال الفخم الذي أعدّه المقتدر في

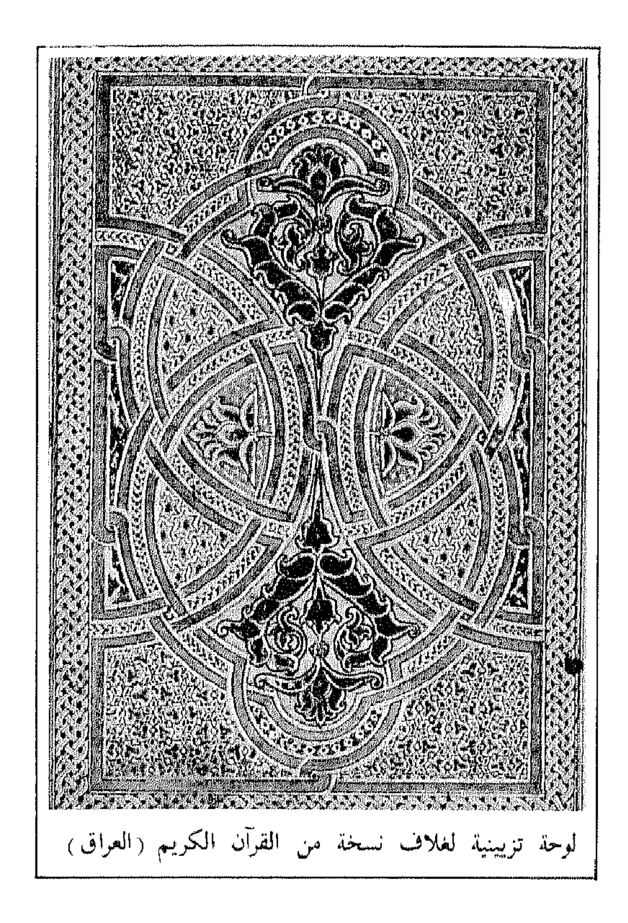
العام ٩١٧م. لسفراء بيزنطية[٨] ، انبهر هؤلاء بأروقة قصور بغداد الرخامية وبالفخامة الاسطورية لزخارفها ولمفروشاتها . «... وعبّئت لهم العساكر وصفّت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة ، وكان العساكر المصفوفون حينئذ مائة ألف وستين ألفا ما بين راكب وواقف ، ووقف الغلمان ذوو الزينة الحجرية والمناطق المحلاة ، ووقف الخدام الخصيان كذلك ، وكانوا سبعة آلاف : أربعة آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف خادم اسود ، ووقف الحجاب كذلك . وهم حينئذ سبعمائة حاجب ، وألقيت المراكب والزوارق في دجلة بأعظم زينة ، وزينت دار الخلافة . فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر . منها اثنا عشر ألفا وخمسمائة ستر من الديباج المذهب . وكانت البسط اثنين وعشرين ألفاً ، وكان هناك مائة سبع مع مائة سبّاع ، وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصناً ، وعلى الأغصان والقضبان الطيور والعصافير من الذهب والفضة . وكذلك أوراق الشجرة من الذهب والفضة ، والأغصان تتمايل بحركات موضوعة ، والطيور تصفّر بحركات مرتبة ، وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه ... »[٩] .

الخليفة الاسطوري

من بين جميع هؤلاء الخلفاء سيبقى هارون الرشيد إلى الأبد رمزاً للخليفة الأسطوري عند المسلمين . فالمؤرخون في عهده يعطون عنه صورة الحاكم المرح والمثقف ، وأحياناً صورة الحاكم الصارم ، لكنهم يصفونه بأنه كان انسانياً إلى درجة كبيرة . ويروي المؤرخون المسلمون أنه كان دائماً تقياً ومتعلقاً بدينه ، يقوم بفريضة الحج إلى مكة المكرمة كل سنتين ويؤدي الصلوات اليومية بكل خشوع . كان مضيافاً ، بشوشاً وذواقة بلا إسراف .

تزوج هارون الرشيد من ٧ نساء ، وعشق مائتي خليلة ورزق ١١ ابناً و١٧ بنتاً ، جميعهم ولدوا من جاريات ما عدا الأمين ، ابن زبيدة .

كان مفرط العطاء ويعشق الشعر إلى درجة أنه كان يغمر الشعراء أحياناً بهدايا سخية للغاية . فهو مثلاً قدم للشاعر مروان ، الذي مدحه في قصيدة قصيرة ، ٥ آلاف قطعة نقد ذهبية وثوباً مبهرجاً و٦ عبيد



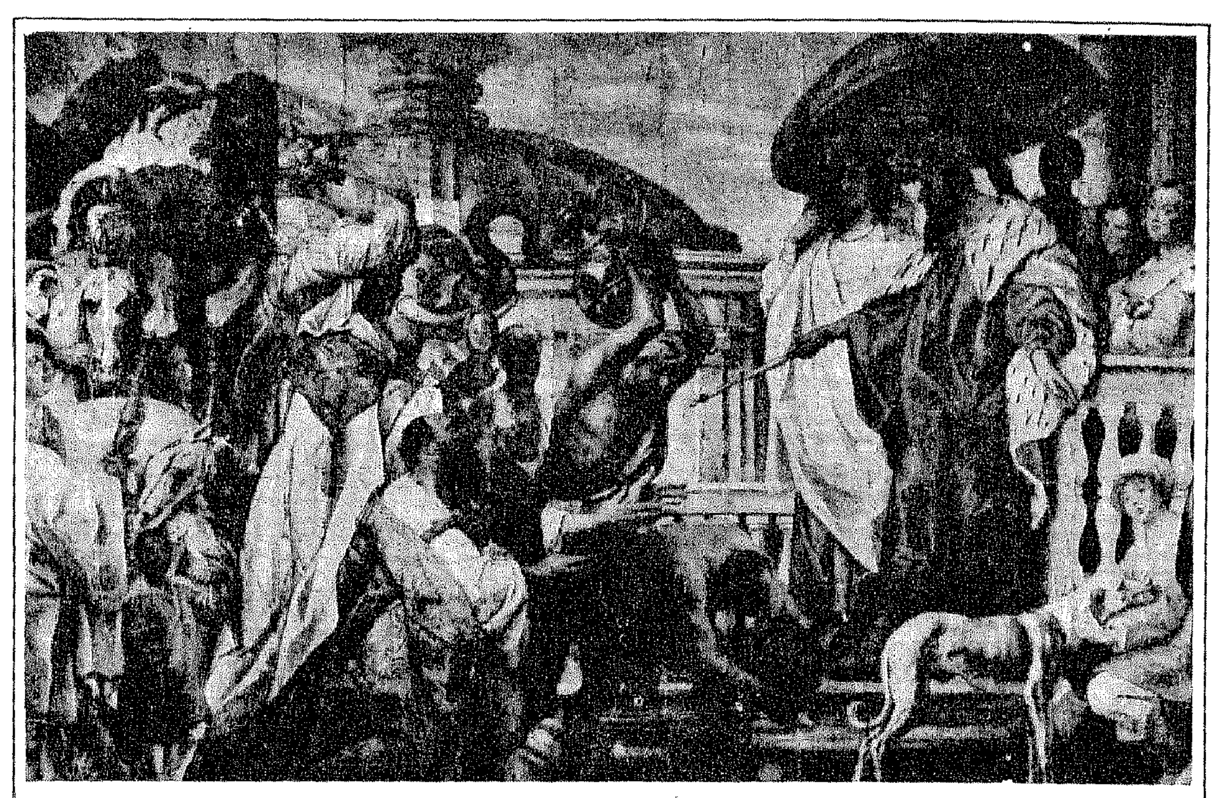
لوحة تزيينية لغلاف نسخة من القرآن الكريم (العراق)

أغريقيين يافعين وأحد أحصنته المفضلة .

كانت عظمة الرشيد تجذب إلى العاصمة ، كالمغنطيس الذي لا يقاوم ، كل الكفاءات والمواهب . فجمع حوله «مجموعة فريدة» من الشعراء والحقوقيين والأطباء واللغويين والخطباء والموسيقيين والفنانين والمبدعين على اختلاف مشاربهم . وقد عرف تقدير مؤلفاتهم وأعمالهم بذوقه المرهف فكافأهم بسخاء ، إذ إنه هو نفسه شاعر وعلامة وخطيب نابض العبارة بليغ اللسان .

لم يشهد التاريخ البشري كله وجود مثل هذا البلاط الذي كان يحوي نخبة ممتازة من المفكرين والعلماء .

اعتاد الرشيد على أن يستأنس بعدد من المرافقين للترفيه عنه . وكان لهؤلاء مواهب كبيرة للغاية إلى درجة ان صيت البعض منهم وصل الينا (أي إلى أوروبا) . كانوا كلهم ذوي أريحة حية وذاكرة قوية ومواهب متعددة المشارب ، وفي الوقت نفسه كانوا كلهم مغنّين وملحنين وشعراء وعلماء . فمثلاً ، في المساء ، عندما كان «المحرّق» يغني ، وهو في مركب فوق دجلة ، كان الناس



رسل هارون الرشيد يقدمون هداياه إلى شارلمان وبينها أول ساعة مائية ورقعة شطرنج من العاج.

يتدفقون صوبه من كل اتجاه حاملين المشاعل المتلألئة بالنور: في روعة الليل كان سكان بغداد يعشقون سماعه عن قرب.

ومن أصدقاء الرشيد وعرابيه المرحين نذكر الشاعر الأباحي أبا نواس الذي كان يثير ثائرة الخليفة بسبب اباحيته ووقاحته، لكنه كان دوماً يعرف كيف يهدىء أعصابه بأبيات رقيقة من الشعر.

وصف أبو نواس في كتاب «الأغاني»[١٠] وصفاً رائعاً الحياة الاسطورية والعظيمة لبلاط العظمة والمجد هذا. فهو الذي كتب عن الحفلة العامرة التي نظمها ابن هارون الرشيد، الأمين، نفسه: طوال ليلة بأكملها غنّت ورقصت مئات الجواري الجميلات حتى الفجر على أنغام الآلات الموسيقية. ومن أجل إرضاء هوايته الرياضية على نهر دجلة، أمر الأمين بصنع زوارق فخمة على شكل الدلافين والأسود والنسور. وكلّف الزورق الواحد بضعة ملايين من الدراهم.

طبعاً هناك أمثلة أخرى عن هذا الترف، الذي لا يمحوه النسيان، لمجتمع خلفاء بغداد العباسيين الذين كانوا مفعمين بالرقة والشاعرية.

حياة الناس العاديين

والآن... ولاستكمال صورة بغداد العباسية، لا بد من التعرف على حياة الناس العاديين خارج البلاط.

لم تكن المظاهر الفخمة ممكنة الوجود إلا لأن سكان الامبراطورية كانوا يفيضون نشاطاً في أعمالهم الزراعية والتجارية والحرفية. فالازدهار عمّ وادي دجلة والفرات ووادي النيل وسفوح إيران وسوريا وكذلك مناطق التمركز المهني في المدن الكبرى وأرصفة الموانيء. كان الحرفيون والتجار من كل هذه المناطق يبدعون في ابتكار وانتاج وايجاد البضائع والحاجيات النادرة التي تلبي متطلبات عظمة بلاط الخليفة وفخامته، وحاجات الدولة العظيمة.

كانت الطرق في المدينة ضيقة ومتعرجة، وهي خططت خصيصاً على هذا الشكل لتحمي سالكيها من وهج الشمس. وكانت تنتشر على جانبيها المحلات والمخازن الضخمة المكتظة بالشارين. وكانت هذه الطرق تصل بين المباني الملكية وأحياء الطبقة الميسورة.



المغول في حصارهم لبغداد – من مخطوطة فارسية – باريس.

في المدينة وفي ضواحيها. وعلى طول عدة كيلومترات. كانت تشاد المباني التي تظهر من الخارج بسيطة متواضعة لكنها في الداخل تتميز بالفخامة والثراء.

في الأرياف المجاورة كان الأتباع الأكثر يملكون المنازل الضخمة المبنية وسط حدائق شبيهة بجنات عدن: أحواض ونوافير وجداول وشلالات من المياه الصافية، وأزهار وثمار وأشجار وارفة الظلال.

يروى ان جعفراً، الوزير البرمكي، قام هو أيضاً ببناء قصر له كان من الفخامة إلى درجة انه لفت أنظار الناس. وسرعان ما استثار حسد البعض منهم. وللرد على حملات منتقديه على هذا البذخ حاول جعفر ايهام الناس أنه أهدى هذا القصر للخليفة، لكنه استمر في السكن فيه. فكان مصيره كمصير نيقولا فوكييه، وزير الملك لويس الرابع عشر. إذ كانت نهايته مأساوية. ولا بأس هنا من ذكر أسباب هذه المأساة:

كان هارون الرشيد يحب جعفراً كثيراً. وهذا ما نستنتجه أفضل استنتاج من خلال هذه الورقة الصغيرة التي وجدت في محفوظاته: «٤٠٠ ألف قطعة نقد ذهبية ثمن ثوب للتشريفات لجعفر. ابن الوزير يحيى». مثل هذه الهبة وغيرها الكثير أدت إلى النميمة. والقضية لم تكن لتستتر طويلاً. فجاء اليوم الذي اغتاظ فيه الخليفة من جعفر وذلك عندما أطلق هذا الأخير سراح أحد المتردين المحكوم عليهم بالاعدام. وتمّ وضع حد لهذه الامتيازات، على رغم أن شقيقة الخليفة، العباسة، كانت متيمة بجعفر للغاية.

إضافة إلى كل الاتهامات التي وجهها الخليفة إلى جعفر، احتج الرشيد بأصل وزيره الفارسي ليرفض زواجه بشقيقته إلا بشرط أن يتقابل العروسان في حضوره فقط. طبعاً كان هذا الشرط صعب التحقيق. فأخذ جعفر وعباسة يجتمعان في السر. وفيما بعد رزقا بطفلين ترعرعا في السر أيضاً. وعندما علم هارون الرشيد بالأمر غضب غضباً شديداً فأمر باعدام شقيقته وبقطع رأس جعفر. وبعدما تأكد من تنفيذ هذين الأمرين استدعى الطفلين وتحدث إليهما طويلاً وأخذ يداعبهما حتى خنقهما بيديه.

وكان مصير والد جعفر، الوزير والوالي الكبير يحيى، وكذلك شقيقه، الموظف رفيع المستوى، السجن

بعد مصادرة أملاكها الضخمة.

حاول المؤرخون البحث عن أسباب أعمق لهذه النهاية القاسية لحكم البرامكة. فرأى إبن خلدون «السبب الحقيقي... في ادعاء الوزراء السيطرة على كل السلطة، وفي استخدامهم الفردي للمال العام استخداماً فظاً إلى درجة ان هارون الرشيد نفسه كان غالباً ما يطلب مبلغاً صغيراً من المال ولا يستطيع الحصول عليه».

ربما كان الخليفة لا يريد أن تنشأ إلى جانب سلطته سلطة أكبر منها وبلاط آخر مواز لبلاطه. وفي الواقع كان الوزراء يتنافسون بلا أدنى حذر للتشبه بالخلفاء في بلاطهم إلى درجة انهم أخذوا يقلّدون ابهة الخلفاء فيجمعون حولهم الشعراء والمهرجين والفلاسفة وطبيعي أن مثل هذا الوضع كان غير قابل للاستمرار.

الرياضة والألعاب

لكن المجتمع العباسي سرعان ما كان ينسى في غمرة مظاهر الحضارة واللهو: من رحلات الصيد إلى سباق الخيل والبولو[11]، ومن رمي الرمح إلى القوس والنشاب والمبارزة بالسيف وألعاب الكرة والبيْزر[12]، وأيضاً إلى اللقاءات الجماعية في المراعي على ضفاف دجلة حيث يتناول المدعوون الدجاج المحشي بالجوز المقشر، والحليب مع اللوز، والسكريات اللذيذة والشراب المعطر بنكهة البنفسج والورد والفريز.

وهناك عيد واحد كان يلقى في شكل خاص حماسة من الجميع وهو «سهرة ثلاثاء المرفع» (عند مسيحي بغداد): في هذه المناسبة كان الرجال يتنكرون بفساتين نسائية والنساء بثياب رجالية، وكانوا يرقصون ويضحكون ملثمين.

ولا يعني ذلك ان الحفلات المقنّعة نشأت منذ قيام هذا العيد: في الواقع كانت الحفلات جزءاً من برنامج معظم اللقاءات العامة المتضمنة أيضاً تمثيليات إيمائية وفقرات من أخيلة الظل. وكان الرجال والنساء يرتادون مثل هذه الحفلات وهم مجللون بالجواهر وبالثياب الفخمة الملونة والمزركشة بالحرير والذهب، ومعطرون بالعنبر الرمادي وبالبخور. ومع ذلك فلا تشترك نساء المجتمع الراقي في حفلات الرجال وانما تستبدل بهن الجواري الحسناوات.

وبموازاة هذه الحفلات كانت النخبة تنظم الاجتماعات الشعرية والمنتديات الفلسفية حيث تحتدم المباريات الأدبية والعلمية في جو راق للغاية. وكانوا أيضاً يعقدون ندوات عامة لتلاوة آيات بيّنات من القرآن الكريم وشرحها.

صحيح ان هذا العصر شهد جواً لاهياً، إلا انه شهد أيضاً تسليات رفيعة المستوى بسبب ما كان فيه للمثقفين من حظوة كبيرة: فالمدارس كثيرة والفنون والعلوم تلقى التشجيع الرصين. والجو العام يعبق بالشعر ويسوده التقدير السامي لكل من يبدع في شكل عام.

تميزت الحياة في بغداد بشيء من الزهو والحماس. ففي عهد هارون الرشيد لم يكن عمر المدينة يناهز الخمسين سنة بعد، لكنها اعتبرت مع ذلك كمركز عالمي من الدرجة الأولى وكملتقى للطاقات الفكرية. وبما ان بغداد نمت في الوقت نفسه الذي كانت تنمو فيه امبراطورية الخلفاء، فهي سرعان ما أصبحت تنافس بيزنطية.

مليون ونصف مليون رجل

تشير بعض التقديرات إلى ان بغداد ضمّت في القرن الحادي عشر الميلادي على الأقل مليوناً ونصف المليون من الرجال. ونظراً إلى ان النساء لم يكن يؤخذن في الحسبان في أي احصاء يومها، فان هذا الرقم يسمح لنا بتقدير مجموع السكان في بغداد بثلاثة ملايين نسمة.

ويؤكد بعض المؤرخين ان المدينة احتوت على ٦٠ ألف حمام و٣٠ ألف مركب و٢٧ ألف جامع. ربما علينا أن لا ندهش لهذه الأرقام[13]، ففي صدر الاسلام كانت كلمة «جامع» تشمل كل مركز شريف القصد كالمدرسة والنادي وحتى السوق.

وبالنسبة إلى الحمامات فانها لم تكن فقط مكاناً للاغتسال وانما أيضاً مراكز فخمة للتسلية.

عاش في بغداد أناس من كل الديانات: فكان للمسيحيين العديد من الأديرة ولليهود محكمتهم الخاصة وحتى سجنهم الخاص. وبعض الوزراء كانوا من المسيحيين أو من المجوس أو من اليهود. لذلك اعتبرت هذه المدينة الكوسموبوليتية نموذجاً للتسامح وللادارة الحكيمة.



لوحة من كتاب الأغاني ، المجلد السابع عشر (استانبول).

في هذا الوقت ، كيف كان يعيش الناس العاديون وفقراء المجتمع ؟

كما في كل العصور ، كان الشعب هو صانع هذه الحضارة : فعلى متن السفن وعلى الأرصفة وفي الورش والأسواق كان العمال والشغيلة والحرفيون يؤدون واجباتهم القاسية بوجوه صارمة ودون اكتراث بالأناقة المنتشرة تحت أبصارهم. وكانت كل جمعية تملك ورشاتها أو حوانيتها ، ومخازنها أو معاملها ، وتتجمع داخل الحي نفسه : سوق الحدادين مضاء بشرارات احتكاك المعادن بعضها ببعض ، سوق النحاس تدوي فيه ضربات المطارق. المجلخون والحدادون وصانعو الأسلحة ينتشرون في كل زاوية ، كل في عمله. سوق الصاغة يشع بالجواهر المعروضة فوق مساند ذهبية أو فضية. داخل محلات الخياطين حركة الشراء وأخذ القياسات ناشطة. صانعو الأحذية يجهّزون البوابيج الأنيقة والقباقيب الفلاحية. صانعو الفخار منكبّون على طاولاتهم يبدعون أشكالاً مختلفة من الأواني بينما بائعو الأمشاط والمسابح يجلسون القرفصاء في انتظار الزبائن. في وسط الشارع تضج قوافل الجمال والحمير والبغال برنين أجراسها الذي يمتزج بصراخ الباعة المتجولين. ووسط هذه الجموع الحاشدة يتناول المارة ما يشتهون من الرقائق والفطائر والشراب وكذلك الباذنجان والكوسا المقلي في المطاعم الشعبية.

هكذا كان المشهد اليومي لبغداد.

كان البناء يغزو بغداد سريعاً : فالنجارون والبناؤون وعمال الحفر والدهانون يشكلون في كل حي نوعاً من بورصات صغيرة للعمل ، إذ انهم لا يحددون أسعار المشروع والأجور اليومية لليد العاملة فحسب ، وانما أيضاً يتحكّمون في سوق العمل أيام المواسم الراكدة.

من بين كل هذه الجمعيات كانت احداها تنشط

في شكل كبير للغاية على طول الأرصفة، وهي جمعية الحمالين وعمال المرفأ والبحارة. كانت تحصل بعض الاضرابات إما لأسباب سياسية أو لطلب زيادة في الأجور. لذا كانت بغداد، كأية مدينة معاصرة، تفتقر أحياناً إلى الطحين أو التمر أو الزيوت، فتتدخل الشرطة وتهدىء من روع المضربين وتعيد الأمن والنظام.

في شكل عام، كان هذا العالم الصغير من الناس البسطاء المرحين يشهد نشاطاً انتاجياً مبدعاً. وبين الحين والآخر تتوقف الحياة اليومية العادية في الشارع لدى مرور موكب زواج أو مراسم ختان طفل أو مرور دورية للشرطة. وعندما ينتهي الحدث تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي.

كان الانسان المسلم العادي الذي يكفي نفسه بنفسه فخوراً بمسجده وبمدينته وبخليفته. وكان يشعر ببعض هذه العظمة تنساب إلى ذاته في شكل أو في آخر ●

الهوامش

(١) منذ بداية القرن التاسع الميلادي كان زعامة السياسة العالمية: شارلمان في الغرب وهارون الرشيد في الشرق ثم الأمويون في الأندلس ودولة بيزنطية. وليس من شك أن هارون الرشيد كان الأقوى والأرفع ثقافة. (راجع «تاريخ العرب...» ص ٣٧٠).

(٢) توضيحاً لهذه النقطة نورد ما جاء في كتاب «تاريخ العرب...»: «... لم يكن للفرس، عدا الفنون والآداب، شيء يذكر مما يستفيد منه العرب. فهم امتازوا بالميل إلى تذوق الجمال وكادت أن تكون هذه الناحية مفقودة في ثقافة العرب الساميين فاقتبسوها من الفرس. اضافة إلى ذلك كان للفرس أثر من الناحية الأدبية لا من نواحي العلم والفلسفة...» (ص ٣٨٢).

(٣) ظهرت الوزارة، وهي منصب فارسي الأصل، للمرة الأولى في الحكومة الاسلامية في عهد الخليفة المنصور.

(٤) النص الأصلي لهذا الوصف جاء في كتاب «تاريخ العرب...» (ص ٣٦٣-٣٦٤)، نقلاً عن الطبري (ج٣ ص ٢٧٢):

«... هذا موضع معسكر صالح، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك...».

(٥) راجع الرسم الواضح لبغداد المدوّرة في كتاب «امبراطورية العرب...»، صفحة ٤٧٥.

(٦) وهو أبو الفداء المعروف بصاحب حماة المتوفى سنة ١٣٣١م. والمشهور بأنه من علماء التاريخ والجغرافيا ومن رجال الحرب معاً. ألّف كتاباً في أخبار البشر ضمّنه كل ما هو خاص بالشرق.

(٧) النص مأخوذ من كتاب «تاريخ العرب...»، صفحة ٣٧٥.

(٨) كان الضيف هو سفير قيصر الروم.

(٩) النص مأخوذ من كتاب (حضارة العرب...» (ص ١٧٥) نقلاً عن المؤرخ العربي أبو الفداء.

(١٠) مؤلف «الأغاني» هو أبو الفرج الاصفهاني (حوالي ٨٩٧ - ٩٦٧م.) وليس أبو نواس.

(١١) البولو هي لعبة رياضية تمارس على ظهر الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية.

(١٢) البيْزر هي مطرقة خشبية ذات رأسين.

(١٣) في هذا يوضح مؤلفو كتاب «تاريخ العرب...»، استناداً إلى مؤرخي العرب - المسلمين أنه «أحصيت الحمامات في أيام المقتدر فكانت، حسب قول الخطيب البغدادي، ٢٧ ألفاً. وكانت في زمن آخر ٦٠ ألفاً. وهذان الرقمان كسواهما من الأرقام التي نجدها في المصادر العربية مبالغ فيهما: فاليعقوبي يجعل عدد الحمامات، بعد تأسيس المدينة بزمن يسير، ١٠ آلاف. أما الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار بغداد سنة ١٣٢٧م. فانه رأى في الجانب الغربي منها ١٣ محلة كل محلة فيها حمامان أو ثلاثة من أبدع الحمامات مجهزة بالماء الحار والبارد...» (ص ٤١٥).



فتح القسطنطينية

الحلقة الاولى

ملحمة اسلامية خالدة

ترجمة: "تاريخ العرب والعالم"

● صفحات من المجد الاسلاميّ الخالد، حافلةٌ بالبطولة الخارقة، والرجولة العارمة، تجلّت فيها عظمة السلطان الشاب محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية، وقضى على الامبراطورية الرومانية الشرقية.. انه يوم الفتح عن جدارة واستحقاق...

لأول مرة في التاريخ العربي تنشر هذه الملحمة الخالدة نثراً وبكل تفاصيلها باللغة العربية، وهي لمكانتها العظمى في التاريخ، تعد من أعظم الملاحم العربية والاسلامية. وقد عربناها عن الأنكليزية، بعد درس وامعان وتروّ، لئلا تكون ملغومة بالتعصب والانحياز والاثارة المضلّلة، فوجدنا فيها الكثير من النزاهة والصدق والتجرد، على اعتبار انها حدث هام - مِلك للتاريخ، فإذا كانت قد استحقت العناية والرعاية من المؤرخين والمؤلفين الأجانب، فان العرب والمسلمين خليقون بأن يولوها رعايتهم واهتمامهم، ويضعوها في المحل الأول من اعتبارهم وعنايتهم إلى جانب ملاحمهم الكبرى كاليرموك، والقادسية، وعين جالوت، وحطين وغيرها...

وانه لمن المؤسف حقاً ان نرى الشعراء العرب قديماً وحديثاً، يهملون اهمالاً تاماً نظم ملاحم المجد العربي والاسلامي شعراً، وينصرفون إلى نظم مآسي الحب والغرام مضحين بالأهم من أجل نظم المهم من القصص التراجيدية، فمآسي الحب والغرام التي نظمها الشاعر أحمد شوقي وطنطنت بها الأقلام في حينها من أمثال مسرحيات: كليوبترا، وقمبيز، ومجنون ليلى، وعنترة، لا تعبر عن تاريخ العرب والمسلمين الممثّل أحسن تمثيل في حروب الفتح وملاحمه الشهيرة، لذلك جاءت تراجيديات شوقي في مرتبة أدنى كثيراً من روائع الملاحم الكبرى الجديرة بأن تنظم شعراً يُخلّد الناظم والمنظوم..

وقد رأينا الأديب الكبير المرحوم سليمان البستاني يُعنى بنظم ملحمة «الألياذة» للشاعر هوميروس، وهي ملحمة طروادة أو «ارواد» وهذا عمل جدير بالتنويه والتقدير، ولكنه بَعُد كثيراً عن الهدف العربي الأسمى، «فطروادة» كانت قلعة صغيرة حاصرها حفنة من الأغارقة جاؤوا من شتى المدن الأغريقية، وحدثت بين أواخر القرن الثاني عشر والقرن الحادي عشر قبل الميلاد، بينما المعارك العربية والاسلامية تكاد تكون قريبة العهد أو في الزمن المتطور الواقع ما بين سنة ٦٠٠ و ١٥٠٠ ميلادية.

ورأينا العديدين من شعراء العرب على مرّ العصور والأجيال، ينصرفون عن ملاحم الخلود إلى «شعر النّهود»، ومع ان بعضهم ألمّ الماماً سطحياً ببعض المعارك التي جرت في زمانهم. فان بعضاً أخر منهم كرّس جهداً بيّنا في وصف المعارك الطاحنة بين العرب والروم كالمتنبي، وهناك الشعر الجاهلي الذي وردت فيه



لوحة من العاج تمثل رمزاً للقسطنطينية من القرن الخامس الميلادي.

قصائد ومقطوعات تصف أيام العرب، ومعاركهم وغزواتهم وصفاً صادقاً يلمس فيه القارئ روحاً شاعرية وفطرة سليمة ونغماً متفاعلاً. ولكن ذلك كله لم يكن متلاحماً في قصة استطرادية من الشعر. وهناك من الشعراء من تناولوا بالذكر والإشارة معارك حقيقية بارزة، ولكنهم جعلوها مقدمة استهلالية للوصول إلى مدح خليفة أو ملك أو قائد عربي. لذلك عمدنا في هذه المقدمة إلى تنبيه الأذهان وحث الجهود إلى العناية بالملاحم العربية والاسلامية الخالدة، لترجيع ثروتنا الأدبية، واغنائها بالملاحم الشعرية، حتى لا يظل الشعر العربي متهماً بالقصور، ومُقْتَصراً على شعر الغزل والمديح، والهجاء والشعر السياسي، والرمزي، وأمثال ذلك.

الامبراطورية الرومانية

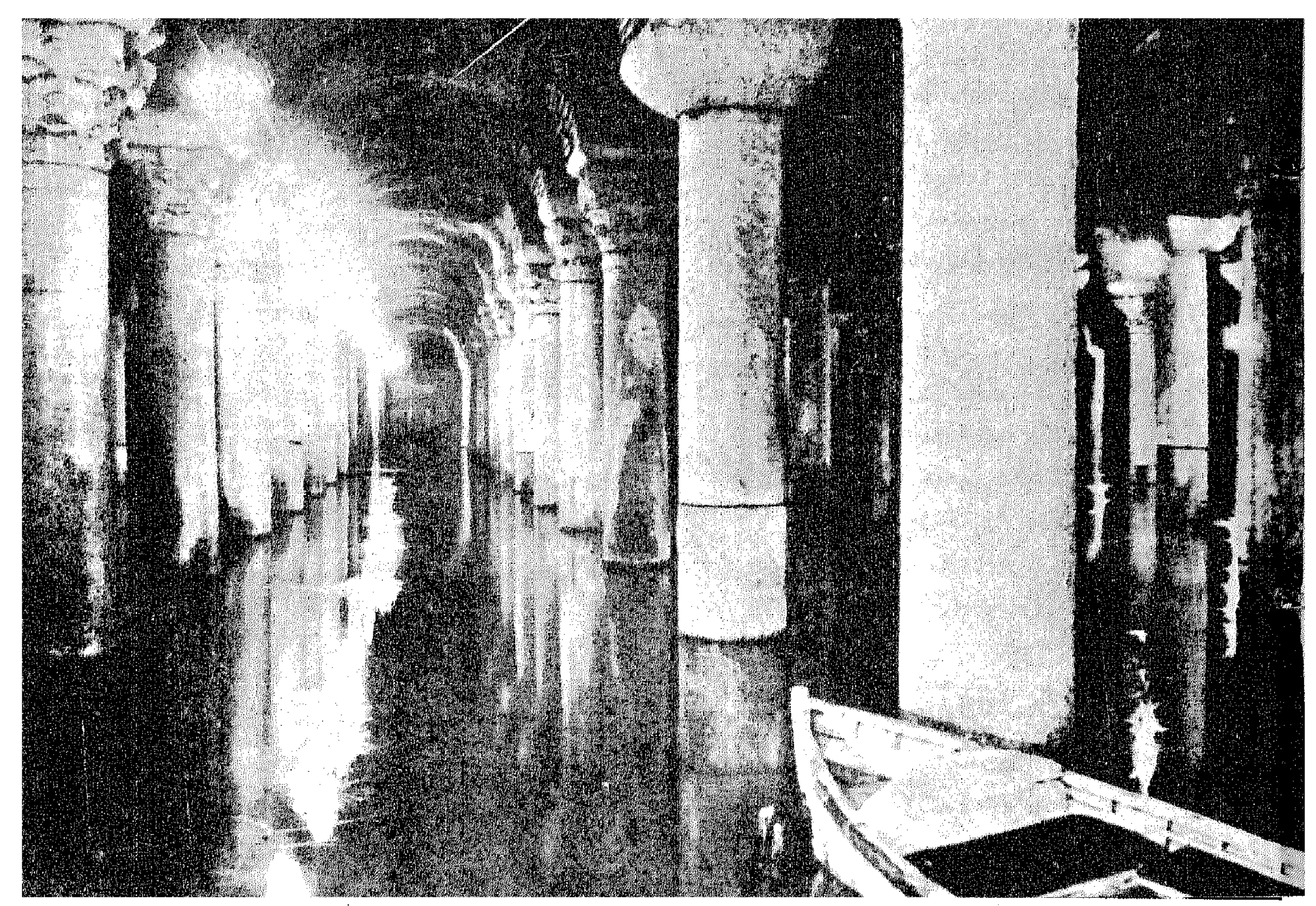
كانت الامبراطورية الرومانية قد مرّت بدورين رئيسيّين في حياتها المديدة المترفة التي طالت إلى حوالي اثني عشر قرناً، هما العهد الجمهوري الذي كان يتولى فيه الحكم القناصل الرومانيون والعهد الامبراطوري الذي كان يتولاه الأباطرة - ذلك عندما كانت روما سيدة العالم. وكان طموح قناصلها وأباطرتها أكبر من حجم ايطاليا نفسها، لذلك انساقوا وراء طموحهم عندما جعلوا «الاسكندر المقدوني» مثلهم الأعلى، فعمدوا على سبيل التقليد والمحاكاة، إلى توسيع الأمبراطورية على حساب جيرانهم والأبعد من جيرانهم - من الممالك والشعوب المستقلة في أوروبا والشمال الأفريقي أو البلاد الرازحة تحت حكم خلفاء الإسكندر المقدوني في الشرق الأدنى ومصر. وبذلك الانسياق الأعمى وراء الطموح حولوا العالم القديم، إلى بحر من الدماء.. التي كانت تنزف من جروح مئات الألوف من المحاربين الشرفاء المدافعين عن أوطانهم أو البلاد التي يستعمرونها في القارات الثلاث.

وكان الأباطرة والقادة والرومان يحاربون على كل الجبهات في آن واحد. فقضوا سنين طويلة وهم يحاربون الشعوب البريطانية، والفرنسية، والجرمانية، والبلقانية، ثم زحفوا على الشرق الأدنى «بونت» في آسيا الصغرى وكيليكيا ومملكة الأنباط وغيرها.

وهكذا استولت روما بالحديد والنار على نصف سكان العالم القديم، وكانت تحتفل بانتصاراتها على شكل رهيب مفزع، مجرد من الانسانية، طبقاً لشرائعها التي كانت تحضّ على استعباد المغلوبين واباحة أقطارهم للسلب والنهب، وجر الأسرى بالألوف من ملوك وشرفاء وقادة وجنود إلى أسواق النخاسة ليباعوا عبيداً، أو إلى الميادين لمصارعة الأسود، أو لينازل أحدهم الآخر بالسيوف القصيرة والرماح والبلطات، على مشهد من الطبقة الأرستقراطية الرومانية التي كانت تستلذ مشاهدة تلك المذابح والمجازر اللاإنسانية. فعمت المذابح الرومانية كل بلد محتل حتى ليقال بأن الرومان صبغوا انهار الكون المحتل بدماء الشعوب المقهورة.

ولم تتنفس أوروبا الصعداء إلا بعد أن غزا تيودريك ملك القوط ايطاليا واستولى عليها كلها ما بين الأعوام ٤٧١ و٥٢٦ ميلادية. فقضى بذلك على نفوذ روما وسيطرتها على أوروبا وعادت الأنهر فيها تجري بالمياه العذبة وبلونها الطبيعي.

ولكن الامبراطورية الشرقية المعروفة بالبيزنطية، والتي ظنت بأنها الوريث الشرعي للامبراطورية الغربية، ظلت مسيطرة على آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين



صهاريج القسطنطينية التي كانت تمدها بمياه الشرب في اقبية ناهضة على اعمدة من الرخام الناصع البياض.

والأردن ولبنان ومصر وغيرها حتى الفتح العربي. وحلت القسطنطينية التي أعاد بناءها الامبراطور قسطنطين الأول، على أنقاض مدينة بيزنطة ما بين الأعوام ٣٠٦ و٣٩٥، وسماها القسطنطينية.

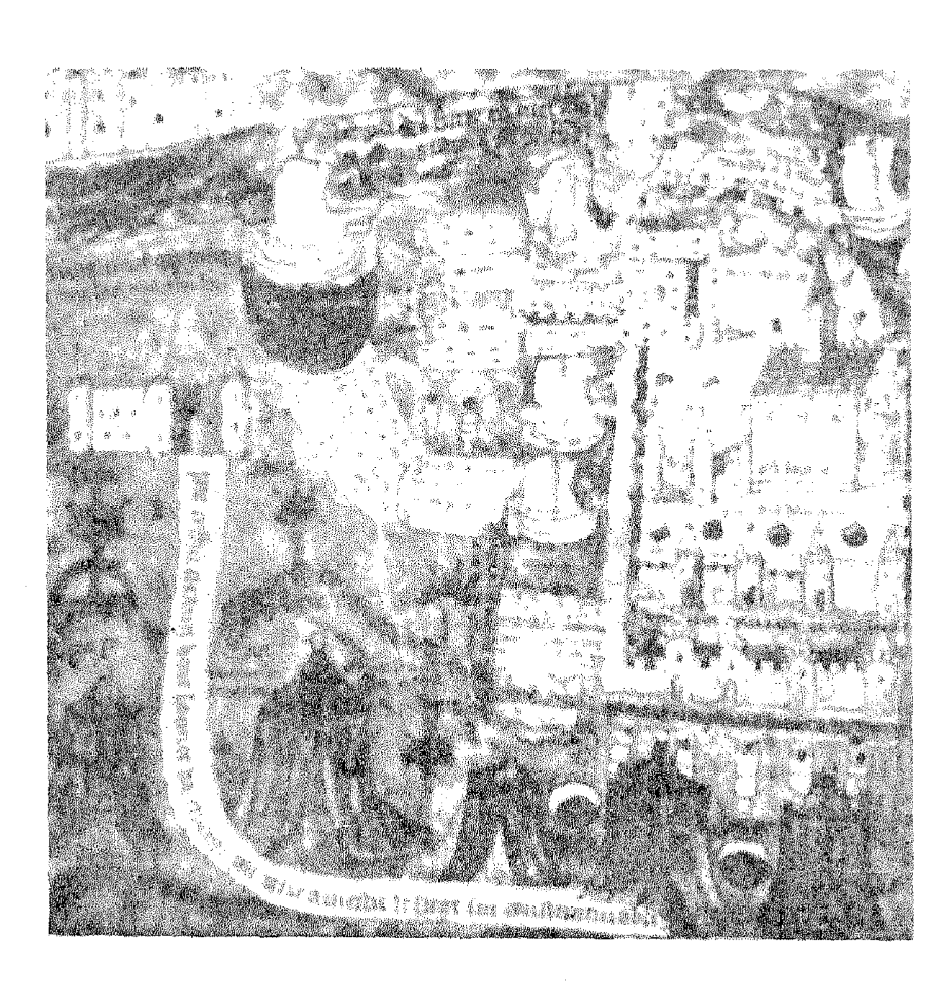
محاولات العرب

ومع ان الفتح العربي كان نعمة وانقاذاً للشعوب السامية والكنعانية في الشرق الأدنى إلا أن القسطنطينية لم تكف عن الغزوات والحروب مع العرب.

وظلت الجيوش العربية من عهد معاوية بن أبي سفيان متيقظة للتحركات الرومانية البيزنطية في الشمال، فدحرت جيوش القسطنطينية مراراً وتكراراً وفرضت عليها الجزية وقيدتها بمعاهدات صلح ومهادنات عديدة، ولكن البيزنطيين كانوا ينقضون تلك العهود، ويعودون من جديد في كل مرة إلى التحرش بالعرب والهجوم على مدنهم وقراهم الواقعة على الحدود.

وقد حاول القائد مسلمة بن عبد الملك الاستيلاء على القسطنطينية، وحاصرها بالفعل ولكنه رُد عن اسوارها «بالنيران اليونانية» الجهنمية، بالاضافة إلى صقيع الشتاء وثلوجه وأعيدت المحاولة في عهد هرون الرشيد ولكنها باءت بالفشل.

ونهد المعتصم بجيش كثيف معظمه من الأتراك لتأديب مدينة «عمورية» التي كان يساق إليها الأسرى والسبايا من العرب عقب بعض الغزوات البيزنطية للعواصم أي للمدن والقرى العربية الواقعة على الحدود.. وصادف ان صاحت احدى المسبيات: وامعتصماه! مستنجدةً بالخليفة المعتصم بن هرون الرشيد، فلبى المعتصم استغاثتها وزحف على «عمورية» واحتلها وأشعل فيها النار، ولكنه عاد ويا للأسف بالجيش إلى بغداد، ولم يحتل الأجزاء التي استولى عليها، وكان قد فعل ذلك من قبل مسلمة بن عبد الملك وهرون الرشيد، وذلك خلافاً للغزوات العربية الأقدم عهداً، حيث كان القادة العرب يحتفظون بالبلاد المحتلة – كأسبانيا والهند وافغانستان



منظر للقسطنطينية واسوارها من مجموعة هارتان سكيدل – ١٤٩٣

وبخارى وطشقند وسمرقند وغيرها. لذلك لم يكن لتلك الحملات الباهظة التكاليف أي أثر خالد في التاريخ العربي، أما قصيدة أبي تمام في فتح عمورية فقد كانت المغالاة فيها أكثر من الحقائق لأن الفتح لا يكون فتحاً إلا إذا استولى الفاتح على المدينة، وضمها إليه، وهذا لم يحصل، كما ان غزوة عمورية لم تكن كما قال أبو تمام «فتح الفتوح» وإلا كانت أعظم من فتوح الشام ومصر والشمال الأفريقي والهند وو..الخ.

وفي القرن الرابع الهجري، كان سيف الدولة الحمداني أميراً على مساحة عظيمة من سوريا تمتد من حمص جنوباً إلى طرسوس في كيليكيا شمالاً ومن الأسكندرونة وانطاكية وحلب غرباً إلى جنوب الأناضول – ديار بكر وماردين وميا فارقين ومنبج وسروج وملاطية وقلعتيْ الحدث ومرعش ومعابد جبال طوروس.

وقد ظلت الحرب بينه وبين البيزنطيين سجالاً.. ولم تخل من مآس وقعت في الجانبين.

وفي أثناء العهد العثماني استطاع السلطان مراد الأول – ١٣٦٠ – ١٣٨٩ أن يوسع الدولة العثمانية في الأناضول والبلقان وانتصر السلطان مراد الثاني ما بين ١٤٢١ و١٤٥١ على القوات الهنغارية في معركة «فارنا» ويبدو انه ترك مهام فتح القسطنطينية وانتزاع شوكتها من خاصرة السلطنة العثمانية، إلى ولده السلطان محمد الثاني – الملقب بالفاتح عن جدارة واستحقاق.. هذا مع العلم ان أباه وأجداده، كانوا جميعاً من الفاتحين العظام وكذلك من جاء بعدهم وفي مقدمتهم السلطان سليمان..

السلطان محمد يحاصر القسطنطينية

ويبدو ان السلطان محمد بقي متذكراً لوصية والده بفتح القسطنطينية، لذلك قرر أن ينتزع شوكتها بأي ثمن.. وكان مولده في عام ١٤٣٢م وتولى الحكم بعد والده في عام ١٤٥١م فتصدى له بالحرب والدفاع عن عاصمة البيزنطيين الامبراطور قسطنطين الحادي عشر ١٤٠٤ – ١٤٥٣، وكان كلاهما شاباً يافعاً تدرب على الحرب والقتال بعد أن تجاوز سني الطفولة، وكان كل منهما يتمتع بارادة كالحديد وبصلابة وعناد يتجاوزان الحد المألوف.

ولما نشبت الحرب بينهما كان من الواضح جداً أن قسطنطين بجيشه الصغير نسبياً لا يستطيع مجابهة جيش محمد الكثيف الذي لا ينضب له معين،

فاحتياطيه من الجنود كان كبيراً جداً. لذلك دخل الامبراطور وجيشه والمرتزقة اليونانيون والجَنَويّون الفينيسيّون إلى داخل القسطنطينية. وانتشروا فوق أسوارها ينتظرون وصول النجدات الآتية من الغرب.. ولكن هل ستأتي.؟ وفرض السلطان محمد حصاراً محكماً على المدينة براً وبحراً.

ومن يوم ليوم كانت عاصمة الامبراطورية البيزنطية - التي يبلغ عمرها ألف سنة تتوقع نهايتها وتعلم في الوقت نفسه بأن معجزة فقط قادرة على أن تنقذها.

وكان السلطان محمد قد عاني من نكستين مريرتين، مُني بهما في الأشهر السابقة إحداهما أمام بوابة رومانوس والأخرى في البحر، ولكنه يستطيع الآن الاعتماد على النجدات والامدادات التي تصله تباعاً.

وكان الصدر الأعظم ضيق الصدر متشائماً، لذلك كان يفضل التخلي عن الحصار والانسحاب، ولكن زاغان باشا قائد الجيش التركي عارضه في ذلك، وهي المعارضة التي كان يتمنى أن يسمعها السلطان محمد.. ومع ذلك فان تحقيق النصر سوف لا يتم إلا من جهة القرن الذهبي، وإذا لم تتمكن الارمادا التركية من اقتحامه، فلا بد من ايجاد وسيلة أخرى، وكان التفكير في الهزيمة يُثير عبقرية السلطان محمد الحربية ويحفزها إلى إبتداع الحل المناسب.

جرّ الأسطول التركي فوق اليابسة، لنقله من البسفور إلى القرن الذهبي

ومنذ الأيام الأولى من الحصار المفروض على المدينة، والمهندسون الأتراك يشقون طريقاً بين البسفور والقرن الذهبي، لذلك قرر السلطان أن ينقل الأسطول من البسفور فوق اليابسة إلى القرن الذهبي، وبذلك يتمكن من تطويق المدينة - التي كانت ما تزال تحتفل بهزيمة الأسطول التركي، لذلك أصدر السلطان أوامره إلى الألوف من العمال باكمال الطريق البالغ طولها خمسة أميال، وفقاً لبرنامج عملي حثيث لا يتوقف.

وفيما كان السلطان محمد مشغولاً بمد الطريق كانت المدفعية التركية قد حولت جزءاً من السور إلى أكوام من الحجارة بالقرب من بوّابة رومانوس. ومما يدعو إلى السخرية ان القادة الأتراك لم ينتبهوا إلى تلك الثغرة التي فتحتها قذائف المدفعية، وإلا لكانوا اغتنموا تلك الفرصة ودفعوا بعشرة آلاف جندي لعبورها والنفاذ منها إلى قلب المدينة المحاصرة واحتلوها.. وكان السلطان محمد مشغولاً بمد الطريق، ولم يكن بوسعه أن يكون في كل مكان، لذلك ضاعت تلك الفرصة الذهبية، ورمّمت الثغرة على الفور.

وما ان انتهى العمال من مد الطريق حتى أمر السلطان بجر المراكب الحربية فوقها من خليج البسفور إلى مياه القرن الذهبي، فكان المركب الواحد يُربط بالحبال القوية من اليمين واليسار، فيبدو وكأنه بين عمودين من الحبال المجدولة، وكانت أطراف الحبال معقودة بأنيار الثيران «جمع نير» أما أرضية الطريق فقد فُرشت بالعوارض الخشبية، ولما كان لا بد من رفع مقدمة المركب فوق مستوى البحر إلى علو ٢٠٠ قدم. فقد كانت الجبال المزيّنة تمر من خلال بكرات لتتم عملية الرفع والجر بسهولة، وما ان يصبح المركب فوق العوارض الخشبية حتى تسرِع الثيران بجره وهي عملية شاقة جداً، ومن وضع بنات أفكار السلطان محمد.

وما ان يستوي المركب فوق العوارض حتى تنحدر الطريق الجديدة انحداراً شديداً إلى أن يبلغ المركب وادي العيون خلف «غالاتا» ثم تصبح الطريق أكثر انحداراً حتى نهايتها وعندئذ، ينزلق المركب إلى أحضان مياه القرن الذهبي. وبما ان السلطان محمد، كان قاموسه لا يحتوي على كلمة «عجز» فقد حقق ذلك العمل الخارق بما يناسبه من جهود خارقة جداً، جعلت الذين كانوا يشكون بعقم المحاولة، يؤمنون بعقله العبقري المخطط، وكان هو نفسه واثقاً من انه سوف يتفوق على أعدائه بالحرب النفسية، فأمر السلطان بنشر قلاع المراكب الحربية واستبدال سواري الاعلام المكسورة بسوار جديدة.

وفي ليلة ٢١ ابريل (نيسان)، بدأ السلطان محاولته الجريئة بجر سفينة حربية صغيرة من طراز «فوستا» فجرتها الثيران فوق العوارض الخشبية وساعد في ذلك احتياطي هائل من العمال والمحاربين، وبهذه البادرة الناجحة تم نقل المزيد من المراكب الحربية تحت أنظار السلطان الجريء.

ولما بلغت العملية ذروتها أسرع المجذفون إلى احتلال أماكنهم وراء المجاذيف، وتسابق البحارة إلى

تسلق السواري ورفع الأعلام، ونشر الأشرعة وعزفت الموسيقى النشيد الحربي.

وما ان انجلى وجه الصباح المشرق حتى شاهد البيزنطيون معجزة خارقة فاستبدت بهم الدهشة وعمهم الذعر - وبمزيد من الهلع شاهدوا الأسطول التركي يمخر مياه القرن الذهبي - وكان الأسطول قبل مغيب شمس اليوم الفائت مجمداً في مياه البسفور، فكيف انتقل؟ وكيف حدثت المعجزة؟ كان الأسطول التركي أمام أعينهم بأشرعته الخفاقة ومجاذيفه المرتفعة في الهواء - بعد انزلاقه مركباً بعد الآخر من فوق الحافة إلى أحضان مياه القرن الذهبي، وأمام أعينهم الآن، يتهاوى فوق مياه الخليج سبعون مركباً حربياً منها المراكب الحربية الضخمة المؤلفة من ثلاثة صفوف من المجاذيف في كل جانب، وتدعى المراكب الثلاثية أو الغلايين جمع غليون ومراكب «البيريم» المؤلفة من صفين من المجاذيف في كل جانب ومراكب «فوستا» الأصغر حجماً ومراكب «براندريا» وهكذا مرت المراكب الحربية باستعراض مهيب من تحت الأسوار، بين عجب البيزنطيين ودهشتهم.

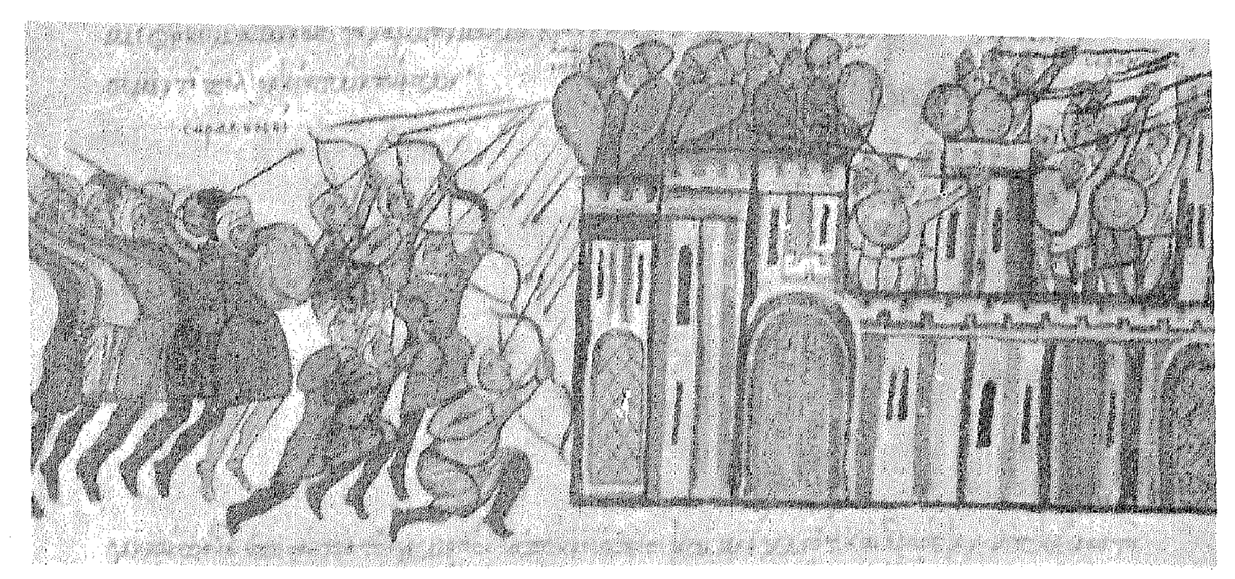
ومن خلال ذلك الاستعراض المهيب راحت المدفعية تقصف العوامات والحواجز الموضوعة في البحر لاعاقة تقدم السفن الحربية. وأصيبت قلعة غالاتا ببعض القذائف على سبيل الانذار. وتحققت مفاجأة السلطان للعدو، وكان لها وقع شديد في نفوسهم، وهكذا ربح محمد الثاني الجولة الكبرى في كفاحه المتواصل من أجل الفوز بالمدينة.

معركة القرن الذهبي البحرية

وعلى أثر ذلك المشهد المثير غير المتوقع ترأس الامبراطور قسطنطين مجلسه الاستشاري للتداول وتبادل الآراء، فاقترح بعضهم مبادرة الأتراك بمعركة بحرية في المرفأ، واقترح آخرون القيام بهجوم كاسح على شواطئ المدفعية التركية، ثم نوقشت الأخطار التي قد تنجم عن القيام بتلك العمليات الحربية، ومن المحتمل أن تكون عواقبها وخيمة، وقبل انفضاض المجلس حضر «الكابتن» جياكومو كوكو قائد الأسطول الفينيسي، المؤلف من سفن «القادس» الحربية، وهي سفن تسير بالأشرعة والمجاذيف. وكان النقيب البحري قادماً من ترابيزون ومعه خطة حربية بحرية، وما عرضها ونوقشت حتى حظيت بتأييد عام - وكان فحوى الخطة القيام بهجوم ليلي على الأسطول التركي، تشنه مراكب مشتعلة بالنيران لاحراق الأسطول التركي وتعهد النقيب البحري كوكو بقيادة المراكب المشتعلة..

وتقرر أن يشن الهجوم في مساء ٢٤ ابريل، ولو أن كوكو باشر الهجوم في وقته المحدد لكتب له النجاح لما فيه من عناصر المفاجأة التي قد تربك الأتراك، ولكن لسوء الحظ، تدخل الجنَويون الذين لم يحضروا الاجتماع، ولكنهم سمعوا بالخطة فيما بعد، فأرجئ تنفيذها، لأنهم أي الجنَويون طالبوا بالاشتراك فيها، وكان الدور الذي لعبه الجنَويّون محاطاً بالشكوك. وكان لهم خمس سفن حربية كبيرة تقوم على حراسة العوامات الطافية أمام الأسوار. ووقفت قلعة غالاتا موقفاً حيادياً، ولكن الامبراطور قسطنطين قرر أن يحقق كل الرغبات المعروضة فأذعن لطلب الجنَويين وارجأ موعد الغارة حتى يتمكن الجنَويّون من الاستعداد لخوض المعركة بالمثل.

وبناء على ذلك تعينت ليلة ٢٨ ابريل (نيسان) موعداً للغارة، وقبل الفجر بساعتين أقلع القائد ترفيسانو من مرساه بمركبين كبيرين، وبصحبته كوكو، يقود ثلاثة من مراكب فوستا الصغيرة، محملة بالمواد المشتعلة، وعندما أصبحت مراكب المغيرين فوق مياه القرن الذهبي العميقة السوداء، فوجئ ترفيسانو برؤية نور وهاج منبعث من برج غالاتا، وكان المغيرون قد اقتربوا من الأسطول التركي الذي بدا راسياً يخيم عليه الهدوء، واندفع القائد كوكو بمراكبه الثلاثة من طراز فوستا نحو الهدف، وعندئذ دبت الحياة في الأسطول التركي، فظهر رجال المدفعيّة واقفين على استعداد وراء مدافعهم، ثم شرعوا يقصفون المغيرين بقذائفهم المسددة باحكام، فأصيب مركب فوستا بين المراكب المحيطة به بشؤبوب من القذائف فاشتعلت فيه النيران وغرق في الحال، ووجد ترفيسانو نفسه مغلوباً على أمره أمام القوى المتفوقة عليه بالعدد، ورأى مراكبه تغرق الواحدة بعد الأخر. وبعد لحظات كان كوكو قائد الفينيسيين ومعظم بحارته جميعاً في مياه الخليج، بعد أن غرقت مراكبهم. فعادوا سباحة إلى رصيف المدينة وبذلك تمكنوا من انقاذ جلودهم. أما الذين قبض عليهم الأتراك فقد قطعت رؤوسهم وقذف بها في



صورة مأخوذة في القرن الثالث عشر وهي تمثل العرب يهاجمون أسوار القسطنطينية المحاصرة.

البحر. فانتقم البيزنطيون بقتل ٢٦٠ أسيراً تركياً جيئ بهم إلى حافة السور وأعدموا شنقاً.

خلافات وتنبؤات

وخلال حملة الاتهامات التي جرت عقب تلك الكارثة البحرية، اتهم الفينيسيون، زملاءهم الجَنَويين بالخيانة، حتى ان بعضهم ادّعى بأنه رأى مركباً جَنوياً يتسلل من بين مراكب الأسطول في الساعات المبكرة لانذار قلعة **غالاتا** بأن هجوماً على الأسطول التركي سيكون وشيكاً. وهكذا دب الخصام بين الفئتين اللاتينيتين المتنافستين، فاضطر الامبراطور قسطنطين إلى التدخل وفض النزاع فوقف بينهما وأنشأ يقول:

أيها الأخوان، «لنكن جميعاً صفاً واحداً متحدين للدفاع عن المدينة، أو ليس لدينا من القتال مع الأتراك ما يكفي.. انه لمن المؤسف حقاً أن نتنازع والعدو يتربص بنا..»

وبقيت الاتهامات ملتصقة بالمتهمين، وظلت قصة الخيانة تدور على الشفاه مؤكدة بأن الجَنَويّين قد خانوا.. وما ارتكبوا تلك الخيانة إلا من أجل المال والتجارة. ومهما يكن من أمر، فقد انتصر السلطان في تلك المعركة **البحرية**، وثأر من معركة بحرية **سابقة** هزم فيها أسطوله.

وكان المجتمع البيزنطي في القسطنطينية **مؤلفاً** من عدة **طبقات** هرمية، البعض منهم تعاموا عن الحقيقة فهجروا المدينة في عنفوان شدّتها، ومن هؤلاء ممثلو الحكومات الغربية والتجار والصرافون والأساقفة والمطارنة الذين كان يمثلون السيادة الرومانية. حتى لوردانو قائد العمارة الفينيسية الذي كان من المتوقع ان **يقلع بأسطوله في ٧ مايو (أيار)، المؤلف من ١٥ «غليوناً» أي سفينة حربية كبيرة للقاء في «تنيدو» ليشكل مع المراكب الحربية الرومانية الموجودة في مياه القرن الذهبي قوة بحرية متحدة لطرد الأسطول التركي من مياه القسطنطينية. ولكن لوردانو القائد العام للأسطول الفينيسي تلقى ارشادات وهو في طريقه إلى تنيدو، بأن يغير وجهة سيره ويقوم بجولة عبر البحر الأبيض المتوسط، ثم يرسو بعد ذلك في مياه جزيرة كودفو ونغروبونت، حتى تصبح حملته بالنسبة للأتراك عديمة الفائدة. وكان أعضاء مجلس الشيوخ الذين وضعوا تصميم الرحلة بتروٍّ، أبوا أن يفهموا بأن القسطنطينية معرضة لضربة مميتة، وانها في النزع الأخير وان الفضل بوجودها حتى الآن، على قيد الحياة انما يعود لمشيئة رجل واحد هو الامبراطور قسطنطين** دراغاسس.

أما الأقاويل في القسطنطينية فكانت منتشرة، وقد عادت نبوءة أخرى تتردد بين البيزنطيين تقول: بأن المدينة لن تؤخذ حتى تبحر السفن الحربية فوق اليابسة في طريقها إلى مياه القرن الذهبي. وكانت هذه النبوءة قد ترجمت في السابق انها علامة تُنبئ بأن المدينة ستتلقى من السلطان ضربة موفقة لم تكن متوقعة. ومع ذلك فقد بقي الشعب متشبثاً بأمل وصول المساعدة التي ستأتي من الغرب، وما كان بوسعهم أن يصدقوا بأن القسطنطينية سيتخلى عنها الغرب لتسقط في أيدي الأتراك. لذلك لم ينقطع سيل الاشاعات التي طغت على ألسنة الناس: الفينيسيون قادمون.. والبابا أرسل



الامبراطور قسطنطين دافع عن عاصمته وصرع في سبيلها.

سفناً حربية لنجدة المدينة فإذا خابت كل تلك الأماني فان الله سيتدخل بنفسه ، فيرسل ملاكاً مشهراً سيفه ليقف على أهبة الاستعداد لحراسة كنيسة أيا صوفيا .

وكان قصف المدفعية المستمر يمزق الأعصاب ، ومع ان الكنيسة القديمة «باسيليفا» قد نسفت فان جعبة الأهوال المخيفة التي يمتلكها السلطان لم تفرغ بعد ، وما ما زال لديه المزيد من الأهوال والأشياء المزعجة الصغيرة ، ولمّا أدخل مدافعه إلى القرن الذهبي بعد أن نصبت فوق جسر من القوارب العائمة مقابل السور المطل على البحر. اضطر الامبراطور إلى تحويل

رجاله من الجهة البرية إلى الجهة البحرية لمجابهة التهديد الجديد.

وتعرض البيزنطيون إلى مضايقات أخرى، ومنها اصابة صهاريج المياه الضخمة التي كانت تمد المدينة بالمياه العذبة بالقذائف، وكانت هذه الصهاريج قد حفرها وبناها على غرار منجزاته الضخمة الامبراطور جوستنيان، ثم نفذت المؤن، فصار الجنود اليونانيون يغادرون مراكزهم فوق الأسوار عند الظهيرة، للبحث عن الطعام، وعلى غرار المواقف المماثلة الأخرى، فقد انتشرت السوق السوداء، وأولئك الذين كان بوسعهم شراء طعامهم من تلك السوق، ربما أكلوا حتى الشبع..

وفي أوائل مايو (أيار) استعرض الامبراطور الموقف مع أعضاء مجلسه الاستشاري فشكلت لجنة لحل معضلة الطعام، وصارت الأطعمة توزع بالجراية، وانتدب الناس – من غير المشتركين بالأعمال الدفاعية – وكانوا كثيرين، بتقديم الجراية للجنود، وبقي السؤال المحرج قائماً: من أين يلتمسون المساعدة والنجدة؟ ومما يؤثر انه سبق للمدعو جيرولامو مينوتو وهو من مستعمرة الفينيسيين الصغيرة القائمة داخل الأسوار – ان كتب إلى جمهورية فينيسيا متوسلاً لإسال المساعدة، وكان لا يعلم شيئاً عن الاجراءات البطيئة التي هي من خصائص حكام جمهورية فينيسيا، ولا عن مصير رحلة لوردانو في البحر الأبيض المتوسط. لهذا قرر المجلس الامبراطوري ايفاد سفينة صغيرة ذات ساريتين مع اثني عشر متطوعاً للبحث في مياه الجزر اليونانية عن النجدة الفينيسية البحرية التي يقودها لوردانو في البحر الأبيض المتوسط.

يطلبون من الامبراطور أن يرحل..

وأخيراً جاءت المعضلة الأكثر الحاحاً، ما العمل إذا قرر الأتراك أن يشنوا هجوماً عاماً قبل وصول النجدة البحرية الفينيسية؟ إذ من المحتمل أن تسقط المدينة وكل شيء يضيع.. وكان من بين أعضاء المجلس الاستشاري رجال بارزون من أمثال لوكاس نوتاراس وترفيسانو وجوستنياني وبالمثل فرانتزيس الذي لا يُستغنى عنه، هؤلاء جميعاً راحوا يلحون على الامبراطور لكي يرحل عن المدينة ثم قالوا: فليطلب باسيليوس المساعدة من أخويه توماس وديمتريوس في موريا.

وهنا شكرهم الامبراطور على نصيحتهم، وأجابهم غاضباً بعد أن نهض عن عرشه وراح يحلل لهم الموقف العصيب بفصاحته قائلاً: «إنني أعلم بأنه من المحتمل، ان يكون رحيلي في صالحي، لأنكم تنظرون بوضوح إلى ما يمكن أن يحدث ولكن ذلك مستحيل! إذ كيف يمكن أن أتخلّى عن كنائس الرب ورجال الدين والعرش وشعبي وماذا يقول العالم؟ وإنني لأرجوكم بعدم مخاطبتي في المستقبل بشيء من ذلك وأن تقتصروا في حديثكم على كلمة «سيدي» لا تتركنا! وأؤكد لكم بأني سوف لا أترككم أبداً، فقد صممت على أن أموت هنا معكم».

وعندئذ، اختنق صوت الامبراطور وغادر المجلس في حين كان العديد من المستشارين ينتحبون...

وكان السلطان أيضاً مُصرًّا على الاستمرار في النضال من أجل القسطنطينية، ومع ان قواتهما كانتا غير متعادلتين في الشجاعة والتصميم، إلا أن السلطان محمد كان متفوقاً بعقله الاستراتيجي، أي «ان عقله كان متفوقاً بعلم التخطيط الحربي وفنونه» ولكن قسطنطين استعمل الوسائل الفعّالة في التنظيم، وأمر رجاله الذين يعملون تحت قيادته بالالهام البطولي. فكان يلازم الأسوار ليلاً ونهاراً متنقلاً من مكان مقوض إلى آخر مضحياً براحته ومستجيباً بأقصى سرعة لكل انذار، وكان دائماً يبدو متجسداً روح الأباطرة الغابرين.

وفي شهر مايو (أيار)، وهو شهر الربيع الأخير بالنسبة للقسطنطينية، كانت الورود متفتحة في حدائق القسطنطينية، والبلابل تغرد على الأشجار، والقمر في محاقه يبث الأطمئنان، لأن الهلال كان رمزاً للمدينة في الزمن القديم، وفي هذه الآونة ظهرت نبوءة جديدة تقول: ان المدينة لن تؤخذ في وقت المحاق. وكان صدى الأجراس يتردد في الشوارع، والمواكب الدينية تذرع الطرقات ويبدو من خلالها صورة العذراء – أكثر الأيقونات قداسة – محمولة فوق الرؤوس، وهم يقولون ان العذراء حمت المدينة ٨٠٠ سنة من الغزو العربي، ومع ان البيزنطيين كانوا ينسونها في بعض الأحيان عندما كانوا يرتكبون المجازر ويرهقون الشعوب الضعيفة بهجماتهم الحربية،

جامع آيا صوفيا من الداخل، كما بدا بعد فتح القسطنطينية متألقاً بالبهاء. وقد رسمه فوساتي عام ١٨٤٦ بأروع آيات الفن

ولكنهم الآن في وضع آخر لذلك استدار الشعب إلى العذراء يطلب منها الحماية.

وعندما سيطر ثيودوريك الكبير ملك القوط على إيطاليا كلها «٤٧١ - ٥٢٦» تذكرت روما بعض الأمثلة التاريخية التي تقول: «وما من ظالم إلا سيُبلى بأظلم» وعندما انتُزعت منها الأقطار العديدة التي اغتصبتها من حكامها وسكانها، تذكرت المثل الذي يقول: «ما أخذ بالقوة والدم لا يسترد إلاّ بالقوة والدم..».

وشعب القسطنطينية الذي كان يهتف في الماضي عالياً ممجداً انتصارات أباطرته، أصبح الآن، يستغيث في طلب المساعدة ويستعطف الأيقونات في طلب الحماية...

وماذا يفيد كل ذلك، حتى ولو سمع السلطان محمد الأجراس أو استرعي انتباهه مشهد القمر في مُحاقه فان ذلك سوف لا يُعيقه عن تنفيذ مخططاته الحربية التي ستقوده إلى النصر والنجاح. وقد استعمل السلطان محمد كل الوسائل المعروفة في الحروب والحصار، وأضاف إليها ما لم يكن معروفاً من قبل.

الأتراك ينهزمون مرتين..

وفي اليوم السابع من مايو (أيار)، شن الأتراك هجوماً عاما على بوّابة رومانوس، التي هزموا أمامها من قبل، ولكن الهجوم تحطم وأصيب الأتراك بخسائر فادحة في الأرواح وانشطر علم السلطان إلى شطرين، وهذه هي الهزيمة الثانية التي حُفي بها الأتراك على بوابة رومانوس..

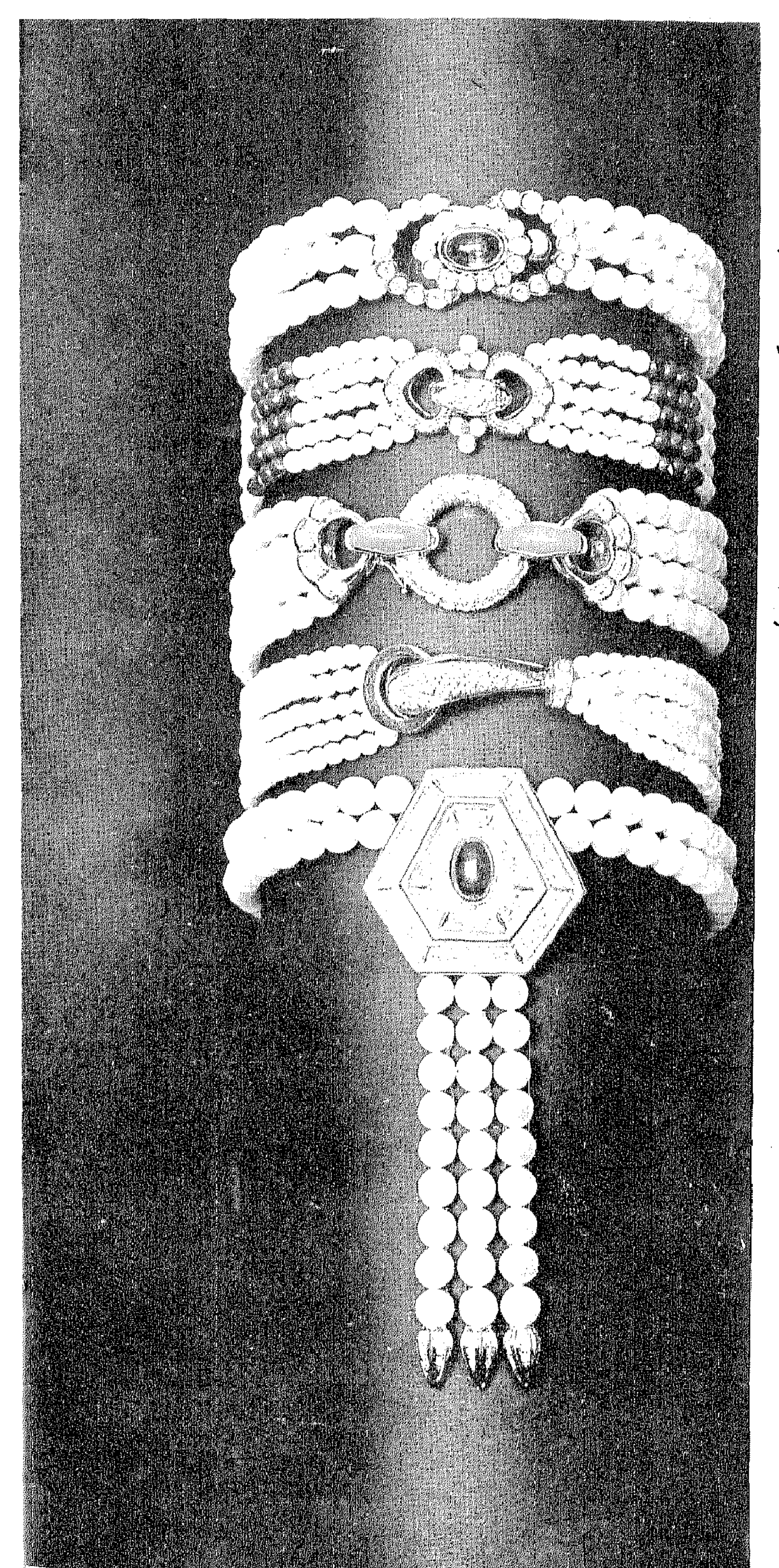
وكان البيزنطيون المدافعون عن المدينة إذا خسروا رجلاً ظل مكانه شاغراً لقلة الرجال وانعدام الامدادات، ولكن السلطان محمد لم يكن قلقاً من هذه الناحية، لوفرة ما لديه من الاحتياطي الضخم في الرجال والعتاد والأطعمة والتموينات التي لا تنقطع امداداتها.

وكان المحاربون الأتراك ينقسمون الى قسمين الجيش النظامي وهو جيش «الانكشارية» ومعنى الكلمة «الجيش الجديد» وهو يتميز بشدة الولاء والمتطوعون للجهاد، وكان من السهل تمييز المجاهدين بألبستهم الوطنية العادية من ملابس الانكشارية الرسمية، لذلك كانت أسباب الحماية معدومة بالنسبة للمجاهدين فلا من خوذات ودروع وتروس تقيهم رشق السهام المنهالة عليهم من الأسوار، وكان البيزنطيون يتخذون مواقفهم صفوفاً فوق الأسوار، تحميهم الدروع أو الزرد فوق صدورهم والخوذات على رؤوسهم، لأن مصانعهم كانت تمدهم بكل الأسلحة الضرورية. ولكنهم كانوا يفتقرون إلى المدفعية والبارود، بينما كانت الأسوار متهدمة في أعاليها من شدة ما قُصفت بالمدفعية التركية، لذلك استعاض المدافعون عن قلة المدافع بالنيران اليونانية، وهي التي هزمت الحملات الحربية الأموية والعباسية في قديم الزمان، أما الآن فالمدفعية التركية هي سيدة الموقف.

وقام السلطان بتجربة حربية جديدة مبتكرة، فأمر بوضع الألغام التي صنعها له الصربيون الأشاوس، في أسفل الأسوار، وكان لتلك الفكرة قيمتها في ذلك الزمان، وكان زاغان باشا قائد الجيش التركي يستورد مُعدّني الفضة من صربيا. ولكن الامبراطور قسطنطين جابه التحدي بمثله، إذ كان لديه مهندس سكوتلندي يُدعى جوهانز غرانت خبير في الألغام. فأناط به مهمة أبطال عمل الألغام، فتحققت من وراء ذلك الجهد الفني نتائج تستحق التنويه بها. وفي أحد الأيام أسر البيزنطيون ضابطاً تركياً خبيراً في الألغام، فبدأوا باستجوابه ومارسوا عليه التعذيب الشديد فكشف عن سر الألغام الموضوعة في سراديب تحت الأسوار، وكانت على وشك الانفجار، وكان هدف الألغام الأول، تخريب التحصينات البيزنطية، والثاني فتح ممر يمكن الأتراك من اقتحام المدينة. وعندئذ، اختار غرانت الاسكتلندي كتيبة من المتطوعين وتسلل بهم إلى السراديب الملغومة، وهناك أمر الصربيين الذين كانوا ما يزالون يعملون في وضع الالغام، ان يفجروها، فصدعوا للأمر وفجروها.. فبدا وكأن صاعقة انقضت على السراديب وحُفر الألغام فنسفها نسفاً مخيفاً، واهتزت الأرض من فعل الانفجار وتصاعدت دوامة خضراء حملت معها الصربيين وقذفت بهم أشلاء في الهواء، وسقطت الحجارة والأخشاب فوق المدينة وهرب البيزنطيون فوق الأسوار، وولى الجنود الأتراك مبتعدين عنها.

وبعد فشل تجربة الألغام تخلى الأتراك عن استعمالها.

(يتبع)



تاريخ المجوهرات

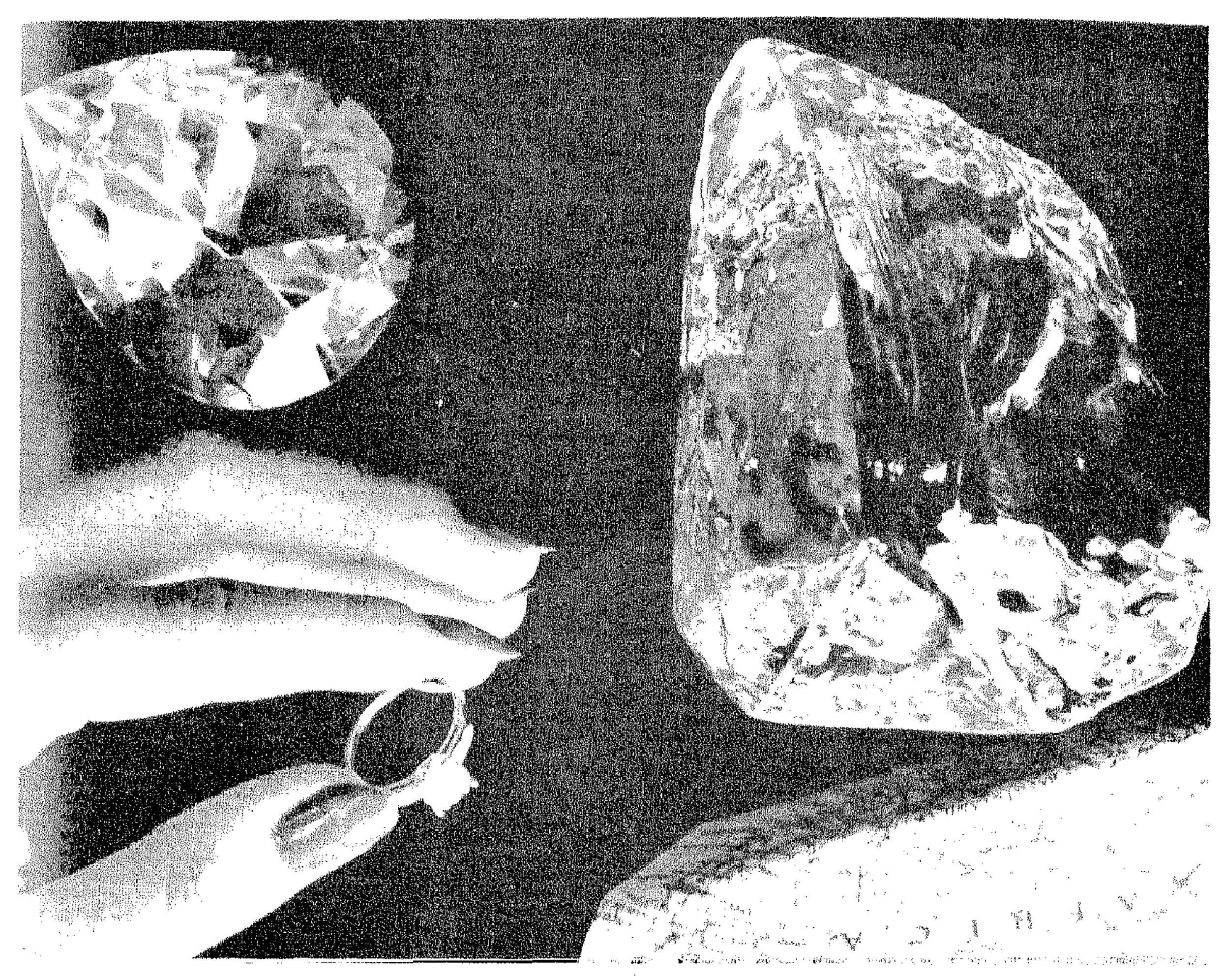
اللؤلؤ والروبي والزفير والزمرّد

متى سمعان بوري*

● اللؤلؤ هو مادة متحجرة تتكون داخل صدفة حيوانية كالقوقعة أو المحار أو الودع، واللؤلؤ الجيد غالباً ما يستخرج من صدفتين ملتصقتين وهذا الصدف هو من فصيلة غير فصيلة الصدف الذي يؤكل حيوانه الداخلي. واللؤلؤ يتكون عندما تدخل قطعة صغيرة من مادة غريبة داخل الصدفة كالدودة الصغيرة أو العلقة أو البرقة أو أي شيء من طفيليات البحار الحيوانية. وأحياناً تكون حبة رمل صغيرة جداً. تحتضنها الصدفة وتعطيها الحماية والرعاية وتأخذ في افراز كنسيج الحرير الرقيق في الداخل.

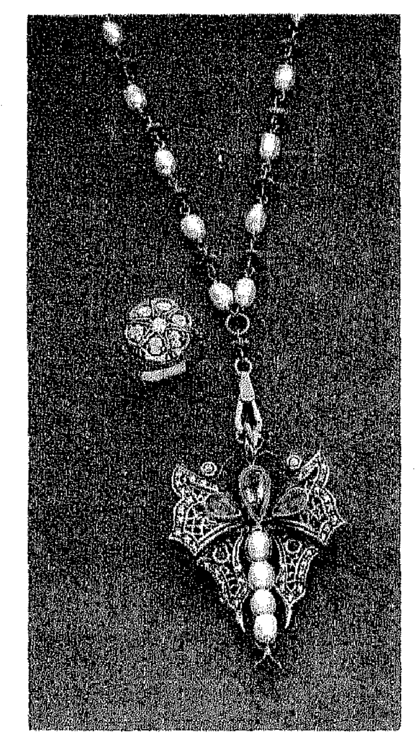
وبعدها يحصل تمدد داخلي في الخلايا داخل الصدفة تتكون على اثره اللؤلوة الأم، أو ما يسمى خلاصة اللؤلؤ الصدفي الذي يبطن ويحصن الصدفة. ويبدأ عندها النتاج اللؤلؤة الأصلية التي تكون قد اخذت مكانها وهذا كله يحدث بشكل طبيعي لا يتدخل فيه الانسان بأي شكل من

* متى سمعان بوري: من أقدم خبراء المجوهرات في الشرق الأوسط، عضو نقابة الصاغة، إشترك في جميع المعارض الدولية.



نجمة افريقيا واضخم ماسة اكتشفت في التاريخ.

الاشكال. وعند استخراج اللؤلؤ من قعر البحار يجري تصنيفه حسب حجمه وشكله ولونه. وهنا يلعب الحظ دوره مثل حظ صيادي الاسماك عندما يصطادون السمك. فأحياناً يكون حظ الغواص (أي الذي يغوص لينقب عن اللؤلؤ) جيداً فيرزقه الله بلؤلؤة تساوي ألفاً أو الفي دولار وأحياناً يكون سعرها خمس دولارات وهذا يتوقف كما قلنا على الحجم والشكل واللون. فالحجم الأكبر طبعاً هو الافضل ثم الشكل له مواصفات. فكلما كانت اللؤلؤة قريبة إلى الشكل الكروي زاد سعرها وكلما بعد شكلها عن الشكل الكروي نقص سعرها. ثم يأتي اللون فاللون الأبيض على اصفرار هو الاغلى. لكن بشرط



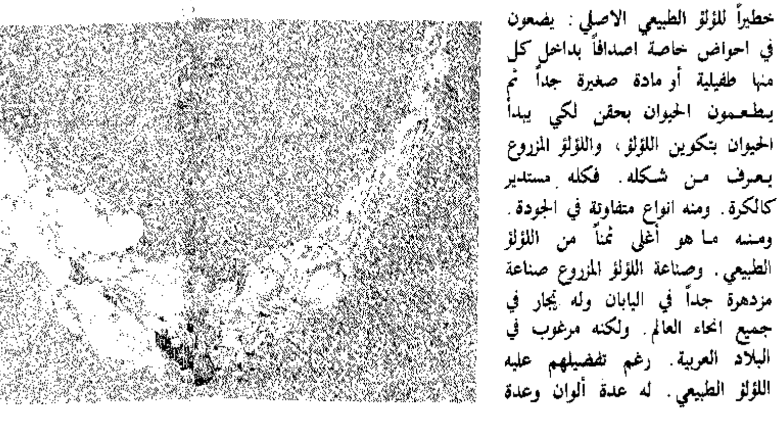
أن تكون اللؤلؤة فيها لمعان. فاللؤلؤة البيضاء التي لا لمعان ولا بريق لها سعرها يكون ارخص من اللماعة بالطبع واللؤلؤ بعد تصنيفه حجماً وشكلاً يثقب منه الصغير والمتوسط حجماً، من الجانبين ويعمل عقوداً كالحبال تلبسها النساء في الرقبة. أما الاحجام الكبيرة فيبقونها بدون ثقب لتعمل كخواتم وتوضع الحبة في وسط الخاتم ومنها ما يوضع في وسط البروش وفي وسط الاقراط أو الاساور وغيرها. أن افضل انواع اللؤلؤ الاصلي ما يسمى باللؤلؤ البحريني وهذا لا يعني بالضرورة أن يكون مستخرجاً من شاطئ البحرين، بل من الخليج كله. وعلى كل فان دول الخليج والبحرين بصورة

خاصة لم تعد تعير لا هي ولا الشعب أي اهتمام للغطس والبحث عن اللؤلؤ منذ أن تفجر البترول هناك. لكن دول الخليج العربي ما زالت إلى الآن تعير اهتماماً كبيراً لتجارة اللؤلؤ. وفيها عدد من كبار تجار اللؤلؤ وخبرائه في العالم وقد يستغرب القارئ اذا علم ان بعض احجار اللؤلؤ الاصلي الجيد تساوي الحبة الواحدة منه ما يزيد عن الخمسين الف دولار. واللؤلؤ له زبائنه في العالم وخصوصاً في فرنسا حيث يشترون الأنواع الجيدة منه بأسعار مرتفعة.

ان افضل انواع اللؤلؤ كما قلنا هو البحريني المستخرج من الخليج العربي وذلك لأن لحرارة الشمس والطقس الحار أثراً كبيراً في جودة اللؤلؤ ثم يأتي اللؤلؤ الاوسترالي ثم المستخرج من خليج بنما. وهنالك المستخرج من البحر الأحمر ومن الفيليبن وبورما وسيلان (سريلانكا). أما اللؤلؤ الاسود الممتاز فهو المستخرج من شواطئ كاليفورنيا.

يتفرع عن اللؤلؤ الاصلي الطبيعي لؤلؤ آخر. ولكن للإنسان تدخلاً في ذلك. فاللؤلؤة التي يتكامل نموها طبيعياً في سنوات يمكن اختصار مدة نموها لأشهر معدودة وذلك بجمع الاصداف في بحيرة خاصة وتغذيتها بمواد غذائية تساعد على نموها بسرعة اختصاراً للوقت. واللؤلؤ هذا هو أرخص بكثير من اللؤلؤ الطبيعي. ولكن لا يمكن تسميته اصطناعياً بأي حال. ويظل الطبيعي هو الأفضل والاغلى سعراً.

كذلك فقد ظهرت في اليابان صناعة اللؤلؤ المزروع وهو ما يسمى (Cultured) وقد تطورت هذه الصناعة تطوراً هائلاً وشكلت منافساً خطيراً للؤلؤ الطبيعي الاصلي: يضعون في احواض خاصة اصدافاً بداخل كل منها طفيلية أو مادة صغيرة جداً ثم يطعمون الحيوان بحقن لكي يبدأ الحيوان بتكوين اللؤلؤ، واللؤلؤ المزروع يعرف من شكله. فكله مستدير كالكرة. ومنه انواع متفاوتة في الجودة. ومنه ما هو أغلى ثمناً من اللؤلؤ الطبيعي. وصناعة اللؤلؤ المزروع صناعة مزدهرة جداً في اليابان وله تجار في جميع انحاء العالم. ولكنه مرغوب في البلاد العربية. رغم تفضيلهم عليه اللؤلؤ الطبيعي. له عدة ألوان وعدة



أحجام لمنه الأبيض والأصفر والأسود والزهري.

الروبي

أما الروبي فهو حجر شفاف سعره يقرره لونه ونقاوته. أفضل أنواعه في بورما ثم تايلاندو كارولينا الشمالية ومونتانا. الاغلى هو لون دم الزغلول (Pigeon's blood) الروبي الممتاز ثمنه ثلاثة اضعاف ثمن الالماس البرلنت. نادراً ما توجد احجار روبي جيدة تزيد عن عشرة قراريط للحجر الواحد.

الزفير

هو حجر شفاف لونه ازرق قاتم، يوجد الجيد منه في كشمير وبعدها سيلان والهند والصين والبعض في اوستراليا وولاية مونتانا في اميركا. الافضل هو الكشميري الازرق. أكبر زفير في العالم وزنه ٩١٦ قيراطاً.

الزمرد

الزمرد هو حجر كريم لونه أخضر شفاف وتعتبر الأنواع الجيدة منه مرتفعة الثمن وقيمة حجر الزمرد تقررها عدة عوامل وهي اللون ثم النوعية أي المصدر وبعدها وأخيراً طريقة الصقل. اللون المفضل هو القاتم الشفاف والمصدر المفضل هو كولومبيا. أما النقاوة فهي نادرة. والسعر يرتفع كلما كان صقل الحجر مثالياً، حسب المواصفات الدولية المعتمدة.

أن افضل انواع الزمرد هي المستخرجة من المناجم الكولومبية ثم الهندية وبعدها البرازيلية وانه لمن النادر جداً العثور على احجار زمرد نقية صافية مائة في المائة لان الزمرد يحتوي على عروق واخاديد نتيجة استخراجه من مناطق كلسية قارية. والصافي النقي تبلغ اسعاره ارقاماً خيالية شرط أن يكون لونه قاتماً لامعاً شفافاً. وتصنع منه اشكال متعددة مثل باقي الاحجار الكريمة منها المستدير والبيضي والمربع وشكل الاجاص أما غاليته فتصنع مستطيلة الشكل. وقد حاول بعض الكيمائيين صنع زمرد اصطناعي مستعملين دقيق الزمرد الاصلي. وقد نجحوا إلى حد ما. ولكن الاصلي يبقى اصلياً. وتجدر الاشارة إلى أن بعض مناجم الزمرد توجد في كارولينا الشمالية في الولايات المتحدة الاميركية. ●

لأنّ الشَّكْل ضَاق بزخم المضمون ...



إقرأ الأحداث بين الاسطر ... انظر الى ما وراء الكلمة ... لاتقبل بما يقال ... بل إبحث لماذا ..؟ أو لمَن قيل..؟ مع من ..؟ ولمَن..؟ ولماذا..؟
النهار العربي والدولي أصبحت في وقت قصير مجلة النخبة في كل بلد عربي ، والمرجع لوكالات الأنباء العالمية .. وبعد أن توصلت النهار العربي والدولي إلى هذا المستوى الفريد ، قررت أن تطور مظهرها، وأن تصدر بحجم جديد وبإخراج وتبويب يليق بمحتواها.

النهار العربي والدولي

كاتب بلا قيد
قارئ بلا قيد

مجلة ابتداء من ٢٢ تشرين الاول "اكتوبر" ١٩٧٩

تاريخ الشطرنج

محمد مراد سكّر

الأوتومات والكمبيوتر

● كثر الكلام في الآونة الأخيرة عن الكمبيوتر في الشطرنج، والكومبيوتر الحديث عبارة عن آلة صغيرة تشبه ماكنة الحساب الجديدة اليدوية، انما بحجم أكبر، فيها عوضاً عن الأرقام أسماء القطع وأرقام الخانات، وكلما قام اللاعب بنقلة ضغط على زر الجواب فيأتيه الكومبيوتر بالجواب، أي بالنقلة المقابلة وهكذا يصبح الكومبيوتر الخصم باللعب، تلعب معه فيجيب أحسن جواب بسرعة معتمداً أحسن نقلة ممكنة، من هذه الآلات ما هو أكبر إذ ترتسم الرقعة على لوحة أمامك وتستطيع أن تتابع الجولة بانتظام.

هكذا هو الكومبيوتر الحديث الذي ظهر مؤخراً، أعد معلوماته كبار اللاعبين الأساتذة في الشطرنج، ترى ألم يفكر اللاعبون القدامى بلاعب آلي يلاعبك؟ بلى وجد في القديم لاعب آلي ولكن اللعب كان يتم بحيل طريفة وكان يدعى آنذاك الأوتومات أي الرجل الآلي، وإليك التفاصيل:

ظهر أول لاعب آلي (أوتومات) في تاريخ الشطرنج سنة ١٧٧٠، صنعه يومذاك اللورد كمبيلان وقد عمت شهرته أوروبا بأجمعها وحاز اعجاب كل من شاهده أثناء اللعب.

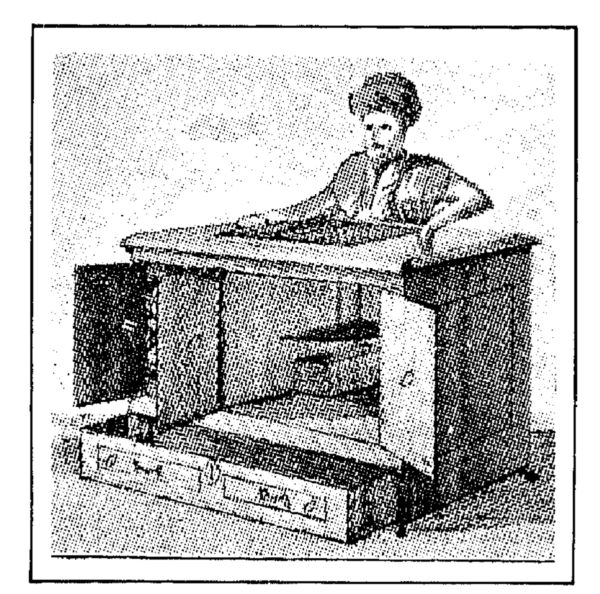
كان اللاعب هذا يلبس على رأسه عمامة تشبه كثيراً ما كان يلبسه سلاطين بني عثمان على رؤوسهم، كما كان يرتدي بذلة السلطان (ربما كان ذلك اشارة إلى المعلمين العرب الذين أدخلوا الشطرنج إلى أوروبا)، وكان هذا الرجل الآلي يجلس خلف رقعة شطرنج مع كامل القطع وقد وضعت فوق طاولة أشبه ما تكون بالمكتب مرتفعة حوالي ثلاثة أقدام بعرض قدمين وبطول أربعة أقدام، تجري هذه الطاولة على عجلات تسيرها في كل أنحاء المسرح (مسرح اللعب الذي تجري فيه المباراة). في هذا المكتب قسمان كلٌّ منهما مؤلف من باب وجرّار. وكان اللورد كمبيلان قبل بدء اللعب يفتح كل باب على حدة ثم يسحب الجرّار فتظهر عندئذ الآلات والدواليب المتداخلة التي تسيِّر اللاعب الآلي والتي يوحي مظهرها باستحالة ادخال أية آلة أو أشخاص فيها.

ما ان يتقدم بطل ليلاعب هذه الدمية الآلية حتى يسحب مقدم اللعبة من جيبه مفتاحاً طويلاً من الحديد ويبدأ بتعبئة الآلة كما تعبأ الساعة أو أية لعبة أطفال انما بطريقة مدروسة تعطي صوتاً عالياً ضخماً يسمعه كافة المشاهدين في الصالة، عندها تنخفض عينا الأوتومات نحو الرقعة، ويقوم مقدم اللعبة باضاءة شمعة على الطاولة، ثم يأخذ الأوتومات وقتاً من التفكير والتأمل قبل أن ترتفع الذراع بهدوء وبتحرك بطيء نحو القطعة المنوي تحريكها ليلتقطها بقوة ثم يضعها في مكانها الجديد.

عندما يريد اللاعب الآلي أن يكش شاه الخصم فانه كان يحرك شفتيه ببطء ليخرج صوتاً شبيهاً بلفظة شاه، أو الشين لوحدها. وكان العمليات والنقلات تمر بشكل لا يثير أية ريبة عند المشاهد بأن الأوتومات هو الذي يلعب، حتى المكتب كان يمكن تسييره من مكان إلى آخر حتى يبعد أية شبهة بأن هناك اتصالاً بين الأرض والطاولة في المكان الذي توضع فيه الطاولة أو بين الطاولة وأي شيء آخر.

كان الفحص الذي كان يجري أمام الجمهور للطاولة قبل البدء باللعب والطريقة التي تتم بها النقلات، تبعد أي شك لدى المتفرجين بامكانية حشر شخص ولو قزم داخل المكتبة هذه. وبقي سر الأوتومات هذا محفوظاً مدة طويلة. كما أن نجاحه المنقطع النظير جعله يجوب المانيا، انكلترا وفرنسا

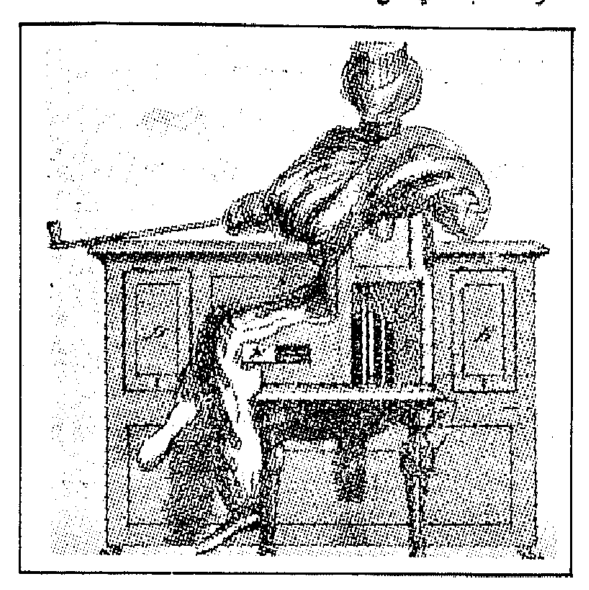
ويدفع بالتالي الملك فريديريك الثاني (ملك بروسيا) لشراء الأوتومات وسره. وما ان فهم سره حتى فكه ووضعه في احدى خزائن قصره حيث بقي ثلاثين سنة حتى نسيه الناس، ولكن وجود نابليون بعد ذلك في برلين أرجع للأوتومات عهده المزدهر فأرسل ثانية إلى لندن وباريس. كتبت مجلة بالاميد عن الأوتومات ما يلي: (البلاميد تكاد تكون أول مجلة اهتمت بالشطرنج بشكل جدي في التاريخ القديم):



اللاعب الآلي وراء طاولة اللعب

بعد أن سبقته شهرة لا توصف، وصل الأوتومات إلى القصر في بافاريا (مقاطعة في المانيا)، وكان تأثيره كبيراً على الناس لدرجة دفعت بالأمير أوجين لمحاولة الحصول على مثله، أو اتقان هذا الفن على الأقل، وتم الاتفاق بينه وبين صاحبه على مبلغ ثلاثين ألف فرنك مقابل الاطلاع على سر الأوتومات. وبالفعل، .ما ان اقترب الأمير من الآلة حتى أبعدت عيون الفضوليين عن الأوتومات وبقي الأمير لوحده، هنا فتحت الأبواب كلها دفعة واحدة ليرى الأمير فراغاً كافياً اختفت منه الدواليب التي كان يراها الجمهور من بعد والتي لم تكن بالحقيقة إلا أوراقاً مصورة ملصقة باتقان على خشبة تسير من مكان إلى الآخر حسب رغبة اللاعب يظنها المشاهد من بعد الات وزمبرك الخ... وضمن الصندوق كان هناك لاعب قصير القامة ممدد بشكل مزعج نوعاً ما ولكنه يستطيع تحريك الأحجار بواسطة ذراع الرجل الآلي دون أن يراه الناس، وكان هذا اللاعب في بدء كل جولة يختبئ يميناً أو شمالاً عندما كان مقدم اللعبة أو الجولة يريد إيهام الجماهير انها فارغة إلا من الآلات، فكان يختبئ في جذع الرجل الآلي عندما يفتح الباب الأسفل، وينطوي على نفسه عندما يفتح الباب الأعلى، كما ترى في الصور المرفقة لهذا المقال، أما كيف يتابع الجولة فكان ذلك بواسطة رقعة صغيرة يحملها تنيرها الشمعة الموضوعة أمام الرجل الآلي، هذه الرقعة كانت مرقمة على شاكلة الترقيم الذي تحمله الرقعة الظاهرة للعيان للجمهور،

منظر اللاعب الآلي من الخلف

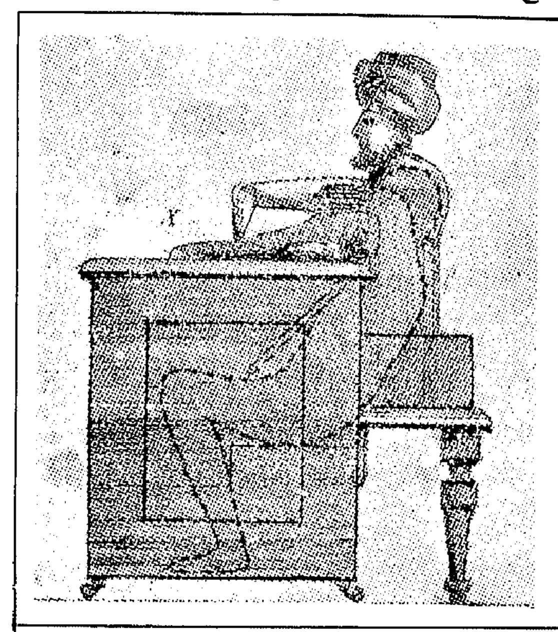


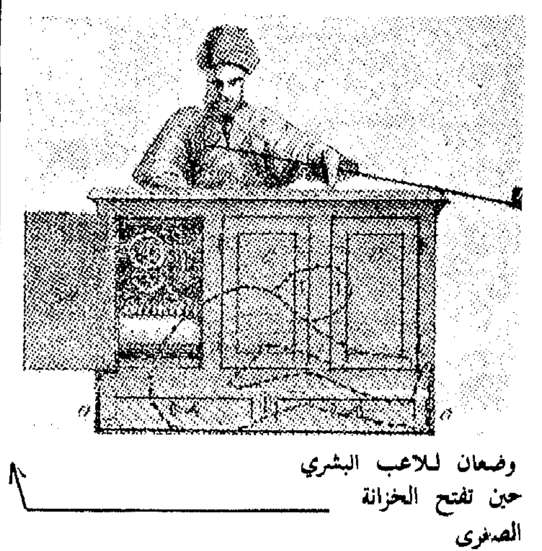


وضع اللاعب البشري داخل الخزانة الكبيرة حين تفتح.

وعندما كان اللاعب الخارجي يحرك حجراً ، كان اللاعب في الداخل يتابع الحركة ، لأن الرقعة الخارجية كانت شفافة من الداخل ويمكن رؤية تحرك الأحجار بسهولة بالاضافة إلى أن تحت كل خانة نوعاً من ذراع الميزان تهبط وتعلو وقت تحرك كل حجر فيسهل بالتالي على اللاعب الداخلي متابعة النقلات على رقعته ومن ثم تحريك ذراع الأوتومات للاجابة على نقلة الخصم. أما تهديد الشاه فكان يتم بنوع من المنفاخ يسحب باليد فيصدر «الرجل الآلي صوتاً شبيهاً بكلمة شاه أو شين فقط.

وضع اللاعب البشري في جذع اللاعب الآلي





وضعان للاعب البشري حين تفتح الخزانة الصغرى

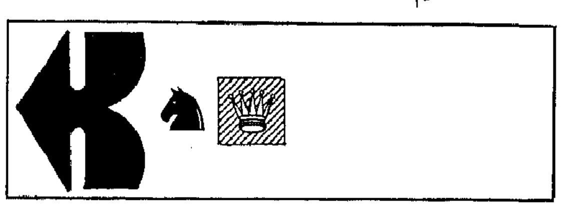
بعد مدة من الزمن ، اشترى الرجل الآلي شخص يدعى مالزيل وقام بدورة مظفرة في أوروبا ثم في أميركا ، توفي مالزيل سنة ١٨٣٧ فانتقلت ملكية الأوتومات إلى شخص يدعى أوليل ثم إلى الدكتور ميشال ، ثم احترق في فيلادلفيا سنة ١٨٥٤ عندما شبت النار في المتحف الصيني حيث كان الأوتومات موضوعاً.

تبع هذا الأوتومات فيما بعد عدة أشكال شبيهة أشهرها كان لكامبل وكان يدعى ميفيستوفيليس الذي نال هو الآخر نجاحاً كبيراً في اكواريوم وستمنستر في



لندن وفي معرض باريس سنة ١٨٧٨ ، كما ظهر أوتومات آخر في معرض ١٨٨٩ ، وكان متقناً أكثر من الأول ، كان الأخير يلعب على طاولة شطرنج تحتها فارغ تماماً ، وكان يديره على الكهرباء من غرفة ثانية لاعب ماهر يحرك آلاته ولا يراه المتفرجون.

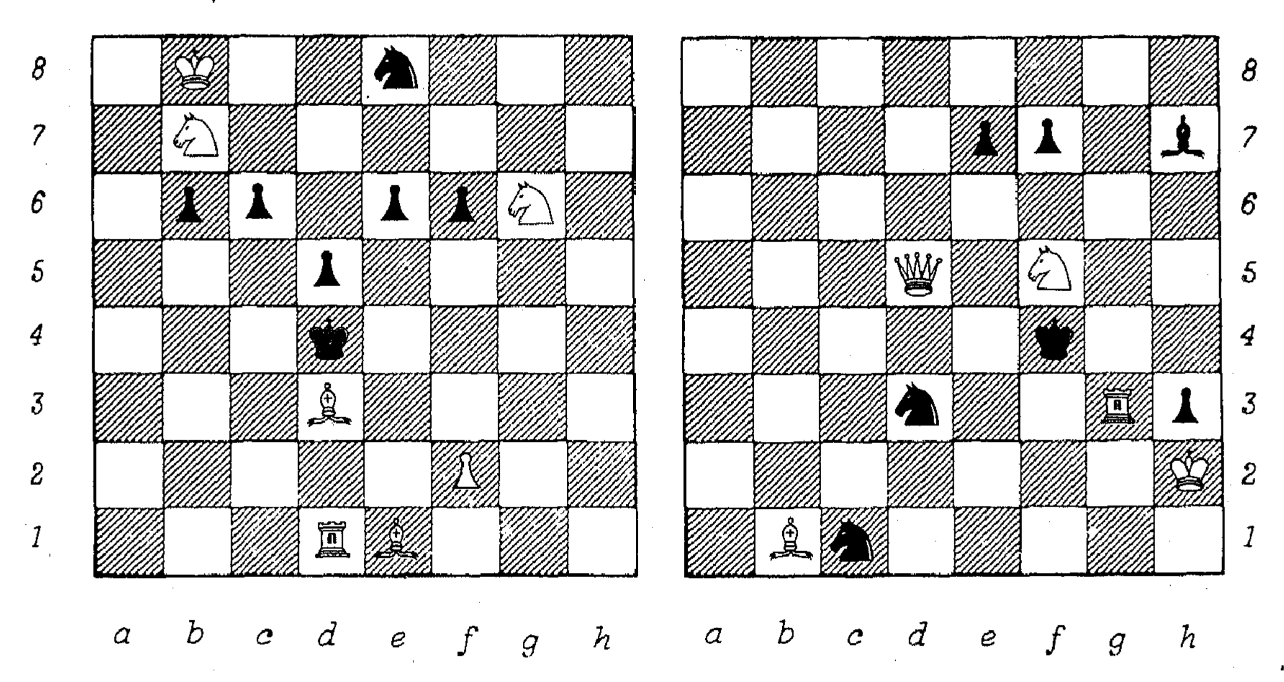
اللاعبون الذين تعاقبوا على هذا الأوتومات ، أي الذين لعبوا من الداخل ، قليلون هم حسب ما قرأناه ، موريل ، الفايي ، وايل ، الكسندر ، بونكور ، لويس ، ويليم. ●



مسابقة العدد

المسألة رقم ٢٧
مات بنقلتين

المسألة رقم ٢٨
مات بثلاث نقلات

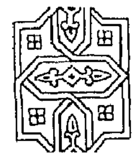


حل المسائل السابقة :

المسألة رقم ٢٥ :
المفتاح : I — Te7

المسألة رقم ٢٦ :
المفتاح : I — Rc6

الأسود يجيب اما (b5) واما (bxa5)
ويرد عليه الأبيض اما (Fd4) واما (Td4)



● متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً.

عمر بن الخطاب

● أن تنازل انسان عن حريته هو تنازله عن صفته كأنسان.

جان جاك روسو

تاريخ الطوابع

ميشال اسطفان

المملكة المغربية

● تقع في افريقيا الشمالية الغربية، على المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، مساحتها ٤٥١,٥٠٧ كلم مربع، وعدد سكانها نحو ١٣,٥٠٠,٠٠٠ نسمة، وعاصمتها الرباط.

أهم موانئها: الدار البيضاء، واغادير، وفضالة، وآسفي، وطنجة، والعرائش، والناطور، وأهم مدنها: مراكش، والقصر الكبير، وفاس، ومكناس، وتازة، وتطوان، وقليلة، وسيته، وازمور، والصويرة، ووجدة.

كان البربر يسكنون البلاد قبل المسيح بعدة قرون، وقد أسس الفينيقيون فيها ما بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث ق.م. عدة مدن أخصها طنجة والعرائش، ثم احتل الرومان البلاد سنة ٤٢/٤٠م ثم اجلاهم عنها الفندال سنة ٥٣٣م.

كانت البلاد يحكمها قبائل تميز منها ثلاث: بنو المصمودي على السواحل وفي السهول الأطلسية وبعض جبالها. وبنو صنهاج، في الصحراء الغربية ويرتادون بعض سهول الأطلس وأوساطه. وبنو الزّاناتي، رُحّل من المناطق الشرقية.

فتح العرب البلاد سنة ٦٨٣م بقيادة عقبة بن نافع، ودخل الناس في الاسلام، ومنها انطلق موسى بن نصير لفتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد سنة ٧١١م.

وفي سنة ٧٣٩م استقل الخارجيون في المنطقة الغربية عن سلطة الخليفة لكنهم لبثوا على الاسلام، وقامت سلالات عدّة تسلّمت السلطة في البلاد وكانت تمتد وتتسع رقعة نفوذ كل منها وفاقاً لما يتوافر لها من المقومات، وأهم هذه السلالات هي: الوستمية (٧٧٦ – ٩٠٨م)، بنو حماد (١٠١٤ – ١١٥٢)، المرابطون (١٠٦١ – ١١٤٧)، الموحدّون (١١٢٥ – ١٢٦٩) الحفصيون (١٢٢٨ – ١٥٧٤)، المرينيون (١٢٤٤ – ١٤٦٥)، الوطاسيون (١٤٢٠ – ١٥٥٤)، السعديون (١٥٥٤ – ١٦٢٦) وأخيراً تسلمت السلالة الشريفية مقاليد الحكم سنة (١٦٦٠ – ١٧٢٧).

بلغت المغرب البربرية في فترة من الزمن ذروة مجدها فكان لها اسطول عظيم يصلها باسبانيا، وكان لها صناعة متقدمة تستجلب تجار بيزا وجنوا والبندقية. الاّ أن سوء الادارة الداخلية من جهة، وتوالي غزوات القراصنة الأوروبيين على سواحلها من جهة أخرى، اضعفها اقتصادياً وسار بها نحو التقهقر، وذلك منذ ما خسر محمد الناصر موقعة لاس نافاس في تولوزا.

وفيما كانت هذه السلالات تتناحر على السلطة فيما بينها كانت سواحلها نهباً للقراصنة، ثم احتل البرتغاليون بعض تلك الشواطئ، (سنة ١٤١٥، ارزيلا وطنجة ١٤٧١، سنتا كروز ١٥٠٥، آسفي ١٥٠٨، مزغان ١٥١٤).

لكن هذه الاعتداءات قوبلت بنوع من الحرب الدائمة، يقوم بها أهل البلاد، لكنها لم تكن ذات أثر فعال. إلى أن كانت موقعة القصر الكبير الذي قتل فيها سبستيان الثالث ملك البرتغال (١٩٧٨) فعادت للمغاربة هيبتهم في النفوس، ثم استعادوا طنجة ولاراش ولكن بعد قرن من الزمن كان مليئاً بالقلاقل الداخلية والخارجية.

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر استتب الأمر نسبياً للسلطان ، وكانت قد ارتبطت البلاد بمعاهدات تجارية مع بعض السلطات الأوروبية ، الا ان مطامع الأوروبيين بقيت لا ترتوي مما حمل مولاي عبد الرحمن (١٨٢٢-١٨٥٩) ومولاي محمد ابنه (١٨٥٩-١٨٧٣) على خوض حروب عدة ضد فرنسا وضد اسبانيا ، لكنها كانت غير موفقة.

من جملة المعاهدات مع أوروبا كان ثمة معاهدة تتعلق بالتشريع والحماية القنصليين موقعة مع فرنسا سنة ١٧٦٧ ثم جرى توضيحها في اتفاق طنجة الدولي سنة ١٨٦٣. وبالنظر إلى رغبة فرنسا الجامحة في السيطرة على البلاد ، فانها حصلت على امتياز اقامة سلطة بوليسية على الحدود المغربية الجزائرية لسنة ١٩٠١ و ١٩٠٢ ، وأخذت تعمل على تقليص نفوذ الدول الأوروبية في البلاد لتحل محلها. وفي حين كان مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ يضع المغرب تحت الاشراف الدولي كانت الجيوش الفرنسية بقيادة ليوتي تحتل أوجد (١٩٠٧) ثم جبال بني سناسن (١٩٠٨) ، وفي المغرب الشرقية دخلت في الوقت ذاته كتيبة فرنسية فاحتلت مدينة الدار البيضاء.

واتفق من جهة أخرى أن مولاي حافظ خلع اخاه عن الحكم وحل محلهُ (١٩٠٨) الاّ أن الشعب لم يستمر في مساندته فحاصره الشماليون في فاس فاستنجد بالفرنسيين (١٩١١) ، فكانت هذه خير فرصة للفرنسيين لكي يمعنوا في التدخل العسكري. وفي آخر السنة نفسها على أثر اتفاق اغادير بين فرنسا والمانيا (٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١) أصبحت يد فرنسا طليقة في البلاد ففرضت على مولاي حافظ توقيع صك الحماية (٣٠ آذار (مارس) ١٩١٢) وخصت اسبانيا بمنطقتين في البلاد باتفاق (٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٢). أما طنجة فقد تناولتها اتفاقية باريس (١٩٢٣).

ويبدو أن هذا لم يكن نهاية الخطة المقررة إذ ان فرنسا اعلنت الغاء الحماية وادخال البلاد في الحكم الفرنسي المباشر سنة ١٩٢٥ ، وبذلك اصبحت سلطة السلطان محصورة في القضايا الدينية وكان يحكم يومئذ مولاي يوسف الذي أكره الفرنسيون أباه مولاي حافظ على التنازل له سنة ١٩١٢.

في سنة ١٩٣٤ قام أول حزب سياسي في البلاد يطالب باعادة نظام الحماية بدلاً من نظام الاستعمار ، رأس احد شطري هذا الحزب علال الفاسي ، ورأس الشطر الآخر الوزاني.

كانت الظروف السياسية مؤاتية ، فتطورت المطالبة بالحماية إلى المطالبة بالاستقلال ، وكان قد مهد لذلك مولاي سيدي محمد بن يوسف ، الذي كان قد صار على رأس السلطة ، باجتماع عقده مع الرئيس روزفلت سنة ١٩٤٣.

ولأول مرة رفض مولاي سيدي محمد بن يوسف ، أن يصدق القرارات الصادرة عن الفرنسيين ، ثم طالب باستقلال البلاد في خطاب طنجة المشهور (نيسان (ابريل) سنة ١٩٤٤). حاولت السلطة بشتى الوسائل ان تضع حداً لهذه الانتفاضة فلم تفلح ، فعزلت مولاي سيدي محمد بن يوسف ، ونفته خارج البلاد وعينت محله محمد بن عرفة (آب (اغسطس) ١٩٥٣) ، لكنها اضطرت لاعادته إلى الحكم بعد سنتين (آب (اغسطس) ١٩٥٥).

كان من نتيجة هذا العود المظفر لمولاي سيدي محمد بن يوسف ، ان التف الشعب حوله ، فاضطرت فرنسا للاعتراف به ملكاً على المغرب في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥ ، ثم اعترفت باستقلال البلاد في ٣ آذار (مارس) ١٩٥٦. وفعلت اسبانيا مثل ذلك في ٧ نيسان (ابريل) ١٩٥٦ ، وألغي نظام طنجة الدولي في ٢٩ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٦ ، ودخلت المغرب جمعية الأمم المتحدة في تموز (يوليو) ١٩٥٦ ، وأعلنت مملكة يرأسها مولاي سيدي محمد بن يوسف باسم محمد الخامس ملك المغرب ، وذلك في ١٨ آب (اغسطس) ١٩٥٧.

وفي سنة ١٩٦١ انتقل الملك محمد الخامس إلى جوار ربه ، فتولى الحكم ولي عهده الملك الحسن الثاني.

تاريخ الطوابع

تاريخ طوابع المغرب واسع ومعقد جداً ، بسبب الانظمة المختلفة التي مرت بها البلاد ، وبسبب المناطق المتاخمة والتابعة لها ، ثم بسبب مكاتب البريد الاجنبية

الكثيرة التي استعملت الطوابع فيها، نفصلها كالآتي :

١ – المكاتب الاجنبية الاسبانية ١٨٦٠ – ١٩١٠.

٢ – المكاتب في المناطق تحت الحماية الأسبانية ١٩١٤ – ١٩٥٦.

٣ – المكاتب الأجنبية الفرنسية ١٨٦٢ – ١٩١١.

٤ – المكاتب في المناطق تحت الحماية الفرنسية ١٩١٤ – ١٩٥٦.

٥ – المكتب البحري الفرنسي في الدار البيضاء ١٩٤٣ – ١٩٤٥.

٦ – مكاتب المؤسسات الخاصة للبريد الداخلي ١٨٩١ – ١٩٠٩.

٧ – المكتب الشريفي ١٨٩٢ – ١٩١٩.

٨ – المكتب الحربي الفرنسي في ولاية المليلة ١٨٩٣ – ١٨٩٤.

٩ – المكاتب الأجنبية البريطانية ١٨٩٨ – ١٩٥٦.

١٠ – المكاتب الاجنبية الالمانية ١٨٩٩ – ١٩١٩

١١ – المكتب في ولاية افني ١٨٦٠ – ١٩٦٩.

١٢ – المكتب في ولاية رأس جوبي ١٩١٦ – ١٩٥٠.

١٣ – المكتب في ولاية افريقيا الغربية الاسبانية ١٩٤٩ – ١٩٥١.

منطقة طنجة الدولية

١٤ – المكتب الفرنسي ١٩١٨ – ١٩٤٢.

١٥ – المكتب الاسباني ١٩٢١ – ١٩٥٧.

١٦ – المكتب البريطاني ١٩٢٧ – ١٩٥٧.

١٧ – المغرب في عهد الاستقلال ١٩٥٦

١ المكاتب الأجنبية الأسبانية ١٨٦٠ – ١٩١٠

استعملت الطوابع الاسبانية في المغرب بدون توشيح، بمكتب للبريد الحربي من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٩٠٣. ثم بوشر بتوشيح الطوابع الاسبانية لتستعمل في البلاد. ففي سنة ١٩٠٣ اصدرت طابعاً من فئة ١/٤ سنتيموس بعد توشيحه جانبياً بسطرين، (Carreo Espagnol / Marruecos) بحرف صغير، وكان لون الطابع مصفراً وورقه سميكاً. وفي سنة ١٩٠٩ اصدرت طابعاً آخر يماثله من فئة ١/٤ س، لكنَّ ورقه كان عادياً وأبيض. وفي سنة ١٩٠٣/٩ اصدرت مجموعة مؤلفة من ١٢ طابعاً موشحاً مثل التوشيح السابق، ولكن باحرف كبيرة ضعف أحرف التوشيح الأول. وفي سنة ١٩٠٨ اصدرت مجموعتين، الأولى من تسعة طوابع والثانية من ستة طوابع، موشحة باليد بكلمة تطوان بالافرنجي فقط، واصبحت قيمتها اليوم نحواً من ٣٠٠ جنيهاً استرلينياً.

وفي سنة ١٩٠٩/١٠ اصدرت مجموعة من ١٢ طابعاً من ٢ سنتيموس إلى ١٠ بزيتاس، بما فيها الفئات الثلاث ٢٥ س و ٤ و ١٠ ب، التي لم تستعمل في حينها. وبعد اصدار المجموعة اللاحقة، وكانت المنطقة قد اصبحت تحت الحماية الاسبانية، خصصت هذه المجموعة كاملة مع الفئات الثلاث الآنفة الذكر، لتستعمل فقط في طنجة. وتجدون الشرح عنها في المكان المخصص لطنجة.

٢ – المكاتب في المناطق تحت الحماية الاسبانية ١٩١٤ – ١٩٥٦.

باشرت اصدارات هذه المكاتب باول مجموعة من الطوابع الاسبانية بتاريخ ٢٢ تموز/يوليو ١٩١٤، بعد توشيحها بكلمة (Marruecos)، وكانت مؤلفة من ١٣ طابعاً عاديا وطابع واحد للبريد المستعجل. ثم اصدرت سنة ١٩١٥/١٦ مجموعة ثانية عادية من ١٣ طابعاً وطابع واحد للبريد المستعجل، بعد توشيحها بثلاثة اسطر.

Protectorado. Espagnol En Marruecos

). ثم اصدرت مجموعة ثالثة سنة ١٩١٦/٢١ من ١٤ طابعاً للبريد العادي، بعد توشيحها باربعة اسطر.

Zona de Protectorado Espagnol en Marruecos

وبعدها اصبحت تصدر المجموعات العادية والتذكارية والبطاقات، وتوشح الفئات اللازمة بحسب الطلب، وكذلك المجموعات المصورة بمناظر البلاد ومن ضمنها ثلاثة طوابع تحمل صورة الجنرال فرانكو، فئة ١٠ س، وثلاث بطاقات، خصص ريعها لمساعدة الجنود مشوهي الحرب، وأصدرت طابعاً وبطاقة لكل من ١٩٣٧ و ١٩٣٨ و ١٩٣٩. والملاحظ ان كل بطاقة كانت تحمل مربعاً من أربعة طوابع من فئة ١٠ س.

أما مجموع ما اصدرت من طوابع خلال فترة الحماية الاسبانية، فهو ٤٠٩ طوابع وخمس بطاقات، تبلغ بمجملها خمسين مجموعة. ولما اعترفت اسبانيا باستقلال البلاد في نيسان/ابريل ١٩٥٦، انتهى نظام الحماية عن المنطقة الشمالية من المغرب، ما عدا سبتة ومليلة اللتان الحقتا بالحكم الاسباني.

وسيتبع في الاعداد القادمة الشروحات الوافية لاصدارات المكاتب الأخرى. ●

مسابقة العدد

افقياً:

١ – الاسم الأول لاحد الملوك. مواطن الظن.

٢ – في. الاسم الأول لرئيس عربي (معكوسة).

٣ – الاسم الأول لاحد السلاطين (معكوسة).

٤ – مدينة سورية (معكوسة). فتت (معكوسة). مبسم.

٥ – احد القوارض.

٦ – قرع. الأسم الأول لرئيس عربي.

٧ – نسمات (معكوسة). شجاع (معكوسة).

٨ – ابتغي. الاسم الثاني لرئيس عربي.

٩ – الاسم الأول لرئيس عربي. ضمير متصل.

عمودياً:

١ – الاسم الأول لرئيس عربي. منطقة بترولية في دولة عربية.

٢ – داء وبيل. عقبات (معكوسة).

٣ – الاسم الأول لأحد الملوك (معكوسة). أسأل.

٤ – الاسم الأول لرئيس عربي.

٥ – المتضجر (معكوسة).

٦ – الاسم الأول لرئيس عربي (معكوسة). انحرف عن السنن الصحيح.

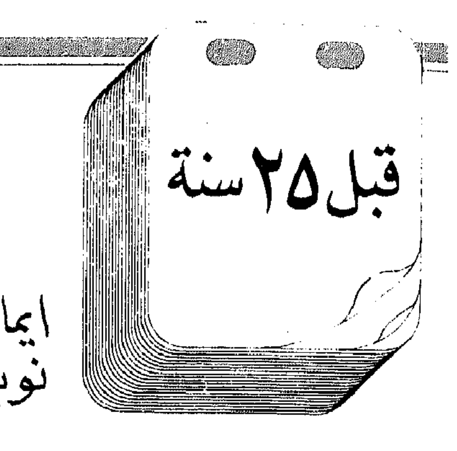
٧ – صوت كالغراب. الاسم الأول لأحد الملوك.

٨ – اشتعل. بلد عربي.

٩ – شكر. ظهر.

٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
					■				١
■					■				٢
	■						■		٣
		■			■				٤
			■		■	■		■	٥
■						■			٦
			■						٧
				■					٨
		■		■					٩

أنظر الحل في الصفحة ٩٥.



ايمان نويهض

كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٤

١ كانون الأول (ديسمبر).

● وزراء الخارجية العرب يلتقون في القاهرة لبدء اجتماعات اللجنة السياسية للجامعة العربية.

● جمال عبد الناصر، رئيس الوزراء المصري، يلتقي، كلا على حدة، وزير خارجية سوريا فيضي الأتاسي، وزير خارجية لبنان الفرد نقاش، ووزير خارجية العراق موسى الشابندر.

● وافق بعض زعماء الثوار التونسيين على الهدنة المقترحة من الحكومتين الفرنسية والتونسية مقابل تسليم كامل اسلحتهم.

● اللجنة السياسية للجامعة العربية تحتج على المذكرة الايرانية التي تطالب الطائرات العربية بضرورة طلب الاذن من ايران للهبوط في منطقة البحرين.

● الدكتور شارل مالك، سفير لبنان في الأمم المتحدة، يرئس اجتماعات مجلس الأمن الدولي خلال هذا الشهر.

٢ – كانون الأول (ديسمبر):

● نفى فؤاد عمون، المدير العام لوزارة الخارجية اللبنانية، خلال اجتماعات الجامعة العربية ان يكون لبنان قد فكر بالانضمام إلى حلف تركيا – باكستان.

● محادثات طويلة بين عبد الناصر واسماعيل الازهري، رئيس الوزراء السوداني، بالقاهرة.

٣ – كانون الأول (ديسمبر):

● تأجيل زيارة عدنان مندريس، رئيس الوزراء التركي، إلى مصر.

٤ – كانون الأول (ديسمبر):

● محكمة الشعب المصرية تصدر قراراً باعدام سبعة من أعضاء جماعة الاخوان المسلمين (منهم حسن الهضيبي المرشد العام، محمود عبد اللطيف، ويوسف طلعت..) والسجن المؤبد مع الاشغال الشاقة لسبعة آخرين والسجن خمسة عشر سنة لاثنين وبراءة لثلاثة.

● مجلس قيادة الثورة المصري يخفض حكم الاعدام على الشيخ حسن الهضيبي إلى أشغال شاقة مؤبدة.

● فؤاد عمون، المدير العام للخارجية اللبنانية، يحمل رسالة من الرئيس اللبناني كميل شمعون إلى جمال عبد الناصر.

● اقامة علاقات دبلوماسية بين المملكة العربية السعودية والمانيا الغربية.

٥ – كانون الأول (ديسمبر):

● الرئيس اللبناني كميل شمعون يستقبل شاه ايران خلال هبوطه في مطار بيروت في طريقه إلى نيويورك.

٦ – كانون الأول (ديسمبر):

● الحكومة المصرية تقرر اطلاق سراح الباخرة الاسرائيلية «بات غاليم» مع طاقمها.

● مصر وبريطانيا تتبادلان وثائق التصديق على اتفاقية الجلاء ويودعان نسخة منها في سكرتارية هيئة الأمم المتحدة.

٧ - كانون الأول (ديسمبر):

● استسلام حوالي ٣٠٠٠ ثائر تونسي للحصول على العفو العام.

● تنفيذ حكم الاعدام في زعماء الاخوان المسلمين في مصر.

● شكري القوتلي يزور مصر.

● اللجنة السياسية العربية تقرر إدراج قضية الجزائر في الأمم المتحدة.

٩ كانون الأول (ديسمبر):

● اللجنة السياسية التابعة للجمعية العمومية للامم المتحدة تناقش مشكلة مراكش والوفد الفرنسي يتغيّب عن الاجتماع.

● البنك الدولي يتحفظ في تمويل مشروع الليطاني في لبنان في حال إقامة الوحدة الاقتصادية بين سوريا ولبنان.

● مصطفى بن حليم، رئيس الوزراء الليبي، يؤكد ارتياحه للعلاقات مع بريطانيا وللاتفاقية البريطانية الليبية كما يؤكد انشراحه للمساعدات الاميركية للتنمية الداخلية.

١٠ كانون الأول (ديسمبر):

● خلال اجتماعات المجلس الاقتصادي العربي في القاهرة، الوفد اللبناني يقدم اقتراحاً بقيام وحدة اقتصادية عربية شاملة تنفذ على مراحل خلال خمس سنوات.

١١ - كانون الأول (ديسمبر):

● مجلس الجامعة العربية يوافق على توصيات اللجنة السياسية العربية.

- ترشيح لبنان ومصر إلى المجلس التنفيذي لهيئة الثقافة الدولية.

- الاشتراك في مؤتمر جاكارتا باندونيسيا.

- اصلاح مسجد الصخرة الشريف في القدس.

- الاهتمام بقضايا جنوب اليمن.

- تعيين طه حسين رئيساً للجنة الثقافية الدائمة للجامعة العربية.

- تقديم شكوى سورية ضد تحويل مياه نهر الاردن إلى مجلس الامن.

- دعم الحرس الوطني الاردني.

- البحث عن البترول والاورانيوم.

- البحث في المعاملة التي يلقاها العرب داخل اسرائيل.

١٢ - كانون الأول (ديسمبر):

● رفع العلاقات الدبلوماسية بين ليبيا وتركيا إلى مستوى سفارة.

● احكام اعدام جديدة ضد الاخوان المسلمين في مصر.

١٣ - كانون الأول (ديسمبر):

● رغم معارضة الولايات المتحدة نجحت الكتلة الافرو اسيوية على ابقاء المسألة المراكشية مدرجة ضمن أعمال اللجنة السياسية للأمم المتحدة.

١٤ - كانون الأول (ديسمبر):

● احكام اعدام اخرى ضد الاخوان المسلمين في مصر.

● اعضاء مؤتمر جوبا المؤلف من اعضاء حزب الجنوب في السودان يطالبون بجمهورية مستقلة في جنوب السودان تربطها وحدة فيدرالية مع الشمال.

● بدء مؤتمر للدبلوماسيين الاميركيين في الشرق الأوسط في دمشق.

١٥ - كانون الأول (ديسمبر):

● مجلس قيادة الثورة المصري يخفف احكام الاعدام.

١٦ – كانون الأول (ديسمبر) :

● انهاء اجتماعات المجلس الاقتصادي العربي في القاهرة.

● انباء صحفية تسرب استعداد بعض الوزراء العرب لتمتين العلاقة مع الغرب مقابل قواعد جدية لهم.

● تأجيل دراسة مسألتي تونس ومراكش في الأمم المتحدة بانتظار نتائج المفاوضات بين الفرنسيين والحكومتين التونسية والمراكشية.

١٨ – كانون الأول (ديسمبر) :

● وصول الملك حسين، ملك الاردن، يرافقه توفيق ابو الهدى، رئيس الوزراء، إلى لندن.

١٩ – كانون الأول (ديسمبر) :

● تعديل وزاري في الوزارة الليبية.

● وصول موسى الشابندر، وزير خارجية العراق، إلى بيروت.

٢٠ – كانون الأول (ديسمبر) :

● اسماعيل الأزهري يتهم ثلاثة وزراء سودانيين بالعمل مع حزب الأمة السوداني ضد سياسة التعاون مع مصر ومجلس الوزراء يقيلهم من مناصبهم بالرغم من انكارهم للتهم الموجهة اليهم.

● وزير الخارجية السوري فيضي الأتاسي يؤكد أمام النواب السوريين ان سوريا لم تعط موافقتها على توصية باقامة حلف عربي للدفاع عن الشرق الأوسط يدعمه الغرب.

٢٣ – كانون الأول (ديسمبر) :

● موسى الشابندر، وزير الخارجية العراقية، يصل دمشق ويقابل فارس الخوري رئيس الوزراء السوري لشرح وجهة نظر العراق ثم يعود إلى بغداد.

٢٤ – كانون الأول (ديسمبر) :

● وافقت سوريا على نقل مصفاة حيفا إلى لبنان.

● تعديل وزاري في السودان يصبح فيه اسماعيل الازهري رئيساً للوزراء ووزيراً للداخلية والدفاع.

٢٧ – كانون الأول (ديسمبر) :

● طالب اسماعيل الأزهري باقامة جمهورية سودانية مستقلة عن مصر يربطها بها مجلس اعلى من مجلس الوزراء يجتمع مرة أو مرتين كل عام.

٢٨ – كانون الأول (ديسمبر) :

● انعقاد المؤتمر الأرثوذكسي في لبنان.

● الحكم باعدام خمسة عسكريين في مصر مسؤولين عن الجهاز السرّي في الاخوان المسلمين.

٢٩ – كانون الأول (ديسمبر) :

● وفاة ميشال شيحا واضع الدستور اللبناني.

٣٠ – كانون الأول (ديسمبر) :

● سوريا تلغي تأشيرة الدخول اليها للرعايا العرب.

● استقالة روبرت هاو الحاكم العام في السودان وتعيين الكسندر نوكس – هلم مكانه.

● بدء اجتماعات مؤتمر التعليم الالزامي العربي في مصر.

حل المسابقة

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١	ح	س	ن		م	ظ	ن	ا	ت
٢	ب	ل	ي		ر	ف	ع	ج	
٣	ي		س	و	ب	ا	ق		ح
٤	ب	ل	ح		ت	ح		ف	م
٥		ي			م		خ	ل	د
٦	د	ق		ا	ل	ي	ا	س	
٧	م	ا	س	ن	ا		ل	ط	ب
٨	ا	ر	ج	و		ش	د	ي	د
٩	م	ع	م	ر		ذ		ن	ا

برج القوس



٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني
٢٢ ديسمبر/ كانون الأول

يرمز عادة إلى برج القوس بصورة الكائن الخرافي المعروف باسم (القنطور) ويصور على شكل نصف إنسان ونصف حيوان، وقد يختلف هذا الحيوان من رسم لآخر: فالفرنسيون يرسمونه على شكل أسد والعرب على شكل حصان أما الفراعنة فعلى شكل بقرة. المهم ان الانسان النصفي هو على نمط واحد إذ يحمل القوس والنشاب في وضع الإنطلاق. وهذا ما يعبر في وضوح عن الصفات التي يتميز بها مواليد هذا البرج. إنهم يتمتعون بصفتين متلازمتين هما: الحيوية والحماس من جهة وبعد النظر من جهة ثانية، وتكسبان صاحبهما روح التسامح والصبر الطويل مما يظهره أمام الناس وكأنه يتسم بالسطحية وعدم الجدية في نظرته إلى الأمور.

أصحاب هذا البرج في حاجة ماسة إلى الحرية الذهنية والجسدية وإلى اكتشاف الجديد في كل شيء. من هنا نفهم رغبتهم العارمة في ممارسة الرياضة خصوصاً أنواع الرياضة التي تتعلق بالأرجل والأوراك.

تكون ردة فعل مواليد هذا البرج تجاه التحديات قوية وهذا ما يساعدهم على تحمل الصدمات والتكيف معها.

إنهم بارعون في مناقشة «المواضيع التي تثير إهتمامهم مع إهتمامهم الزائد بمعرفة أكبر عدد من المواضيع المتفرقة».

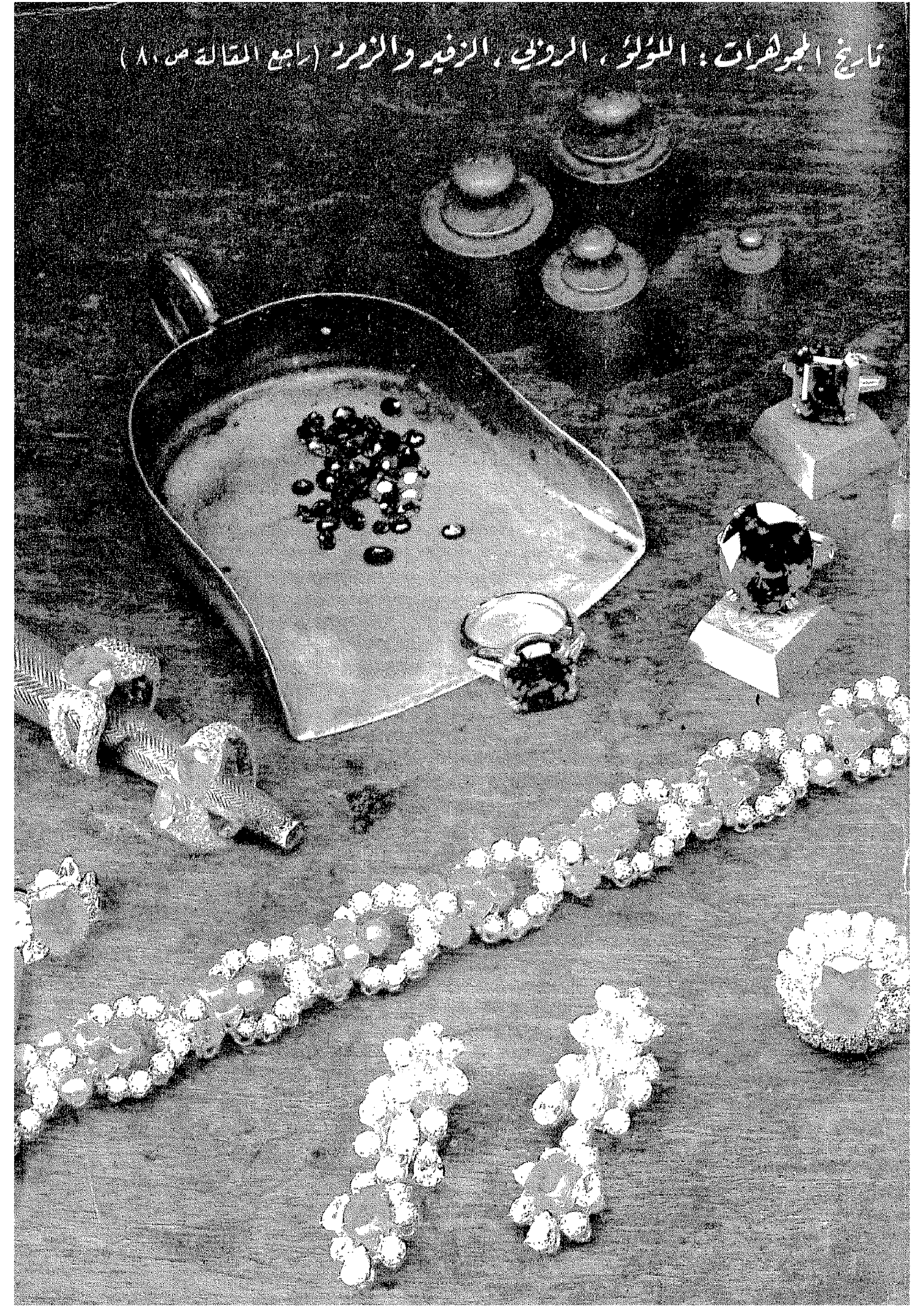
عندهم المجال للنجاح في التخطيط لمشاريع كبرى وتدل قراراتهم حولها انها تنم عن نضج وحكمة، ولكنهم يأنفون من الدخول في التفاصيل الصغيرة ولا يستسيغون الرتابة المملة. لذلك هم في حاجة إلى شريك حياة يفهم اندفاعهم ويقدر ميلهم الشديد للحرية. ويفضلون الأصدقاء الذين يقدمون إليهم الجديد في حديثهم وأفكارهم ومشاريعهم.

ويذكر ان عالم الفلك جان رينياك أعلن منذ أواخر ١٩٧٣ عن إكتشافه لبرج جديد يقع بين كوكبي العقرب والقوس واسماه برج الأفعى وهو يتعلق بمواليد ٢٣ تشرين الأول/اكتوبر و ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ويبرر اكتشافه هذا استناداً إلى أن الشمس تخترق ثلاثة عشر كوكباً. ولكن يبدو ان الاجماع لم يتم بعد حول هذا الأمر.

إستناداً إلى ابحاث العلماء فإن برج القوس له تأثير ء اشر في الكبد والفخذ ومفصل الورك.

من الشخصيات العالمية في التاريخ القديم والحديث والمولودة تحت برج القوس نذكر:

الموسيقى الألماني بيتهوفن – ولت ديزني مخترع «ميكي ماوس» – المغني الأميركي فرانك سينترا – الممثل الأميركي كيرك دوغلاس السير ونستون تشرشل – موحد إيطاليا غاريبالدي (١٨٠٧ – ١٨٨٤) – ليونيد بريجينيف. الكاتب الهزلي الأميركي مارك توين.



تاريخ الجواهرات : اللؤلؤ ، الروبي ، الزفير والزمرد (راجع المقالة ص ٨١)

